نحوَ فقهٍ حركيٍّ يجمعُ الأمّةَ ويتجاوزُ العتبةَ الحزبيّةَ

إعداد وبحث:

عباس أبو تيم شريفة

نحوَ فقهٍ حركيٍّ يجمعُ الأمّةَ ويتجاوزُ العتبةَ الحزبيّةَ

إعداد وبحث: عباس أبو تيم شريفة:

" مهتم بقضايا الفكرِ الإسلاميّ والصّحوةِ الإسلاميّة والتنميةِ البشريّة، مستقلٌّ عن كلّ الجماعاتِ والأحزابِ وانتمي إلى أمتي الإسلاميّة "

البريد الالكتروني:

abas.abotim@gmail.com

عدد صفحات البحث:

149 صفحة

تصميم وإخراج:

عزّة أحمد

حقوق النشر والطبع محفوظة لمركز عزّام

أو بإذن خطي من الكاتب

الفهرس

مقدمة البحث 4
الفصل الأول: أزمات الحركة الإسلامية 14
الفصل الثاني: تيارات إسلامية بين الشهوات والشبهات 37
الفصل الثالث: الفقه الحركي والانتقال من فقه الجماعة إلى فقه الأمة.....44
الفصل الرابع: السياسة الشرعية الرشيدة 105
الفصل الخامس: خارطة الطريق للمنهج الحركي الصحيح 120
الخاتمة.....147

قال تعالى

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ الأنبياء:92

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ المؤمنون:53

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران:104-105

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام:153

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ الروم:31-32

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المائدة:55

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمةُ البحث:

إنَّ الحمد لله نحمدهُ ونستعينُ به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرورِ أنفُسنا وسيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً.
اللهم صلِّ على سيدنا وأسْوتنا وقدوتنا وقائدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

فهذهِ دارسةٌ متواضعةٌ لمعالجةِ الحالة الحزبيّة المستشرية في ساحة العمل الإسلاميّ.
الحزبيّة التي غدت أفيون الشعوب الذي يُخدّر الأمّة عن إزاحة الطغاة بانشغالها في ترجيح مناهجها وافتعال خصوماتٍ بينيّة يكون الطغيان هو المستفيد الوحيد منها.
لم تعد الحزبيّة تخدمُ إلا مصالح الأنظمة الاستبدادية في تأبيد حكمها وإضعاف الأمّة المستعبَدة لكيلا تقوى على الانعتاق والتحرّر ولتبقى رازحةً تحت نَيْرِ العبودية، بل إنّ كثيراً من الطغاة عمل على تغذيتها وتأجيج سُعارها ليدوم بذلك مُلكه ويطول ليل الإذلال على الأمّة المستضعفة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (4) القَصَص.

ما أخشاه بداية أنْ يجير هذا الكتاب لصالح الانتصار للقوى العلمانية الرابضة على ثغور اغتنام أخطاء العاملين للمشروع الإسلاميّ، المتصيدين في الماء العكِر ليحصدوا بذلك مكاسب سياسية وليطعنوا بالإسلام من خلال أخطاء أهله.
أو أن يقوم أصحاب الطبع الذبابيّ بالتقاط الهَفَوات ويَعْموا عن حسنات الإخوة العاملين للمشروع الإسلاميّ.
كان شيخ الإسلام رحمه الله يقول: "العلماء كالبحار، وإذا بلغ الماءُ القُلَّتَيْنِ لم يَحْمِلِ الخَبَث".
لذلك أقرّر بداية أنَّ هذا العمل موجهٌ للإخوةِ العاملينَ لخدمةِ الإسلام وهو يتناول تصحيحَ المَسارِ والتَّنْبيهَ للمطبَّات المُتكرِّرِ وُقُوعنا بها.
فهو عِتابٌ موجَّهٌ للبيت الدَّاخلي لِمَن نُوالِهِمْ بالله ولا نَشُكُّ بإخلاصهم.
يَجِبُ على الحركات الإسلاميّة أن تُصيخَ السّمع لأصوات النّاقدين المُشفقين، لأنّ كَثرة الاستماع للإطْراءِ والتَّزكيةِ والمديحِ يُوْرثُ حالةً من الاسترخاء والاعتياش على الأمجاد والتاريخ بعد أن يَجِفَّ نهر العطاء.

مشكلة النّـاقدين الإسلاميّين أنهم يُحاكِمون الجماعات والرّموزَ خارجين عن خصوصيَّـة الظَّـرفِ الزَّمانيِّ والمكانيِّ لدعوتهم فَيَقَـعُ منهم الإجحاف.
ومشكلة المعجَـبينَ بالجماعات والرّموز أنهم يريدون تعميمَ أفكار مَن يُحبُّـون على كل الظُّـروفِ الزَّمانيَّة والمكانيَّة فيقعون في التّـعصُّبِ المـمْجوجِ، والإنصاف أن تُـحاكمَ الأفكار في سياقِ خُصوصيَّـةِ الظَّـرف.
بات من المُـلِـحِّ إنَّـهاءُ حالةِ الاستقطابِ بين الجماعات الإسلاميّـة وإيقاف الجُـيوبِ النَّـاريّـة والاستنزافِ الحاصل لطاقاتها في مواجهةٍ جانبيةٍ تُـعزِّزُ حالةَ الانقسامِ والاحترابِ الدّاخليِّ وتُـبْـقي الأنظمة الاستبداديَّـة والقوى الاستعمارية مُـعْـتاشَـةً على هذا النَّـزيف.

إنَّ الحركات الإسلاميّـة أمام خيارين في سعيها الحثيث لإخراج الأمّـة من ربقة التبعيّة:
1- تحقيقُ الانعتاق الكُـلِّـيِّ من قُوى الهيمنةِ العالميّـة يحتاج إلى امتلاكٍ لأدواتِ الحضارةِ الماديّـة، وهذا ما لم يُـسعى إليه إلى الآن.
2- تحقيق الانعتاق الجزئيّ يحتاجُ إلى سياسةٍ شرعيّـةٍ صحيحةٍ ورؤيةٍ شرعيّـةٍ واضحةٍ وتعبئةٍ شعبيةٍ وبناءِ جبهةٍ من الحُـلَفاءِ الأقوياءِ واصطفاف متينٍ.
وغير ذلك ستبقى الأمّـة في دائرة التّـبعيّة المطلقة والاستنزاف إذا ما كان السّعيُ نحوَ الانعتاق الكلّي بدونِ امتلاكٍ لناصيةِ التكنولوجيا المتطورة والعلم الماديّ الدّاخلِ في الفروضِ الكفائية والنظر إلى ذلك أنَّـه جزءٌ من الإعداد الماديّ الدّاخلِ في دائرة التّـكليف.

المتأمّلُ في نشوء التيارات الإسلاميّـة يجد أنَّـها أو في غالبها إفرازاتٌ للمشاكل التي عصفت بالأمّـة، فحركة الإخوان المسلمين الحركة الأم للجماعات الإسلاميّـة ترافَقَ تأسيسها مع سقوط الخلافة الإسلاميّـة، والسّـلفيّةُ الجهاديّـةُ ترافقت مع احتلال أفغانستان، وبداية الجهاد الأفغانيّ وحزب التحرّير جاء بعد ضياع فلسطين، والصوفيّـة نشطت بعد إغراق أبناء الأمّـة بالتّـرفِ والملذّاتِ. تكاد تكون هذه الحركات إفرازاً لأزمات مرّت بها الأمّـة، لذلك كانت استراتيجيتها العامّـة مَوْصُومةً ومشبعةً ومتأثرةً بشكل واضح بالأزمة التي جاءت هي كردّة فِعلٍ لعلاجها، ممّا غَـيّبَ عنها النّظرة الشموليّـة والبحث في جذور الأزمات التي تسبّبت بقيام هذه الحركات، وغلب على مناهجها خُطّة علاجِ الأزمات بدلاً من خطّة البناء والنظرة الاستيعابية للمنهج والتاريخ والواقع، فهي حركات موصومة بعقدة الأزمة.

في رأيي المتواضع أنّ أي تيّـارٍ إسلاميّ جديد حتى يَخرج من مسألة القياس على التّجاربِ السّالفةِ يجبُ أن يلتزمَ بضوابطَ شرعيّـةٍ واضحة في تحديد الأولويّـات، فمسألة الخروج على الإمام الكافر أو الجائر ونصب الخليفة وإقامة الشريعة وجهاد الطّلبِ وتولّي الولاية في الدولة الكافرة هي مسائل مَنُوْطَةٌ بالقُدرةِ والمكنةِ، وتحديدِ ما إذا كنّا ممكّنينَ من عدمه هي مسألةٌ خاضعةٌ للاجتهاد المَحْضِ ليس لها مُحدِّدٌ شرعيٌّ، ومن الطبيعي أن يقعَ فيها الاختلاف والتَّباين. ولكن حتى تنضبط المسألة هنا، يجب على هذا التيار الجديد أن ينضبط اجتهادُه بقواعد أصول الفقه، وهو الشيء الذي طالما كان غائباً عن أدبيّات الجماعات الإسلاميّـة لأنّ الفكر والمفكّر هو معنىً مرادفٌ للاجتهادِ والمجتهدِ، ومن الضروريّ أن يمتلك هذا المفكّر أدوات التّـفكير ليكون تفكيره مؤصّلاً.

أغلب الاجتهادات التي أخرجها المنظّرون كانت مبنيّة على أصول جماعتهم ومتماشيةً مع مُخرجاتِ أحزابهم ومتماشيةً في تبرير السياسة لا في ضبطها.

ولا بد لهذا التيار أن يدرس الواقع بعناية لأنّ اضطراب الفتوى واضطراب الموقف السياسي يأتي دائماً من تضخيمِ الواقع أو التّهوين منه مما يؤدي إلى اتخاذ مواقفَ واجتهاداتٍ مضطربة كان من نتاجها حصاد المزيد من الهزائم والانتكاسات والقرارات الاعتباطية.

كذلك على هذا التيار الجديد أن يوسّع من دائرة الفقه لديهِ ويعمل على رؤية الواقع من زوايا فقهية عديدة.

ونحن إذ نبشر بهذا التيار لا نقصد بالضّرورة أن يكون حزباً جديداً يُضَمّ إلى قائمة الأحزاب التي تعجّ بها الساحة، وإنّـما نقصد به حركةً اجتماعيةً تتوظّف من خلالها كلّ طاقة الأمّـة في سبيل حمل المشروع الإسلاميّ دون إقصاء لأي طاقة مفيدة فيكون أقرب لورش العمل بين كفاءات ربما تختلف بالفكر.

وهنا لا بدّ من مراكز الأبحاث التي تزوّدها بذلك، إذ كيف للفقيه أن يفتيَ في واقعٍ يراه من خلال عيون الغربيِّين المدجّجين بمراكز الأبحاث والإحصاء؟!

وللأسف نحن أمّـةٌ لُغةُ الرّقمِ عندها مَـهْدورةٌ، وتقييمُنا للواقع يخضعُ للرّغباتِ والأهواء والانطباعات المفتقرة للموضوعية.

في هذا البحث المتواضع طرحٌ لأسئلةٍ كبيرةٍ لمْ أشأ الإجابة عليها بمفردي، فإن إحدى أزمات الأمّـة هو كثرة من يتكلمون بمشاكلها حتى كَثُرَتْ الأدويةُ التي زادت من إعيائها، ولظني أنّ الحلّ لن يكون إلا من خلال العَصْفِ الذّهنيّ لمجموعِ الأمّـة قد تصل إليه الأمّـة من أتونِ المِحَنِ ومن تحت ركام الألم وخطب المُصاب وكثرة الجراح، ذلك أن التجارب الذاتية والابتلاءات العامّـة هي التي تُرَسِّخُ المفاهيم والحقائق وتجمع الأمّـة على كلمة سواء بعيداً عن التنظير الذي

يطلّ إلينا من الترف الفقهي والبروج العاجية للأحزاب التي تمارس دور الوصاية على أمّـة يرونها قاصرة لم تبلغ سنّ الرشد.
ولعلها حركة تجديدية تتهيأ الأمّـة للانضواءِ تحتها تقودها طائفة الحقّ المنصورة التي لا أراها تتمثل بجماعة أو حزب أو تنظيم.
كثيراً ما تقع الأحزاب الإسلاميّـة ضحيةً بين خطاب الإطراءِ الذي يُـغْـفِلُ المعايب و المثالب وبين خطابِ العداء الذي يضخّم المثالب ويَغْمِط الحسنات، فيَتسبّبُ ذلك بإحْجامها عن أي خطوة نحو الإصلاح بسبب غياب منطق النصيحة المشفقة وشيوع الجلد والنقد والاستئصال.
وهنا لا أنسى أن أتوجّه بالشّـكر الموصول للإخوة الذين تحاورتُ معهم في مركز الدراسات الاستراتيجيّ، وكان للحوار معهم ثمار كثيرة فُرِّغَت في هذا البحث.
نسأل الله تعالى أن يكون في ميزان حسناتهم...

البيان في مفردات العنوان

لابد لكل باحثٍ من تحديد عنوانِ بحثه، ليكون والقارئَ معاً على بصيرة فيما يحتويه البحث ويتضمنه، ويتميز به عن غيره ولكي يعرف الباحث مادة ما يبحث فيه ويبتعد عما يكون البحث فيه عبثاً، حائداً عن نقطة البحث وكذلك يكون القارئ في الوقت نفسه متصوراً لما يريد أن يجد فيه من بغية نحوَ فقهٍ حركيٍّ يجمعُ الأمّةَ ويتجاوزُ العتبةَ الحزبيّة

(نحوَ)

"نحو" تعرب نائبَ ظرفِ مكانٍ إذا أضيفت إلى اسمٍ يدل على مكان، نحو: "توجهت نحوَ المنزلِ ".

وتعرب نائب ظرف زمان إذا أضيفت إلى اسم يدل على زمان، نحو: " توجهت إلى البيت نحوَ الساعة العاشرة "

وتعرب اسماً مجروراً إذا سبقت بحرف الجر كما في قولنا "في نحوِ كذا"

وتعرب مفعولاً مطلقاً منصوباً (مثل نحا نحوَ)

وتعرب مفعولاً به لفعل محذوف تقديره أعني نحو..

وتحمِل المعاني اللغوية الآتية:

النَّحْو: القصد، والنَّحْو: الجهة والنَّحْوُ: المِثْل، والنَّحْوُ: المقدار، والنّحْوُ: النّاَحية والنَّحْوُ: الطريق. (القاموس المحيط)

وهذا المعنى اللغوي مطلوب في الفعل الحركي من تحديد جهة المسار والسبيل والتماثل بين الفكر والتطبيق وتحديد مقدارِ الحركة التي يرادُ إنجازها في حدود الظرفِ الزماني والمكاني.

والاتجاهُ يسمى: منحى، ونحا نحوه = أخذ مساره واتجاهه

ومسير أي جماعة إسلامية لتحقيقِ مقاصدِ الشرع يجب أن ينطلق من تعاليم شرعنا الحنيف بكل نقاءٍ وطهر دون دَخنٍ أو دخل أو مواربةٍ فلا يمكن أن نصل للغاية التي أمرنا بها الله تعالى بها من غير الطريق الذي اختطه لنا.

قال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: 153

نلحظ أن تباين وتعدّد المساراتِ والسبلِ يتبعهُ تعدّدُ وتباينُ الأحزاب والجماعاتِ لزاماً. لاختلاف الجماعة على السبيل ومعالِمه أثرٌ في تحوّلِ الجماعة إلى أحزابٍ فالغايةُ النبيلةُ لا تبرّرُ الوسيلة الفاسدة.

(.. فقهٍ حركيٍّ)

- الفِقه لغة بالكسر العلم بالشيء والفهم له والفطنة كما في القاموس المحيط.
والحركي: نسبة إلى الحركة وهي في اللغة ضد السكون. ويقال غلام حرِك أي خفيف ذكي، كما في مختار الصحاح.
- والفقه الحركي بمعناه اللغوي هو الفهم للأمر مع الفطنة لما قد يطرأ عليه حالَ حركته من أحوالٍ وتغيراتٍ وما ينبني على ذلك من آثارٍ حالاً ومستقبلاً.
- والفقه الحركي اصطلاحاً هو: فهمُ الأحداث الجارية وإدراك المتغيرات والمستجداتِ المصاحبةِ لها زماناً ومكاناً وأشخاصاً، والقدرةُ على إعطاء الحكم الشرعي لتلك الأحداث وربطها بالأصول الشرعية الثابتةِ واتخاذ الموقف المناسب منها، فهو اجتهادٌ صعبٌ يربط بين واقعٍ سريعِ الحركةِ ونصوصٍ ثابتة.

حركي: هو فقه حركي وليس فقهاً ساكناً ينقل الأمة من السكون إلى الحركة ومن العشوائية إلى التنظيم ويستحيي ما غُيب ودُفن من فرائضَ، وشعائرُه تدخل في الفروض التي تخاطبُ الأمةَ بمجموعها كالجهاد وإقامة سلطانِ الله والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوةِ إلى دين الله، كل هذه الفروض تتناول الأمة وليس الفردَ من خلال سياسةٍ شرعية رشيدةٍ توصل إلى الدّولة الراشدة والدعوة الراشدة والجهاد الراشد.

إذاً نحن نتكلم عن طريقٍ ومسارٍ يربط بين واقع مأزوم (العتبة الحزبية) ورؤية منشودة (تجمع الأمة).

(العتبة الحزبية) بين واقع الحزبية والتشرذم والافتراق والغثائية والوهن بكل أشكاله.

الحزب هو اجتماع عدد من الناس على مجموعة من الأفكار ويعملون بشكل فريق لإنجاز هدفٍ حدّدوه لأنفسهم

أما **الحزبية** فنقصد بها التعصب المقيت لمجموعة من الأفكارالظنية أو الأشخاص لا يحكم لهم بالعصمة لا يرى المتحزبُ الحقّ في سواهم.

(يجمع الأمة) على رؤيةٍ تكون فيها الأمة على أمرٍ جامع ونبذٍ للفرقة والعصبية تتمتع بالحضور والشهود وتتجه إلى إنجاز مشروعها الحضاري بتحقيق معنى الاستخلاف في إقامة العبودية لله تعالى وعمارة الأرض بعد أن غابت لأكثر من قرن من الزمن عن ساحةِ القيادة.

(الأمة)

بمفهومنا هي أمة الإجابةِ بكل مكوناتها لا تُختصر بطائفةٍ ولا تُختزلُ بحزب أو جماعة، فهي محلُّ خطابنا وعمقنا الاستراتيجي وهي الدرع الحصين الذي نأوي إليه.

وهذه الأمة لها خصوصياتُها بأنها لا تجتمع على ضلالة، خيرُ أمة أخرجت للناس، أمةُ الرسالة الربانية، أمةٌ محفوظة من الهلاك والاستئصال.
فالكتابُ هو معالمُ طريقٍ ومشخّصاتُ استرشادٍ لم تخرج من طور التأصيل إلى طور التنزيل بعد، وإنماً مقصودنا: أن يتوحد الفكر والتصورُ عند طليعةِ الأمة لننطلق على مسار نتفق على معالمه تحاشياً للفرقة والاحتراب والتساقط بعد الانطلاق بسبب تباين التصور قبل الانطلاق فنتفقَ على المسار وضبطِ إيقاع المسيرِ قبل أن نقرّرَ السيرَ، فالمنحى الذي ننحوه هو منحى باتجاه فقهٍ حركيّ يؤصّل للخروج من حالة الأزمة إلى حالة السيادة والأُستاذية.
وبذلك يكون العنوان مستوفياً لكل عناصر التخطيطِ الاستراتيجي من دراسةٍ لحالةِ الحزبية في واقع الأمة ثم الانطلاقِ إلى الرؤية، وكيفيةِ الوصول بالفقه الحركي الضابطِ للمسار، والمسيرِ إلى مشروع حضاري جامعٍ للأمةِ تتوازع فيه الحركات الإسلامية الأدوارَ على الثغور الشاغرة.

عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَرْثَدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كُلُّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ثَغْرَةٍ مِنْ ثُغَرِ الإِسْلامِ ، اللَّهَ لا يُؤْتَى الإِسْلامُ مِنْ قِبَلِكَ " (أخرجه المروزي)

ثغراتٌ في الفكر والتنظيم والممارسة والاستراتيجية يجب أن تتداركها الجماعات الإسلاميّة:

- قيامُ الجماعاتِ الإسلاميّة منفصلةً عن الأمّة بحملِ مشاريعِ الأمّةِ والذَّودِ عن حقوقها والتَّفرُّدِ بالمواجهة مع العالمِ المتغطرسِ يُسَهِّلُ على الغرب المواجهةَ معها والالتفافَ عليها وإجهاضَ أيّ محاولة للأمّة للانعتاقِ من براثنِ العبودية ونَيْرِ الاستعبادِ بعد أن يُحَيِّدَ الغربُ قُطَّاعاً واسعاً من الأمّة عن هذه الأحزاب فتفقد بذلك عمقها الاستراتيجيّ الرّافدِ لها بكلّ عواملِ القوّة والثبات، لذلك كان على هذه الجماعاتِ لزاماً تحميلُ المشروع للأمّة وأن تكتفي بدور الموجِّهِ والمُعِين دون الرّيادة، ولا تكونَ أولَ شعرةٍ في الرأس ولا آخر شعرةٍ في الذّنب، بذلك يَتمّ تشتيت ذِهْنيّةِ العدوّ وتوسيعُ نطاق المواجهة على العدو بدلاً من اختزالها في جماعةٍ أو حزب.
- الجماعاتُ الإسلاميّة بشتى راياتها ومُسمّياتها أضحت مستهدفة دولياً

وإقليمياً، ولو كُنت مكانـها لَـقُمتُ بمراجعةٍ شاملةٍ جسورةٍ لبلورةِ حِسبةٍ استراتيجية جديدة.
- الفصلُ بين عِصْمة النصّ واجتهادات البشر: الإسلام هو دين الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفه، أمـا مناهجُ الجماعات فهي اجتهاداتُ البشر ويعتريها ما يعتري الجُهدَ البشريّ من الخطأ والصّوابِ والانحراف.
- عندما تناقش أصحابَ التجارب الفاشلة كانوا يدافعون عن مَنهجهم بُحُـجَّـة أنّ الفشل في التجربةِ لا يدُلُّ على عدم صوابيَّة المنهج بحُـجَّـة أنّ كثيراً من دعوات الأنبياء لم تنجح !

ولكن نقول لهم: إنّ تكرارَ الفشل يَدلُّ على أنّ الخطأ هو في المنهج وليس في التطبيق، لأنّ خطأ التطبيق كالخطأ في الوزن لا يتكرّر، أمّـا إنْ كان الخللُ في الميزان نفسِه فلن يُصَحِّحَ، إنّ ظاهريَّة الفهم للنصوص تحول بينهم وبين مراجعة الثغرات وتجعل من التجربة شيئا توقيفياً معصوماً.

- أولُ شيءٍ في الحِسبة الجديدة أن تتحاشى الجماعاتُ الإسلاميّـةُ هذه المواجهات غير المتكافئةِ التي أدمنتها مع قوىً ونظمٍ راسخةٍ على الأرض لها شرعيّةٌ دولية، والتحاشي لا يعني الرُّكونَ وعدمَ الإعداد.
المُطّلِـعُ على مكتبة الجماعات الإسلاميّـة يجد لهم مئاتِ الكتبِ في الجهاد والعمل والحركة، ويجد الضَّحالة في الكتب التي تتناول قضية الإعداد.

- من أهمّ مبادئ الحربِ (الاقتصادُ في هدر القوة)، والجماعات تبدّدُ قواها وتترخَّصُ بذلَ دماءِ شبابِها! يجب صيانة الخزّان الاستراتيجيّ للجماعات والحفاظُ عليه.

- الجماعات مخترقة أمنيّـاً في قياداتِها إلا ما ندر، وصار من السهل توظيفها في حروب وكالة (War By Proxy) تخدم في نهاية الأمر أعداء الإسلام عموما وأعداء الجماعة.خصوصا

- يجبُ أنْ تدرك هذه الجماعات أنّـنا نعيش ضمن (نظام) دوليّ يقوم على احتكارِ السلاح والخامـات (كالنفط والقمح) والتحكمِ بالأعلام (الأقمار الصناعية) وقبولٍ دولي. من الخطأ حصرُ المعركة مع الغرب بالقتال فقط لأنّ الصراعَ مع الغرب صراعٌ حضاري بين حضارةٍ بازغةٍ وحضارةٍ غاربةٍ، والهزيمة الحضارية للغرب تحتّمُ علينا أن نتهيأ لوراثتها.

- ولدى هذا النظام الدولي مؤسساتٌ (صلبة): جيوشٌ وسلاحٌ ومال وفير واقتصاديات متطورةٌ ومزدهرةٌ، والمطلوبُ دراسة المشهدِ بأناةٍ قبلَ الانخراط في مواجهةٍ خاسرةٍ. يجب على القاعدة الصلبةِ المؤمنةِ المستضعفةِ ألا ترميَ بكل أوراقها في مواجهةِ الباطل فتكون أمام خيارين لا ثالث لهما:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الكهف (20)

إمّـا هلاكَ النفس أو ضياعَ الدينِ وكلاهما من الضروريات الخمس قد تُهدرُ لضعفِ التدابيرِ الأمنيّةِ في الحركة.

- هل هذه الجماعاتُ في حالة مواجهةٍ مع (النظام الدولي)؟ أم قادرة على التعايش معه؟ المواجهة في ظنّي خاسرة والتعايش لا يتضح من خطاب هذه الجماعات.

- الجماعات الإسلاميّـة تعمل بعفويةٍ مفرطةٍ وليس وفقَ خارطةِ طريقٍ، ولذا صار من السهل استدراجُها واستنزافها في معارك جانبيّـة تستهلك خزانها الاستراتيجيّ.

- تقوم الأحزاب الأوروبية بتعيين (المدقق الداخلي) INTERNAL AUDITOR وتمنحه راتباً دسِماً ومهمته نقد أداء الحزب، فلماذا لا يكون مثل ذلك عندنا؟ وغالبُ أحزابنا ضيق ذرعاً بأصوات الناقدين وتفرح بمديح المتزلفين!

- تعقد الأحزاب الأوروبيةُ ورشَ عمل WORKSHOPS مهمتها النقد الذاتي، وتدعو ضيوفاً ومراقبين من خارج الحزب لممارسة ذلك، فلماذا لا يكون ذلك عندنا؟ بينما يصل الأمر عند بعض الجماعات إلى تكميمِ الأفواهِ وتَـجريم المنتقد وتصوير المنتقد للجماعة منتقداً للإسلام نفسِه ليقطع الطريق على كل رأي مخالف.
أبو بكرٍ رضي الله عنه في أولِ خطابٍ له بعدَ تولّيهِ الخلافة أرسى مبدأ النقدِ الذاتي وجعلَ من انتقاد مسيرةِ الحاكم وتقويمه ومحاسبته حقاً للأمّـة.
أغلب عناصر الأحزاب الإسلاميّـة يتعامل مع الآخر بمسطرةِ المقدَّس والمُدنَّس، من كان من جماعتي فهو مقدّس ومن كان من غيرها فهو مدنّس.

- الفرد في الجماعة مسلوب التفكير لصالحِ قَطعيةِ الإيديولوجية فهو متدربٌ على تلقي الأوامرِ بمطلقيةٍ مفزعةٍ مما يقتل روح المبادرة والإبداع عند الفرد، والتي

تحرص عليه الأحزاب خوفاً من نموّ اللوبيات داخلها مما ينتهي غالباً بحالة من الانشقاق والتصدع.

الفصلُ الأوّلُ

أزماتُ الحركةِ الإسلاميّـةِ

فقهُ الأزمةِ وأزمةُ الفقهِ

وقوع الأزمة يُحتِّمُ على الجماعة أن تتعامل بفقه خاصٍّ غير ما كان عليه الأمر في أحوال الاستقرار، يتناسب مع طبيعة الظرف والقدرةِ وكميّات التحديات، وقد كَتب في ذلك الفقهاءُ فقهاً خاصّاً: مثل نظريّة الظروف الطارئةِ في الفقه الإسلاميّ، وفقه النّوازِلِ التي تقوم على أحكام الضرورة ورَفعِ الحَرَجِ وحِفظِ المقاصِدِ والاقتصاد في العزائم والتوسع بالرُّخَص.
الخلل في عمل بعض الجماعات الإسلاميّة أنهم يتعاملون مع الظرف الطارئ بالفقه المستقر لا بفقه النوازل ومنهم من يُنْزِلُ فقهَ النوازلِ على الحال المستقر.

من أهمّ الجوانب التي يجب مراعاتها في الأزمة:

1-إرجاء مسائل الخلاف وتعطيل الجدل والاشتغال بالعمل.
2-ترتيب الأولويّات في المواجهة، وتقديم الضروريات على الحاجيات، والحاجيات على التحسينات.
3-تكثير جبهة الحلفاء وتحييدُ أكبر قدرٍ من الخصوم (إدارة الصراع) والاستفادة من سُنّة المدافعة.
4-الابتعاد عن مُحاصصة الأحزاب وتقديمُ أهل الاختصاص والكفاءاتِ (إدارة التكنوقراط)، مَنطِق: منّا أمير ومنكم أمير مرفوض شرعاً (مبدأ المُحاصصة)، إنّ خير من استأجرت القوي الأمين (مبدأ اعتبار الكفاءة) واجب شرعاً.
5-توسيع صلاحيات المُتأمرين وتضيق نطاق الشورى لأجل سرعة اتخاذ الإجراءات والحفاظ على السرية.
6-تحديد دائرة المناورة وتحديد الخطوط الحمراء (الثابت والمتغير).
7-ترك وإرجاء المندوبات وحتى السّنن ريثما يتمّ إقامة الفروض الغائبة.
8-التوسّع في الرُّخص والاقتصاد في العزيمة (إنّ الله يُحِبُّ أن تُؤتى رُخَصُهُ كما يُحِبّ أن تُؤتى عَزائِمُهُ).
9-استثمار الطاقات المعطلة، وإيقاف الطاقات النازفة، وتوظيف الطاقات العشوائية.

عندما نتحدث عن أزمة عند الحركةِ الإسلاميّـة فنقصد بذلك الأزماتِ الذاتية ولا نقصدُ التّحدّيات والمؤامرات التي تُنسج لتحيط بها من خارجها.

رصيدُ التّجربةِ للحَركةِ الإسلاميّةِ

التجاربُ الخاصّة للجماعات الإسلاميّـة إنْ كُنّا نختلف على فشلها أو نجاحها هي بالتأكيد ليست مصدراً للتشريع يجبُ الاحتكامُ إليها.
نحن نذكر هذه الأخطاء لتفاديها وإصلاحها، ونذكر الأساليبَ البالية المستهلكة من أجل تبديلها، كما نذكر تلك المفاهيمَ الخاطئةَ كي يتم تصحيحها.
ليس المقصود من البحث في التجارب تبيينُ عورِ الجماعات التي نختلف معها، إنما هو تصحيحُ مفاهيمَ وتصويبُ أخطاء، وتلافي ثغراتٍ وترتيبُ أوراقٍ وتنسيقُ الأولويّات.
لابُدّ من غرس مفهومِ أنّ مَسيْر أيِّ جماعةٍ إسلاميّـةٍ هو مسيرٌ اجتهادي يعتريه الصوابُ والخطأ، وقبل ذلك مسيرٌ بشري قد يعتريه الهوى ونقص العلم، وإلا ستتحول الجماعات لأصنام على المصلحين تحطيمها.
تُحْجِمُ كثير من الجماعات عن الاعتراف بأخطائها وتخشى من استغلال هذا الاعتراف في تفكّك تنظيماتها، لذلك تجدها تدافع بطريقة تبريرية مضحكة لأخطائها، بل وتجعل منها إنجازات تريد أن تُمدح بها وتتغنى بها.

إنّ العلاج من الأمراض يمُرّ بثلاثِ مراحلَ أساسيةٍ، بعد التّوكلِ على الله وطلبِ العافية والشفاءِ منه:
أوّلها: الاعترافُ بحالة المرض ونيةُ العلاج.
وثانيها: مراجعةُ الطبيب الثقة الأمين المؤمن، وكشفُ العيوب والعلل والنقائص عليه، بلا وَجَلٍ ولا استحياء منها، حتى ولو كانت فيما يُسْتحيا منه من العورات.
وثالثها: تناول الدواء ولو كان مراً، بهمّة وصدق وعزيمة على بلوغ العافية.
وقد يكون لفت النظر إلى العيوب والنقائص من خارج الصفّ مزعجاً، فلو تيسّر الإصلاح من داخل هذه الأحزاب لكان أكثر نفعاً، ولكن نحن أمام مشكلةٍ أخرى وهي أن المتحزّب لا يرى الآخر إلا بعيون حزبه.
هناك من الأخطاء ما هو منهجيّ، وهذا يكون من صُلب المنهج يصعب تصحيحه إلا بمراجعة أخطاء المنهج والشبهات التي تسير عليها الجماعة، ويتَّسِم هذا الخطأ بالتكرار والارتكاب له يكون جماعياً.

وهناك من الأخطاءِ ما هو سلوكيّ ينتج عن خطأٍ في الاجتهاد، أو نتيجة شهوة نفسية من فرد من الأفراد، يتصف هذا الخطأ أنَّـه فردي غالباً وغير متكرر ويمكن علاجه بمزيد من التربية السلوكية والتوعية العلمية.

لكن في أجواء العصبية الحزبيّـة كثيرًا ما يتحول الخطأ السلوكي إلى خطأ منهجي، أحياناً تقع الجماعة في خطأ سلوكي فتكون طريقة الحل غير شرعية، تبدأ بالإخفاء له عن عيون الناقدين بحُـجَّـة عدم الكلام بأخطاء المجاهدين، فإذا انـكشف الأمر وكان في طور الشكّ بادرت الجماعة إلى النفي والتكذيب، فإذا وُوجِهوا بالأدلّـة يبدؤون بالتبرير بالأدلّـة الشرعية حتى يُشَرْعَنَ الخطأُ ثم يتحول الخطأ إلى منهج.

أنواع الأخطاءِ والثغراتِ التي طرأت على هذه الجماعات خلال مسرته الحركية :

1- أخطاءٌ في التفكير والتأصيل
2- أخطاءٌ في التنظيم والتكوين
3- أخطاءٌ في الممارسة والتنفيذ

أولاً: خطأ في طريقة التفكير وتصور الجماعة النظري للمنهج(خلل التفكير):

(نمو الفكر الخارجي في الجماعات الجهادية ونمو فكر الإرجاء في الجماعات السياسية).

1-تَشَرُّبُ أفكار التشدد إلى مناهج بعض الجهاديين: الأمر الذي انعكس في الترخص بالدماء والأموال بعد التكفير.

2-غلوُّ بعض الجهاديين المتأخرين في التعصّب المذهبي لمفهومهم عن (السلفية) وإبطال المذاهب الأربعة والتقليد المذهبي، الأمر الذي انعكس على الممارسة بحيث يتجرأ الصغار على الرد والترجيح والإفتاء.

ظهور ما يسمى أخوّة المنهج بدلاً من أخوّة الدين يُدلّـل على تنامي النظرة الحزبيّـة لدى التيار، وأخوّة المنهج نظرية تقوم على أن الجهاد يجب أن يكون سلفيَّ الراية، وأن تكون قيادته سلفية التركيب، وأحكامه سلفية المنهج، وأن يكون كل شيء بالدّليل، ولو قبلنا أن يجاهد معنا من ليس سلفيّاً فمن باب الحاجة، ولكن ليس لهم من القيادة شيء وإنّـما نقودهم لأداء فريضة الجهاد، طبعاً وليس كل السلفيات تصلح لذلك، حتى ليس كل السلفيات الجهادية تصلح، ولا يزالون يُضيّقون حتى يقتصر الأمر على فئةٍ بعينها ومرجعيّـةٍ بعينها وراية بعينها.

ثانياً: أخطاء وخلل في بنية جسمها وقصورها عن الأداء الصحيح (خلل البنية التنظيمية):

1-المشاكل التي تأتّت عن السريّة:
لا يمكن إنكار مبدأ السريّة في العمل الإسلاميّ، وقد مرّ في كثير من التجارب التاريخية والسيرة النبوية خصوصاً الاجتماع في دار الأرقم والأمنيّات المتبعة في الأعمال العسكرية، ولكنها سريّة تُمارَس على العدو المتربّص وتعمية الأخبار عن عيونه، لكننا اليوم نلاحظ أنَّها سرية تمارس على المسلمين بل حتى على أبناء التنظيم نفسه، مما يُضعِف الثقة بين أبنائه
حتى وصل الأمر أن الدروس الشرعية تلقى بشكل سري على أبناء التنظيم.
اليوم نجد أنّ العدو المسلح بوسائل الاتصال التي يستعملها القادة يستطيع اختراق السرية بسهولة وتنفيذ عمليات اغتيالٍ من خلالها.
الإغراق في السريّة في عمل الجماعات يفسح المجالَ أمام نسج الخيالِ وبثّ الشائعات المغرضة عن تلك الجماعات، وهذا الأمر يدفع الجمهورَ لتصديق كلّ الأساطير والشائعات.
يجب ألا تكون المرحلة السريّة في الدعوة ممتدةً إلى ما شاء الله، ولا بأس بسريّة العمل والتنظيم عن عين العدو مع الجهر بالدعوة.
2-المشاكل التي تأتت عن البنية الهرميّة والإشكالية الأمنيّة:
بنِيت جميع التنظيمات الإسلاميّة السياسية والجهادية وما شابهها بأسلوب هرَميّ.
إن هذا الأسلوب في البناء الحركي يتمتع بصفة القوة من حيث الإحكام والسيطرة، لأنّ الأوامرَ تصدرُ والبرامج تقرر، وتنزل من الأعلى للأسفل، ثم تتابع بعض الطريقة، وترجع التقارير أو النصائح والمقترحات وغير ذلك بالعكس بمرونة وسرعة.
ولكن مثل هذا البناء يتميز بالضعف الأمنيّ، وبعدم صموده للمواجهاتِ الأمنيّة الاستخباراتية، خصوصاً بعد ما أثبتت أجهزةُ الأمنِ والحكوماتُ الطاغوتيّة، ثم قوى الكفر المحاربةُ للظاهرةِ الجهاديّة استعدادها لكلّ أشكال البطش والتعذيب الجسدي والنفسي، وحتى استخدام المخدرات والعقاقير لاستخراج المعلومات!
وهكذا لم يصمد معظم المعتقلين عن الاعتراف بأكثر ما لديهم من معلومات أو بكُلها، أو بالإضافة عليها لإرضاء الذئاب الضاريةِ من الجلادين المتحفزين لانتزاع ذرّات المعلومات من قعر ذاكرة المعتقل، بل من تحت أظافره لو احتاج الأمر وبسلخ جلده إن لم يكفِ ذلك.

ثالثاً: أخطاء في أسلوب السيْر ورسم الخطوات غير المتناسب مع الطريق (خلل الأسلوب والعمل والممارسة):

1-العجزُ عن وضع استراتيجيات العملِ نتيجةً لعدمِ توفر المعطيات، لأسباب إمّا خارجية وإمّا داخلية، وتحوّلِ العمل لمجموعةٍ من اليوميات والقرارات العشوائية أحياناً.

2-فتحُ معاركَ جانبيةٍ مع شرائحَ من مدارس الصحوة الإسلاميّة أو مع فئات مختلفة من الشعب ومكوناتها السياسيّة أو الاجتماعيّة دون ضرورة لذلك
المعارك الجانبية من قبيل الإشكالات المذهبية والعَقديّة والسياسية، وعدم التحكم في وحدة اتجاه المعركة تجاه العدو الأساسي المتمثل في الحكومات الطاغوتية والصائل الخارجي المتحالف معها.
3-الفشلُ في صياغة خطابٍ إسلاميّ يحشد التأييد الشعبي للقضايا الإسلاميّة والافتقارُ لفنّ الإقناع والاقتصار في عملية الإقناع على تصنيف الناس على أساس الولاء والبراء بين مُرجئٍ ومنافقٍ ومبتدعٍ وصحواتٍ ومرتدٍ ومشروعِ مرتد.
4-ممارسةُ البراء والولاء في حدود التنظيم الحزبيّ وليس في حدود الانتساب للأمّة مما يتسببّ في حفر الأخاديد الفاصلة بين الجماعات والأمّة والعيش في غربة الانتماء والهوية.
إنّ التجارب الجهادية والسياسية الفاشلة والمتكررة تدعونا إلى أن نُزِيحَ السفهاء عن إدارة دَفّة القافلة الإسلاميّة في مسيرتها نحو التحرر والخلاص، والذي كان للحزبية حصة الأسد من أسباب فشلها.

أهمّ الأزمات التي تعاني منها الجماعات الإسلاميّة عموماً

وهنا نتكلم عن الأزمات الذاتيةِ للجماعات بعيداً عن نظريّة المؤامرة والشعور بالمظلوميّة الذي يَشيعُ في الدعاية الحزبيّة للجماعات:

أولاً: أزمةُ فقدانِ التّوازنِ واتخاذِ الرسالة عِضِين والخطابِ المجتَزأ (أزمة في المنهج):

مشكلة الحركات الإسلاميّة المعاصرة أنَّها تركّز على جانب واحد من جوانب الإسلام فتنحرف، مثل السيارة إنْ جعلت دولاباً يدور أسرع من غيره، ستنحرف عن الطريق.

لذلك نلحظ أن كثيراً من أزمات الجماعات هو ناتج عن تضخم جانب من جوانب الدين في عملها على حساب الجوانب الأخرى ينتهي هذا التضخم إلى التأزم.

فالصوفية أصبحت حاضنة فكرية للقبورية والاتحادية والحلولية

والسلفية العلمية أصبحت حاضنة فكريّة للمُرجئة والجاميّة المشرعِنة للطواغيت،

والسلفية الجهادية أصبحت حاضنة فكرية للخوارج والدواعش.

والمَخرج من هذا كلّه أن تركّز على كل جوانب الإسلام كافة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أدخلوا فِي السِّلْمِ كافة وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة:208

السِلمُ يعني الإسلام، كما فسرها السلف، قال الطبري في تفسيرها: " إن الله جلّ ثناؤه أمر الذين آمنوا بالدخول في العمل بشرائع الإسلام كلها ". وقد بينت الآية أنّ عدم الدخولِ في الإسلام كافة والتعامل الاجتزائي في أخذ الفرائض هو اتّباعٌ لخطوات الشيطان.

يقول الشيخ محمد أبو يزن الشامي: أخْذُ بعضِ شرائعِ الإسلام وترك الباقي أو التقصير فيها، اتّباع لخطوات الشيطان فيما يقابلها.

ألا ترى كيف تضخم مفهوم الذِّكْرِ عند المتصوِّفة على حساب بقيّة الشرائع؟

و تضخّم مفهوم الهدي الظاهر والبدعة عند السلفية؟

و تضخّم مفهوم الجهاد عند التنظيمات الجهادية؟

و تضخم مفهوم المصلحة والسياسة الشرعية عند الإخوان؟

و مفهوم الخلافة عند التحرير؟

وبالمقابل ضمورُ الجوانبِ الأخرى من الإسلام، أدّى إلى اتّباع خطوات الشيطان لدى كل جماعةٍ مما سبق في بقية أمورها، فوقعت في مزالقَ خطيرةٍ لا تُحمد عقباها. كل هذا يتطلب التركيزَ على إعادة مفهومِ البعث الإسلاميّ الشامل في الأمّـة، فالغائب ليس فريضةً بل فرائض، والغُربة ليست وصفاً لبعض الإسلام، بل لـكلّه، والله أعلم.

ثانياً: (السلمية والقتال) أزمة الدعوةِ بلا جهادٍ والجهادِ بلا دعوةٍ (أزمة في الاستراتيجية):

تقف الحركاتُ الإسلاميّـة اليوم على معادلـة صعبة الحلّ ولكنها غير مستحيلة:

1- المسار السلميّ في الدعوة يجعل من هذه الجماعات لقمةً سائغة للقوى الوظيفية والدولة العميقة المؤتمرَة بأوامر الخارج لإجهاض أي صحوةٍ إسلاميّـة تسير نحو التمكين والاستغلاظ، فسرعان ما تجدُ مَن ينقضّ عليها ويرميَ بنخبتها في السجون ويقتل من يواجهُهَا من شبابها، مما يدفع أتباعها إلى الغلوّ أو الانـكفاء على النّفس كردة فعلٍ على اليأس والإحباط، لا سيّما أنّـنا نواجه عدواً متسلحاً بمراكزِ بحثٍ يستشعر من خلالها خطر التنظيمات الإسلاميّـة على نظامه العالمي وهي في طور التشكل، ويبادر إلى ضربها في مهدها استباقيّـاً.

2-المسار الجهاديُّ يضعها في الغالب أمام تحالفاتٍ عالمية مزودةٍ بأعتى أنوع الأسلحة الفتاكة ومواجهاتٍ غير متكافئةٍ تنتهي بهم إلى الكهوف والجبال بعد خسارةِ خزّانَـها الاستراتيجيّ من شبابها المجاهدين.

لو كانت الحركات الإسلاميّـة مُتفاهِمة مع بعضها لتحوّل العمل السياسي إلى جناحٍ مشاغلةٍ للأعداء وفصل الساحات الجهادية إلى ساحات مناطقية بدلاً من ممارسة الجهاد العالمي العابرِ للحدود، الأمرُ الذي يؤدّي إلى إيجاد تحالف عالميّ لمواجهة عدوٍّ مشتركٍ من قبَل الدّول وتخلي الأمّـة عمّن يسلك معها مسلك التوريط بالمواجهة.

الأحزابُ التي تمارس الأسلوبَ الجهاديّ تجد في المشاركاتِ السياسية الفاشلة دليلاً دامغاً على صِحّة مسلكها، كما أنّ الأحزاب التي تمارس أسلوب المشاركة السياسية تجدُ في التجاربِ الجهاديّة الفاشلة دليلاً على صحة مسلكها، وغالباً يقع هذا الحكم بسببِ عدم دراسةِ طبيعةِ الساحة وإدراك خصوصيتها والرّغبة في تعميم التجربة التي نتعصب لها، لا لصحتها ونجاعتها، بل لأنَّـها منسوبةٌ إلينا.

لذلك فليكفّ دعاة السّلميةِ عن توجيه اللوم لمن يحملون السلاح وليكفّ حملة السلاح عن دعاة السلمية وليتجهوا إلى إيجاد المساحة المشتركة في تبادل الأدوار في مواجهة عدوّ لم يعد يميّز بينهم، فالخلاف ليس خلافَ حجّةٍ وبرهان وإنما خلافُ ظرفٍ وزمان.

ثالثاً: أزمة المواجهة مع الدّولة العميقة المتجذِّرة (أزمة في الاستراتيجية):

الدّولة العميقة هي مؤسّساتٌ غير مرئية، تُدير الدّولةَ من أسفلَ، بعيداً عن سلطات الرئيس أو الحكومة أو البرلمان.

استخدمت تركيا تعبير «الدولة العميقة» لوصف الدّولة التي لا يراها الناس ويسمعون عنها، وتَعني الجيشَ والقضاء والإدارة والمخابرات والإعلام والضغط الاقتصاديّ والمؤسسات العلمانية القوية، وهي تدير شؤون البلاد بصرف النظر عن الحزب أو الرئيسِ الذي يحكم، فـ «الدولة العميقة» كفيلة بإجهاضِ أو إضعافِ

تأثيرِ الأحزاب والحكومات لأنَّـها مترسّخة منذ أنْ أسس مصطفى كمال الجمهورية التركية في عام 1924.

والمؤكّد أنّ العلاقة بين «الدولة العميقة» والديمقراطية لم تكن دائماً «يداً واحدة»، فقد أجهضت الدولةُ العميقةُ تجاربَ الأحزابِ التي لم ترضَ عنها مثلما جرى عام 1997 مع حزب الرّفاه التركي بقيادة الرّاحل نجم الدين أربكان ، حين كشّرت «الدولة العميقة» عن أنيابها وأقالت الحكومة فيما عرف بـ «انقلاب الجيش الأبيض» الذي نجح عبر قوته السياسية -وليس بحركة آلياته- أن يُقيل الحكومة. في المقابل نجح حزبُ العدالة والتنمية في تحقيق المعجزةِ التركية المتمثلة ليس فقط في معدّلات التنميةِ الاقتصاديّة المرتفعة ، ولا في حجمِ الإصلاحاتِ السياسية والديمقراطية، إنّما في ترويض جانبٍ من هذه «الدولة العميقة» حين قدم تجربةً مدنيةً وديمقراطية خرجت من رحم المرجعيةِ الحضاريةِ الإسلاميّـة، وتجاوزت الاستقطاب الإسلاميّ العلماني الذي استنفر الدولة التركية العميقة على مدار عقود.

وكان الأمر ملاحظاً بشكل واضح في حالة الثورة المصرية: إسقاط رأس الهرم مع بقاء جذور النظام ضاربة أطنابها في كل المؤسسات المهمّة (إعلام، قضاء، أمن، جيش، شركات) الأمر الذي سهّل على الدولة العميقة الالتفاف على الثورة وإعادة الشعب إلى حظيرة الطّغاة، فلم تكن الدولة العميقة عميقة إلا بمقدار سطحيتنا وسذاجة الشعوب. وقد ساهمت الحالة الحزبيّـة في تسهيل الالتفاف على الثورة فصوروا الأمر أنَّـه تحرّكٌ ضدَّ الإخوانِ وليس ضدّ الثورة، وخُدِعَ الكثير بذلك، وهذا كان من الأخطاء الفادحة للإخوان عندما تفرّدوا بالمواجهة ولم يُحسنوا المجابهة الشعبية التي تخفف حالة الاستقطاب وتشتّت ذهنيّة الذئاب المستشرسة بتفريغ الضغط من رأس الطليعة الثورية وتوزعها على مساحة الحاضنة الشعبية.

لقد خسر الثوار جولتهم الأولى في الرّبيعِ العربيّ مع الأنظمة العربية لأنهم اتجهوا إلى مواجهة النتائج دون اجتثاثٍ للأسباب وإلى تسكينِ العَرض دون علاج المرض، وبقيت كل الأدوات تعمل على إعادةِ إنتاج الطغاة لتدخل على ثورة الشعوب من الثغرات الخلفية.

رابعاً: أزمة هَدْرِ الطّاقات في الصراعات الجانبيّة والتحديات المُعجزة وترك التحديات الممكنة (أزمة في الأولويات):

تُقسم التحديات التي تواجهها الجماعات الإسلاميّـة إلى ثلاث أنواع:

1-تحدٍ تافهٍ يواجههُ أصحاب الهِمم القاصرةِ وعشّاقُ الاستعراضات (قتل رأس المنافقين ابن سلول تحدٍ تافه)، الدخول به ينتج عنه تلقي اللوم واستثارة الحمية له مما يودي إلى تزعزع العقد الاجتماعي في المدينة ونتائج عكسية ومفاسده أكثر

من مصالحه غالباً)
2-التحدي الممكن يواجههُ أصحاب الهمم العالية والنظرة العقلانيّة (قطع الطريق على القافلة في بدر تحدٍّ ممكن) ينتهي بالنصر غالباً.
3-التحدي المعجز يواجهه المُنْبَتّون والمُتَنَطِّعون (إعلان الحرب على المشركين في مكة تحدٍّ معجز) ينتهي غالباً إلى اليأس والتنازل والقنوط.
هناك بعض الجماعات لم تبلغ من التنظيم عدد الكف الواحدة ويرفع شعار فتح أمريكا وإسقاط البيت الأبيض!
نهض رسول الله ﷺ لملاقاة عير لقريش ولم يجبر أحداً من أصحابه للنهوض معه ولمّا تغيرت استراتيجية المواجهةِ من ملاقاةِ العيرِ إلى حربٍ مع النفير لم يزجّ بهم في المواجهة مكرَهين ولم يتّخذ القرارَ على مبدأ التوريط كما تفعل بعض الجماعات، وإنّما أعاد الأمر إلى خيار المهاجرين والأنصارِ خصوصاً
يجب أن تتضافر جهود الأمّـة لرسم خارطة استراتيجية تحدّد الرؤية وتدرس الإمكانات والمراحل التي سيمرّ بها العمل، والتحديات التي تحول دون تحقيق الأهداف وكيفيّـة تجاوز المعوّقات وتجهيز الخطط البديلة عند اللزوم، وتحديد الأهداف المرحليّة والأهداف الاستراتيجية ضمن فقهٍ للسُّننِ دون مغالبةٍ أو قفزٍ أو حرقٍ للمراحل وتحديد دائرةِ الثوابت والمتغيرات وأنْ تتحوّل هذه الدّراسة إلى مشروعٍ أمّـة وليس فصيلاً أو تيّـارٍ بتبسيطها وتقريبها للأذهان وللعوام من أجل أن يكون تبنّـيها من الأمّـة واستثمار كلّ الطاقات السّاكنة والمعطّـلة والمهدورة في مواجهاتٍ بينيّـة، وتوجيهها إلى معركةِ نهوضٍ حضاريٍّ لا تستثني أي جانبٍ من جوانب الصّراع، ولا تستثني أي طاقةٍ من طاقات الأمّـة، ويتم ذلك من خلال توظيف كلّ جماعةٍ في الثَّغرِ الذي تتميّـزُ به، واعتبار ما غالت به هو تميّز بحيث يتم ذلك بتحرّكٍ منسجم ومتناغم ويترك للتفاعل الحركي موازنةَ هذه الجوانب التي تطرفت بها كلّ جماعة حتى تعيدها إلى نصابِ الاعتدال والوسطية، فقد ثبت بالتجربة والبرهان أنّ الخطاب البسيط والواضح هو الأكثر تأثيرا في الرأي العام وحشداً للتـأييد الشعبي.

خامساً: أزمةُ الحلولِ الإلهاميّة والافتقارِ إلى مراكز الأبحاث (أزمة إدراك المناط)

العقليّة القياسيّةُ في مثل هذه الأحوال لا تُجدي نفعاً، لأنَّـها تعطي حلاً واحداً لمشاكلَ مُتعدّدةٍ نخالها متشابهةً دون أن نلحظَ الفروق الدّقيقة، فيكون كالعطّار الذي يصف دواءً واحداً لمئات العِلل لأنّ الحرارة مرتفعة وهو يجهل منشأها فيتجه لعلاج العَرَض دون المرض، ويجعل من الجسد حقلاً للتجريب، لذلك لا يمكن طرح أي حلٍّ قبل تشخيص المشكلة بشكل علميّ معتمدٍ على الدراسات والأرقام والمعطيات وبنظرةٍ شموليةٍ ، أمّـا الانطباعاتُ والرّجم بالغيب والافتئات على الأمّـة فلا ينفع في المسائل العظام، بل قد يُضاعف المشكلة.

- بعض الجماعات ممن ليس لديها مَرجعيّةٌ علميّةٌ راسخةٌ تتعاملُ في علاج النوازل بالهواجس والقياسِ على تجاربها الفاشلة الخاصة بها.
- هناك نقصٌ حادٌّ في مراكز الأبحاث والدراسات التي تزودُ الحركة الإسلاميّة بتصويرٍ دقيقٍ للواقع المفعم بالنوازل حيث القضايا المستجدةُ، ناهيك أنّنا لا نتعامل مع لغة الأرقام، ونكتفي بالانطباع الشخصيّ في التقدير بعيداً عن الإحصاء واستطلاعات الرأي، وبإلهامات الفقيه والسياسي المغامر!
- يجب أن يُنزَع قرارُ الإفتاء في مسائلَ عظيمةٍ وخطيرةٍ مثل قضيّة التمكين والاستضعاف من دائرة الإفتاء المشيخي إلى مراكز أبحاث مختصّة في هذا العصر الذي لم تعد فيه معادلة القوةِ تُحسب بالمعادلةِ البسيطة وفق حجم الأعداد وإنّما صارت معادلةً معقدةً لدخول التكنولوجيا كمرجّحٍ كبيرٍ في ميزانِ القوة
- البرلمانات الغربية ومجالس الشيوخ لم تعد هي صانعة القرار السياسي في الغرب وانتقل الأمر إلى مراكز الدراسات التي يعمل بها آلاف المختصّين وأهل الكفاءات

وبقي لهذه المجالس دور الصياغة والإخراج.

سادساً: أزمةُ انحرافِ البوصلةِ عن المسارِ وتضييعِ الهدفِ المقدورِ إلى الهدفِ المُعجِز (أزمة الهدف):

- بدأت الثورة السورية بشعار بسيطٍ ومُجمع عليه من السوريين: "إسقاط النظام". حتى جاء المزايدون والمنبتّون ليحرّفوا المسار عن الهدف المتّفق عليه إلى أهدافٍ تتناسب مع مشاريعهم السياسية والأيديولوجية، وأفهموا البسطاء منّا أنّ هدف إسقاط النظام هدفٌ تافهٌ مخالفٌ لشرع الله، وطرحوا البديل وهو أهداف متعددة تبعاً لتعدّد الأحزاب التي تطرحها، من إقامة الدولة الإسلاميّة وتبنّي الجهاد العالمي، وإسقاط طواغيت العالم وقيام الخلافة الراشدة، وغالباً ما كانت تُطرَحُ هذه الأمور من المخترِقين، وبذلك تمّ القفز على الهدف المرحليّ والممكن، إلى الأهداف الاستراتيجية المعجزة في حدود الإمكانات، الأمر الذي أوجد بذور الصراع بين أبناء الثورة الواحدة، وانتهى بالاقتتال.
- إنّ انعدام الرؤية لدى هذه الأحزاب جعلتها تنظر إلى إسقاط النظام على أنّه هدف غير شرعي، وبذلك تقوم هذه الأحزاب بممارسة الابتزاز الدينيّ على شعوبٍ مسلمة تنساق لكلّ ما يثير فيها الحسّ الدينيّ، فأعطوا لوجهة نظرهم بُعداً شرعيّاً، وليت الأمر يتوقف هنا، بل بُعداً عقديّاً بحيث يكون المخالفُ منزلقاً في مزالقِ الكفر والمروق!

ولو تأملوا قليلاً لعلموا أنّ إسقاط النظام ليس إسقاط حاكم ، إنّ إسقاط النظام هو إسقاط منظومته الأمنيّة والإعلامية والمشيخية والاقتصاديّة والفكرية ، وذلك لا

يتم إلا بإرجاع الهويّة المسلوبة للسوريين وعودة الإسلام بدون مزايدات ، وهذا يتوقف على مدى استيعاب هذه الأحزاب لأبعادِ الصّراع
كان من الممكن لهؤلاء الممنهجين أن يُعزّزوا هدف إسقاط النظام بإعطائه بُعداً حضارياً وفكرياً، ولكن شهوة التشبّع بما لم نعطَ تأبى علينا أن نتصور صوابيّة مسار العامّة وخطأ ما عندنا نحن النخبة.

- ضبابية الرؤية لأصول الشريعة ومقاصدها العليا وانعدام الحدّ الفاصل بين الثوابت والمتغيرات تجعل المواقف مضّطربةً وغير منضبطةٍ في تحديد الأهداف، وغيابُ مبدأ الأولويّات في اختيار الهدف القريب المرحلي وتمييزه عن الهدف البعيد والاستراتيجيّ وعدم التمييز بين المُهم والأهمّ والممكن والمعجز، هذه العوامل وغيرها كفيلة بصناعة حالة غثائيّة يتضخّم فيها الكمّ على حساب النوع، ويسري إليها الوهن والفوضى العارمة بحيثُ يصعب على النخب حلحلتُها بدون بناء رأي عام يدعم رؤية هذه النخبة ويوليها ثقته ويقف معها لإزاحة هذه الحالة الغثائية وتحويل الحالة الغثائية إلى مرحلة تدافع سُنَنِيّ يُمهد لمرحلة تمكين سُنَنيّ وِفق ضوابط الشريعة والنواميس الربّانيّة في الوراثة والتمكين والاستخلاف.

سابعاً: أزمة فقد الحاضنة بين الفعل ورد الفعل (أزمة في الإدارة):

1-احتقار الإرادة الشعبية مقدِّمةٌ لاستعدائها

2-تعاملُ أغلب الحركات الإسلاميّة مع الحاضنة هو تعامل الوصيّ على القاصر، أو تتعامل على أنَّها صاحبة حقّ إلهيٍّ في اقتياد الأمّة، مما يكرّس مفهوم الطبقيّة لا بالمفهوم الاقتصاديّ وإنّما بالمفهوم التمايُزِ النُّخبويّ.

3-إذا أرادت الحركاتُ الإسلاميّةُ من الشعوب أن تتبنّى قضيتها يلزم على هذه الحركات أن تتبنى قضايا الشعوب أولاً من غير تمنّنٍ ولا أذى

4- للأسف تعاملَ الجهاديّون مع قضيةِ كسب الحاضنة الشعبيةِ ضمن منطق الفعل ورد الفعل المبالَغِ فيه، ففي حين انبطحت بعض القوى المحسوبة على الإسلام السياسيّ لحملة الديمقراطية واستسلموا بشكل كامل لرياحها الهوجاءِ التي عصفت بالعالمِ منذ قرنٍ وحتى الآن، كان ردّ فعل الجهاديين هو الرّفضُ الكامل للاعتراف بأهمّيةِ البُعد الشعبي وتماسك الصفّ الدّاخليّ في إقامة الدّولة التي ينشدونها ، واعتبروا مجردَ الحديثِ عن الحاضنةِ ضرباً من الانبطاح لفكرة الديمقراطية، وبدأوا يؤسّسون لفكرٍ سياسيّ وفقهٍ غريبٍ يقومُ على "إمارة المُتغلّب" و"إدارة التوحش"، وصارت التنظيماتُ هي إطار عملهم المفضّل الذي حافظوا عليه حتى في زمن الثوراتِ والرّبيع العربي على الرغم من ضرره البالغ وربّما القاتل على الثورات ذات الطابع الشعبي الجماهيري، مع أنّ إمارة المتغلّب تعامل الفقهاءُ الذين أطّروا لها كأمر واقع فُرِضَ على المسلمين، ولم تكن أبداً من صفات الدولة الراشدة على منهاج النبوة التي ينبغي السعي إليها، بل نصّ الفقهاء الذين صححوا

إمارة المتغلب أنَّـه متى تم تيسّر خلع المُتغلب بدون فسادٍ ودماءٍ والإتيانِ بخليفةٍ عن طريق الشورى فإنَّـه يجب نزع المتغلّبِ حينها ، فكيف يكون المتغلب هو ما يصبو إليه الجهاديون ويحلمون به وأما "إدارة التوحش" فهو عبارة عن أدبيات الحرب الشيوعيّة بصبغةٍ إسلاميّـة ولا تحمل فكراً ينير لدولةٍ راشدة.

- الذي أراه أنّ مكان كسب الحاضنة الشعبيّة في العمل الإسلاميّ ليس كونها مصدراً للشرعية كما في الديمقراطية، بل لأنّها سببٌ ماديٌ لا يمكن الاستغناء عنها شأنـها في ذلك شأن السلاح والمال الذي لا تستغني عنه حركةٌ جهاديّة، بل أراها أهمّ من ذلك كله.

الحاضنة الشعبية مثل الجسم البشري، الجماعاتُ هي أعضاء منها، فالمتجانس يذوب في منظومته ويعتبرُ أصليّـاً، والذي يأبى الدخول في منظومة الجسم مع عدم الإصرار على تسييره وِفق قانونه هو فحسب، يُعتبر جسيماً دخيلاً يَلفُظُه بعنف أو يحصل انقلابٌ غير صحي يُفضي إلى خسائرَ كبيرةٍ على الكلّ!

- هذا من تشابُهِ السُّنن الكونيّة في الموادّ والأمم، لا يمكن أن نتوقع من جماعة إسلاميّـة منظومةُ الفقهِ السياسي لديها قائمةٌ على إمارة المتغلب وبيعةِ الإكراه وتهزّل الشورى وتضييقِ نطاقِ أهل الحلّ والعقد وتأبيدِ السلطة ودمجِ السلطات أن تصطلح مع الحاضنة الشعبية وأن لا تكون إقصائية، وأن لا تزرع بذور الاقتتال الداخلي في الصف الإسلاميّ.

- من هنا نعلم أنه ليس كلّ من حمل السّلاح على المجاهدين يحمله على الإسلام، وهذا ما يُحاول البعضُ تصويره، بل تسبّب بذلك أقوامٌ أجرموا بحقّ الناس باسم الجهاد وسكت عنهم الآخرون بحُـجَّـة عدم شقِّ الصّف، فنتج عن هذا السكوت أنْ شرعوا لهم تجاوزاتهم، حتى تحولت التجاوزات إلى مناهج يستدل لها.

ثامناً: أزمة المصطلحات (أزمة في الفكر):

- استعمال المصطلحات الإسلاميّـة الكبرى على معطيات فارغة المضمون هزلٌ مرفوض.

- إنّ الحضارات الغالبة هي من تقوم بإنتاج المصطلحات وتصديرها وفرضها على الأمم المغلوبة دون أن يدرك المهزومون مضامين هذه المصطلحات.

- بدأ سرّ الاستخلاف لآدم عليه السلام بضبط المصطلحات، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة:31

-إنّ ضبطَ الأسماء في دلالتها على المُسمَّيات مفتاحُ ضبطِ العلوم والمعارف، ولا

يُمكن لعلمٍ أن يستقيمَ إلا بضبطِ مصطلحاته، وكثيرٌ من الأحكام الشرعية تندّ عن الصواب بسبب الخلط في هذا الأمر.

- لقد بدأ بنو إسرائيلَ بتزويرِ حقائق الدّين بإنزال أسماءَ جديدةٍ على مسمّياتٍ منضبطة للتذرُّعِ إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال
عن جابر بن عبد اللهِ قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول : " قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا ، جمَلُوه ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَه" البخاري ومسلم
ولو كانت تسمية الأوهام بالحقائق يعطيها الشرعيّةَ لكان عُبّادُ الأصنام محقين في عبادتها بعدما سموها آلهة ، ولكنّ الله تعالى أبطل زيفهم :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخرى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ النجم:19-23

لم يستعمل القرآن الكريم مسمى يَثرِب إلا مرّة واحدةً على لسان المنافقين:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا ﴾ الأحزاب:13

ممّا يدلّلُ أن المنافقين يتحاشون استعمالَ المفاهيم الإسلاميّة والاستعاضة عنها بمفاهيم جاهلية.
- أمرنا تبارك وتعالى بمخالفة أهل الكتاب باستخدام كلمة "انْظُرْنا" بدلاً من كلمتهم "راعِنا"، بالرغم من أنّ المعنى اللغوي المحض مشترك بين الكلمتين، فقد قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة:104
فكيف بالله عليكم، حين يتناقض المدلول كليّاً، بين المصطلح المؤصّل شرعاً ولغة، والمصطلح الوافد من بيئة لا ترجو لله وقاراً، بل من مناخ تخصّص في صكّ مفاهيم ومصطلحات لتزوير الحقائق والعقول؟
- الاعتبار من التجارب السابقة يُرشدنا إلى الحكم في المواقف الحاضرة، ولكننا أمّة مصابة في ذاكرتها.
وهنا يبدو خلطٌ آخر عند الكثير في فهم القاعدة التي تعارف عليها العلماء (لا مُشاحة في الاصطلاح).

فهل نفهم هذه القاعدة على إطلاقها؟! وهل تجوّز لنا أن نستعيض عن المصطلحات الشرعية المنصوص عليها بأسماءَ من عندنا نصطلح عليها ونقول لا مشاحة في الأمر، مع المخالفة للوضع اللغويّ أو العُرف العام والأصول الشرعية؟
فبَيْـعةُ طائفةٍ بِـدْعِيَّـةٍ مارقةٍ سمّت نفسها بدولة الخلافة وإمارة المؤمنين مخالفةٌ شرعيةٌ.
وهنا لابُدّ لنا أنْ نميّز بين الاسم الشرعيّ والوجود الكوني ، الخلافة والدولة الإسلاميّـة اسم شرعي ، ولكن هل وُجِدَ المّسمى الكونيُّ حتى ينزل عليه الحكم بشروطه وخصائصه المادية؟
هل تسمية الشجرة جبلاً يُغيّر من حقيقتها؟ وما يُغْني حزب الشيطان أن ادّعى نفسه حزبَ الله!
إنَّـه لا يعدو تشويهاً للحقيقة وقلباً للمفاهيم فحسب.
لقد جاء في السنة النبوية النّهْي عن التلاعب بالمسمّيات:
عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (لا يقل أحدكم للعنب الكرم، إنّـما الكرم قلب المسلم) رواه البخاري ومسلم واللفظ له

إنّ خلاصةَ خلافنا مع مُدَّعِيْ الخلافة أنهم سمّوا أوهامهم بتسميات شرعيةٍ، وأرادوا أن يُلزمونا بلوازمِ وجودِ الخلافة من الطّاعة والبيعة وإقامة الحدودِ وتنفيذِ أحكام الإمامة على باقي الفصائل.

وأمّـا دعوى التمكين التي يدّعونها فزيفٌ باطلٌ، وقياسُ دولتهم على دولةِ المدينةِ من حيثُ الجغرافيا والعدد والعُدّة التي بحوزتهم فمُغالطةٌ باطلةٌ لا تنطلي إلا على الحمقى، لأنّ الأصل في التمكين أن تُقارن بين ما تمتلكُ من قوةٍ وأسباب وبين المحيط المصارع لك، وهذا هو فحوى التّـمكين، فالتمكين ليس محدداً شرعيّـاً، وإنّـما معطياتٌ واقعيةٌ.
إنّ تلاعبهم بالمصطلحات يُذكِّرُك بذلك الطالب المُحتال الذي أراد أن يتقدّم لامتحان الرسم وهو لا يُحسنه، فَطَلَى الصفحة بالسواد القاتم، فلمّا سألهُ المدرّس عن معنى رسمته قال له أنَّـه غُرابٌ يطير في الليل!
نُـنَوِّهُ أنَّ كثيراً من الأحزاب الإسلاميّـة بات يُعطي للمفاهيم الإسلاميّـة مضامينَ ما يتعارف عليه العوام، مثل توصيف حدّ الفساد في الأرض على ما يطلقه العوام على الفساد، وكما يُفسّرُ بعض الأحزاب الراية العُمِّـيَّةَ بالخِرْقَة القماشية الخاصّة بالفصائل، ولكنها عند العلماء الغاية من القتال، أو كَـتَوْصِيْفِ المداراة والتَّـقيَّةِ السياسية ممن يُخاف منهم ضررٌ على المسلمين ولاءً للكفار ثم يترتّب عليه التكفيرُ.

تاسعاً: عُقدة الحزبيّة وأزمة التحزّب (عُقدَةُ العُقَدِ ومَوْلِدُ الأزمات):

- العُقدة الحزبيّة والحميّة الحزبيّة لا تختلف كثيراً عن الحميّة الجاهليّة والعشائريّة، المتحزّبون قبائلُهُم اليوم هي أحزابهم، لذلك نجدها تنتج كل ما تنتجه العصبيّة الجاهليّة من التناصر على الباطل والندّ عن الإنصاف للمُخالف والشّعور بالاستعلاء على الغير.
- الحزبيّة أم الأمراض ومَولِدُ الأزمات.
- التحزّب على جزء من الدين وهدرِ الأجزاء الأخرى من سُنَنِ الأمم البائدة ومدعاةٌ للاحتراب الداخليّ بين الجماعات المتحزِّبة، قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ المائدة:14

وهذا من معنى حديث رسول الله ﷺ "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ " فَمَنْ؟ " [البخاري ومسلم].

- الحزبيّة من أخطر الأمراض التي سرت إلينا من الأمم السالفة، وبعدها تظهر الآفات الناتجة عن علّة التحزّب من التمنهج والتعصّب والإقصاء وحصر الحق بالحزب وادّعاءِ الحق المطلق وتبرير الأخطاء بالمسحة الكربلائية.
- أولُ حالات الخصومة بين المجتمع المسلم والجماعات الإسلاميّة تبدأ من تسمية الجماعة:

إذا كنت من الإخوان المسلمين لا يعني أن غيرك من إخوان الشياطين!
وإذا كنت من أنصار الشريعة لا يعني أنّ غيرك أعداء للشريعة!
وإذا كنتَ من جماعة التوحيد لا يعني أنّ غيرك من جماعة الشرك!
وإذا كنتَ من جماعة الجهاد فلا يعني أن غيرك من جماعة الخذلان!

- إنّ التربية الحزبيّة تتضخم في بداية إنشاء التنظيم لكسب الولاء وترسيخ القاعدة الصلبة، ولكن عندما تتجذّر تصبح من أكبر العوائقِ في مشروع توحّد الأمّة.
- حالةُ الوعي في الأمّة تبقى حالات فردية، وحالات اللاوعي هي الحالات الجمعية.

لذلك على الأمّة أن تبحث عن عُلمائها قبل أن تبحثَ عن أحزابها.

- سقوفُ الأحزابِ متدنّية لا يمكن أن تستوعب القامـاتِ العاليةَ لذلك لم يتعايش كثيرٌ من العلماء في الأجواء الحزبيّـة وآثروا العمل خارجها، فكان المجال للمنظّرين المتعصّبين الذين يُتقنون فنّ الدعاية السياسيّة والتبشيرَ بمبادئ الحزب. في هذه الأجواء التعصبية يتعملقُ الأقزام وتُقزّمُ العمالقة وتُسقَط الرّموز.

لو كان المنظرون للجماعات الإسلاميّـة يُرتجى منهم حلّ مشاكل الأمّـة لحلّوا مشاكل الأحزاب الإسلاميّـة فيما بينها البين.

منشأ التـحزّب:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ ثم قال ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:52-53]

جيء بفاء التعقيب لإفادة أنّ الأمم لم يَلبَثوا عقب تبليغ الرّسل إيّاهُم أنْ تقطعوا أمرهم بينهم.

المعنى: قطّعوا أمرَهم بينهم قطعاً كثيرة، أي تفرّقوا على نِحَلٍ كثيرة فجعل كلّ فريقٍ منهم لنفسه ديناً مجتزأً من أصل الدّين أو بالتحريف والتبديل.

﴿أمرَهُم﴾: دينَهم الذي أمرهُم الله تعالى به.

﴿زُبُراً﴾: بضم الزاي والباء وهو جمع زُبرة بمعنى قطعة.

جملة ﴿كُلّ حُزب بِمَا لَديهِمْ فَرِحُونَ﴾: تذييلٌ لما قبلها، لأنّ التقطع يقتضي التـحزّب، فَذَيَّلَ بأنَّ كلّ فريقٍ منهم فرحٌ بدينه، ففي الكلام صفة محذوفة لـ {حزب}، أي كل حزب منهم، بدلالةِ المقام.

والفرح: المسرّة، أي راضون جَذِلون بطريقتهم التي اتّخذوها في الدِّين. والمعنى: أنهم فرحون بدينهم عن غير دليلٍ ولا تبصّر بل لمجرد العُكُوفِ على الُمعتادِ.

وذلك يُوْمِئُ إليه ﴿لديهم﴾ المُقتضي أنَّـه متقرّرٌ بينهم من قبل -أي بالدين الذي هو لديهم -فهم لا يرضون على من خالفهم، بل ويُعادونه، وذلك يُفضي إلى التفريق والتخاذل بين الأمّـة الواحدة وهو خلاف مرادِ الله، ولذلك ذَيَّلَ به قوله: ﴿وإنّ هذه أمتكم أمّة واحدة﴾.

الأمّـة في مفهوم المتحزبين قد لا تتجاوز الأعضاءَ المنتسبين لحزبهم، لذلك ترى في أدبياتهم تنزيل الأحاديثِ التي تحضّ على الاعتصامِ بالجماعةِ وفضلها واجتماع الأمّـة والتناصرِ والموالاةِ كلّها على جماعتهم.

عاشراً: أزمة التنظيمِ والاختراق الفكريّ لإيديولوجيا الأحزاب (أزمة في المرجعية):

الاختراق الذي أصاب أمّـتنا لم يتوقف عند صفوف القيادات بل تعدّاه إلى المناهج الفكرية والعقدية، فظهور الفتاوى المخابراتية هي نتيجة طبيعية للاختراق التنظيمي والفكري.

غالباً ما يعتمد المخترِقون في إفسادنا على تأصيلِ الفتاوى الشاذّة واستحياءِ الفقه الميّتِ وجعلِه الأصلَ لتأجيج النّزاعاتِ الخامدة.

كانت ظاهرةُ "عبد الله بن سبأ" أولَ حالةِ اختراقٍ للفكر الإسلاميّ، وقد نَـفَذَ من قضيّةٍ تُثيرُ عاطفة المسلمين، الغلوُّ في محبّة آل البيت، كما يَنفُذ الغلاة من قضية العقيدة الصافية وتصحيح العقيدة الباطلة.

لذلك عند الإصابة بالاختراق الفكريّ لن يجديَ الإصلاحُ التنظيمي نفعاً، لأنّ أدوات إنتاج الخلل موصولة وخفيّة.

مِيْـزةُ الإسلام أنّ الاختراق الفكريّ لا يمتدّ إلى نصوصه ولكنّه يبقى في دائرة الفهم، وغالباً ما تتشكل منه طائفة مبتدعةٌ، لذلك تجد أنّ أصول تشكُّل الفِرَقِ الضّالة هو الاختراق الفكري، رغم كلّ السريّة التي تحيط نفسها بها بعض الجماعات الإسلاميّـة تظل مكشوفةً للغربِ وغامضةً بالنسبة لنا، وهذا يعكس الخلل في طريقة التجنيد والانضمام وتبوُّءِ المراكز القياديّة، ويعكس مدى تغلغل الغرب في هذه التنظيمات.

- الاختراقُ الفكري عندما تتلقى منه الدين والفقه ويتصدر مركز التوجيه والإرشاد يجعلك تُـنَفِّذُ العمالة للخصوم دون أن تعرف أنّـك عميل، بل تعتقد أنّـك تَدِيْنُ اللهَ تعالى بذلك، ولَرُبَّ فِكرٍ فاق فتْكُهُ أسلحة الدمار الشامل.

وغالباً ما تجد أنّ العناصِرَ المخترِقة للتنظيمِ تتبنّى خطاباً متشدّداً أو متعصبّاً للأيديولوجية الحزبيّـة ومزايدة بها، مما يُكسبها ثقةَ العاطفيين ويُسهّل مرورها للصفوف الأولى ومركزِ اتخاذِ القرارِ من التنظيم وصولاً إلى اختطاف التنظيم إلى المسارِ المجهولِ.

-عندما يستطيعُ أصحابُ المصالحِ المتعارضة اختراقَ تنظيمٍ ما تبدأ الصّراعاتُ الدّاخليّة في التنظيم تبعاً لتناقض الأجندات المتبوعة إلى أن ينتهي أمرها بالفناء بعد أن يتحوّلَ إلى شركةِ مخابراتٍ متعددةِ الجنسيّات، وينتهي من حرق الطاقات

الفتيّة للشباب المسلم في أتون المشروع الإسلاميّ الموهوم بعد صرفهم عن المشروع الرشيد، ذلك أنّ الأغرار كلما رأوا مجسماً مغلفاً بمشروع إسلاميّ قالوا " هذا ربي هذا أكبر " فإذا أفل قالوا لا نحبُّ الآفلين.

الحادي عشر: اختراقُ القاعدةِ الصّلبة في التنظيماتِ ومِن ثَمَّ خطفها (أزمة في التنظيم):

أيُّ تنظيم حتى يضمن استمراره يجب أنْ يتشكل من القاعدة الصلبة أولاً، والدائرة المرنة، ولبناء القاعدة الصّلبة وسائلٌ لابُدّ منها : كتوحيدِ مصدرِ التلقّي وتكثيف التربيةِ والإعداد الإيماني والعزلةِ عن الآبار التربويّة المسمّمة لأجلِ توحيد مصدر التلقي ، والتوقّي من التهوّك والصبر على الابتلاءات وتحقيق اللُّحمة والأخوّة بين أفرادها، وأيضاً فلابُدّ من التربية، والتربية غالباً ما تكون في أتون المحن في فرن الابتلاء؛ لأنّ الإنسان عندما يدخلُ هذا الدّين أو يبدأ يكوّنُ لَبِنَةً لَيِّنَةً لابُدّ أن توضع هذه اللبنةُ في الفرن حتى تجفّ، وإلا لا يمكن وضعها في بناءٍ كبيرٍ عظيم لأنّ فوقها سيكون ثِقَلٌ كبير، فلا بُدّ أن تكون صلبة، خاصّة أحجارُ الزوايا والأعمدة، والطلائعُ الأولى دائماً هي الأعمدة للدّعواتِ والمجتمعاتِ، ولكن تحت ضغط المنافسة بين الحركات الإسلاميّة في حشد الأتباع وسرعة الانتشار وتكثير الأعداد استعاض كثيرٌ منها عن تربيةِ العلماءِ والتأصيلِ العلميّ بالمشافهة والتلقي وخوض التجارب التي تصقل النفس والقلب، الأمر الذي يأخذ وقتا طويلاً، إلى تربية الإصدارات المرئية والصوتية التي تعتمد على المؤثرات الصوتية والإثارة البصرية وتُهيّجُ العواطفَ لتلبية الوجبات السريعة للمُنبتِّين على حساب التربية والإعداد، هذه النوعيّة من الأتباع لا يمكن أن تشكل القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الأمّة والتي تثبت أمام فتن الشهوات أو الشبهات ، بل ربّما يتحوّل الكثير منها إلى خِنجرٍ في خاصّرة الأمّة، وما حلت مصيبةٌ على كاهلِ الأمّة إلا من هؤلاء.

والمصيبةُ الكبرى عندما يصل أمثال هؤلاء إلى الصّف الأول بعد تنْحية الآباء المؤسّسين وخطفِ التنظيم ، لتتحوّل الجماعة إلى كتلة مرنة قابلة للاختراق حتى من الخصوم بعد أن فقدت جهازها المناعي بالانفصال عن العلماء والعلم.

الثاني عشر: أزمة في التفكير (تعطيل فريضة الاعتبار والاستنباط):

الأحزاب تشكلُ ثلاجاتٍ فكرية لأنَّها تعمل ضمن إطاراتٍ محددةٍ ومناهجَ تصلُ إلى القداسة، فكل محاولة للمناقشة تنظر إليها بعين الرّيْبة والسماح بذلك سيخلق جماعات داخل الجماعة الواحدة لذلك نجد فيها أنواعاً من هذه العقليات:

1-العقلية *القياسيّة*:

عقبةٌ كبيرةٌ أمام الحلول الإبداعيّة لأنَّـها تبحث دائماً عن نقاط التشابه بين التجارب، فحالها يشبه حال العطّار الذي يَصِفُ دواءً واحداً لكل العِلَلِ لمظاهر التشابه بينها من ارتفاع الحرارة وغيرها، لأنّ القياس الأصوليّ مبنيٌّ على: فرعٍ وأصلٍ وعلّةٍ مشتركة وحكمٍ، فيلحق الفرع بالأصل للعلّة المشتركة، هذا النوع من العقلية جيد للتعايش في الأجواء الحزبيّـة التي تسعى إلى تعميم الصبغة واللون بفكر واحد. ولكنها لا تنفع في مواجهةِ التحديات ذات المنشأ المركّب ومعرفة النِسب التي تتشكل منها الأزمة الكلية من أجل تحديدِ نسب العلاج على ضوء معرفة مركب الأزمة فلا نتطرف في مواجهة أزمةٍ وترك أخرى لما نتوهمه أنها أحادية التركيب، العقلية القياسية ليست سوى أحد مقومات النظر ولعلها آخرها ترتيبا ما يعكس فهم السلف لحجمها دون استغراقها نظر الباحث.

ولعلها في النظر للعبرة تصبح متفقة وطبيعةَ التاريخِ الذي تتكرر أحداثُه، وإلا ما كانت دعوة القرآن للسير في الأرض وتأملها حجراً وبشراً للاعتبار والعظة، ما يؤكد التشابه والتكرار في التجارب والطبائع وحقائق السنن في مشهدها العام مع بعض الخصوصيات المستخفية.

2-وهناك العقلية الفُروقية:

التي تغرق في التماس نقاط الاختلاف بين التجارب والحوادث فيتعذر عند ذلك الاستفادة من التجارب السالفة، وهذا خللٌ واضحٌ لأنّ البيان القرآنيَّ يسرد الكثير من القصص التي هي محلّ اعتبار.

وقد أطنب بهذا العلم -علم الفروق- الإمام القرافي المالكي (في كتابه الفروق)، مثل هذه العقلية لا يمكن أن تعيش في الأجواء الحزبيّـة أبداً ولا يمكن الاستفادة منها إلا في لفت الأنظار لأوجه الاختلاف بين مشكلةٍ وأخرى حتى لا نقع في خطأ تعميمِ العلاجِ والحكم.

دائما الجماعة المنتفعة من التجربة تميل إلى القياس عليها والمتضررة منها تميل إلى تبيين الفروق والاختلاف.

في الثوراتِ العربيّةِ كانت عقليّة الشعوب عقليةً قياسيّةً في ثوراتها ومحاكاتها للثورة التونسية وظنوا أنّ الأمر سينتهي في كل الدول كما هو في تونس، وكانت عقلية الأنظمة عقليةً فروقيّة (مصر ليست تونس وليبيا ليست مصر وسوريا ليست ليبيا) هذه الكلمات شاعت في خطابات الأنظمة في مواجهة الثورات ولكن سرعان ما تبين لأصحاب البصائر نقاط تشابهٍ ونقاط اختلافٍ خصوصاً في الأبعاد الجيوسياسية وهذا ما تدركه العقلية الاستحسانية على طريقة الأصوليين.

3-هناك العقلية الاستحسانية:

التي رفضها كثيرٌ من الأصوليين بدعوى أنّ من استحسن فقد شرّعَ كما ينسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله، ولا شكّ أنّ قصدهم الاستحسان الذي لا يشهد له دليل.
العقليةُ الاستحسانية تقوم على حَصْرِ أوجُهِ الشبه مع أوجه الاختلاف في القضية وبناء الحكم بموجب هذه المقارنة.
الأصوليون يعرفون الاستحسان بأنَّـه: "العُدولُ عن مُقتضى قياسٍ جَلِيٍّ إلى مقتضى قياسٍ خفيٍّ لعلةٍ تَصْرِفُ القياس عن ظاهره" فلا هي تبني حكمها على القياس والشبه ولا على الاختلاف والفرق.
لذلك جاءت الشريعة بالعدل، الشريعة لا تجمع بين مختلفين ولا تفرق بين متشابهين.
العقلية الاستحسانية تنظرُ إلى الجزءِ المخفيّ من الحقيقة أكثر من الجزء الظاهر منها، العقلية الاستحسانية تنقب عن العناصر التي تشكل الأزمة وفق تحديدٍ نسبي.
هذه العقلية يمكن أن نستفيد منها في مشروع الاصطفاف السنّيّ الذي لا يعني بالضرورة غمط كل حسنة للأحزاب وتضخيم كل سيئة، ولكن ننظر إليها بنظرة متوازنة تقارب بين الميزات التي يعمل على تعزيزها وبين العلل التي يعمل على تلافيها.
وعندما تكتملُ للمجتهد أو الباحث ميزةُ كل عقلية فقد اكتملت له أدوات النظر والترجيح ومؤهلات ترتيب الأولويات وتقدير الموازنات وبالتالي النظر في المآلات، فإذا توفر للأمة ذلك أفراداً وجماعات فإن منطق تغليب المصلحة المعتبرة يصبح حاكماً دون اصطدام يُخِلّ بغايات الشريعة، ائتلافاً لا اختلافاً، اعتصاماً لا تفرقا.
وهنا تصبح العقليةُ الاستحسانيّة هي ما ينبغي تربية الأمّة عليها حِسّاً وعقلاً، جمعاً بين ميزات وتحصيلاً لامتيازات كل عقلية، تأهيلاً للأمّـة نحو الصعود بما يترتب عليه إن شاء الله شهودٌ حضاريّ.

ضوابطٌ للتفكيرِ تَضبِطُ فَهمَ الواقع:

1- الخطأُ القاتل في تفكيرنا يأتي من:
- نسفِ القاعدةِ بالمثالِ الشاذّ (تركُ الجهادِ لوجودِ مجاهدين سيئين).
- تأصيلِ القاعدة بمثالٍ شاذّ (الخوارج على حق لخشوعهم في الصلاة أو لشجاعتهم في القتال).

2- الالتزامُ بقواعد التفكير الشرعية.
3- إذا كنت مدّعياً فالدّليل، أو كنت ناقلاً فالصّحة.
4- لا يستلزمُ من عدمِ الوجدان عدم الوجود.

5- ما ثبت بِعِلّةٍ يزول بزوالها، فالحكم يدور مع عِلّتهِ (الجهاد عبادة مُعَلّلة، وليست تعبديّة لا حكمة ولا علة فيها) لذلك تجد أنّ الظاهرية المحضة سِمة للتفكير الخارجي فهم أبعد الناس عن التعليل والقياس وفهم مراد النّص.

أخطر ما تمارسه الأحزاب هو التصلبُ الفكريُّ وإعطاءُ المنهج المستخلص من اجتهاداتِ المنظرينَ درجةَ القطعِ وإدخالُهُ في دائرة العقيدة، والتبرّمُ والتسفيهُ لكل رأيٍ مخالفٍ، لذلك على هذه الأحزاب أن تَحْذر على نفسها من مطبّين خطيرين في تقرير مناهجها:

1-القطعُ: حيث أن الأدلّـة لا تسعف إلا للشك أو للظن على أقصى تقدير (لذلك يجعلون من اجتهاداتهم ثوابت يقينية)

2-الشك والظن: حيث يجب القطع وإعطاء المتيقن حكم المظنون.

هنا يلزمنا تشكيل العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية.

عدم الاكتراث ببناء العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية المغرقة بالفروع، تسبب في تفتيت الوحدة الثقافية للعاملين في الحركة الإسلاميّـة فهم عرضة للاختصام أمام أتفه اختلافٍ فرعي، الأمر الذي أدخلنا في فوضى التنظير والإسقاط.

الثالث عشر: أزمةٌ في غيابِ الرؤيةِ (أزمة في التخطيط):

حتى تعودَ الأمّـةُ الإسلاميّـةُ إلى مقام الأستاذية يجب أن تمتلك الرؤية

فقد ابتليت هذه الأمّـة في الرؤيةِ بـ:

- الرؤيةِ الحولاءِ: كالذين تركوا أعداء الأمّـة ودخلوا في صراعات داخلية مع الجماعات الإسلامية التي يرونها عائقاً أمام مشروعهم الحزبي.
- الرؤيةِ القاصرةِ التي ترى المكاسب الآنية وتغفلُ عن الخسارة الاستراتيجية
- الرؤيةِ العمياءِ التي تعتمدُ على حواسّ غيرها في رؤية طريقها كمن يرى قضايا الأمّـة بعيون الغربيين.

هذا الحَولُ والقُصورُ والعمى الفكريّ لا بدّ من علاجه بالرؤية الواضحة التي تتشكل من ثلاث قراءات:

1-قراءةِ السّنن الثابتة في النهوض والانحطاط الحضاري، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ فاطر: 43

والسننُ قوانينٌ صارمةٌ لا تجاملُ ولا تتبدّل، تعطيك تصوراً حتميّـاً وواضحاً عن نهوضِ الحضاراتِ والدولِ وأفولِها بسببيةٍ متلازمةٍ لا تنفكّ أبداً بين

مقدماتها ونتائجها، فالدولُ والحضاراتُ لا تبنى بالسنن الخارقة وإنما بالسنن الجارية.

2-قراءةِ التجاربِ السابقةِ والاعتبارِ منها، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . [يوسف:111]

الغالبُ من الأمّـة لا يعتبرُ من التجربة، لذلك تلحظُ أن الاعتبار من التجربة السابقة هو من صفات أولي الألباب: ﴿لقد كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أمّـا عوام الأمّـة فلا يعتبرون إلا من التجربة الذاتية ولا يتعلّمون إلا من رصيدهم الخاصّ، هنا مهمة أولي الألباب: إرشادهم إلى هذه الفريضةِ المُغيَّبة، فريضةِ الاعتبارِ التي عُطلت أمام اهتمامِ بعض المفسّرين بالسّرد القصصيّ لقصصِ القرآن ونقل ترقيعات إسرائيلية ليكملوا بناء القصة ويتغيّبُ الاعتبارُ والعبورُ من تجارب التاريخ إلى فهم الواقع.

3-قراءةِ النصوصِ التي تتكلمُ عن عودة الإسلام وظهورهِ ونصره بعدَ الغربةِ والانزواء واستنباطِ المواقف منها، لكنّ الأمّـة اليوم تهدر السنن بالمغالبة تارةً وبالقفزِ عليها تارةً أخرى لتحرق المراحل، وتقرأُ القصصَ القرآني للتسلية والوقوف على الغرائب، وتسأل: ما اسم النملة التي كلمت سيدنا سليمان مثلاً، دون اعتبارٍ من التجارب، وهناك من يهدر الفائدة بقوله: شَرْعُ مَن قَبْـلَنا ليس شَرْعاً لنا.
أمّـا أحاديث الفتن فقِراءتُـنا لها أشبه بالشعوذة الفكرية ومحاولة التكهُّـن بالغيب.
عندما نعجز عن فهم واقعنا دون وضعها في مسارها الصحيح وتميز الثابت منها مما لم يثبت أو صريح المعنى من غيره، فصارت كثيرٌ من الجماعات تستدل على صحة مسلكها بإنزال أحاديثِ الغيبِ والفتنِ على جماعتها.

الفصل الثاني

تياراتٌ إسلاميّـةٌ بينَ الشُّـبُهاتِ والشَّهَواتِ

كل من ينحرفُ عن جادة الصراط المستقيم ينحرف إمّا بشهوةٍ أو بشبهةٍ.

انحرافات الجماعات الإسلاميّة على ثلاث ضروب:

1-انحرافٌ نحو الأعلى (كتحريف الغالين).

2-انحرافٌ نحو الأسفل (كتأويل الجاهلين).

3-وانحرافُ تجانبٍ (كانتحال المبطلين).

ومَرَدُّ ذلك إلى غيابِ التقوى عن القلوب التي تلجمُ جموحَ الشّهوة، ونقصٍ في الإدراك والعلمِ الذي يعصم من مزالق الشبهات.

- مشكلتنا أنّنا عندما أتينا لنحارب الإرْجاء أصّلنا لفكرِ الخوارجِ ونسبناه لمعتقد أهل السُّنة ظنّاً منّا أنّنا بذلك نكون قد قضينا على الإرجاء، ولم نُدرك أن الإرْجاءَ هو أحَدُ منعكساتِ الفكر الخارجي ومتولّد عنها بردة فعل عكسية إذ لكل فعلٍ ردُّ فعل مساوٍ له بالقوة ومعاكس له في الاتجاه، ولو أبْطلنا شُبَهَ الخوارج لهدأت ثورة التكفير تلقائيّاً، ولتجففت مستنقعاتُ الإرجاء التي تتغذى من مفرزات الغلو. ومن الملاحظ أنّ أغلبَ الجماعات الإسلاميّة التي اتجهت في مسار الجهاد كانت حاضنةً لشُبهِ الغُلاة، وأغلبَ الجماعاتِ الإسلاميّة التي اتجهت في مسار السياسة كانت حاضنةً للإرجاء.

ما يجب أن نجزم به بدايةً: ليس كلُّ المجاهدين غلاة، ولا كلُّ المرجئة عبيداً للطواغيت.

أولاً: الشبهات

منشأ الشبهات هو عدمُ الرسوخِ في العلمِ، وشيوعُ الشبهةِ بين العامّة عندما يتصدر من لم يترسّخ في العلم للتعليم والإرشاد، واتخاذُ الرؤوسِ الجُهّال.

لا يمكن للأمّة أن تنْعَتِقَ من التبعية والخضوع إلا بكسر شوكةِ اليهود الضاربين بأطنابهم في مفاصل القوة العالمية، ولن يكون ذلك إلا برفع راية الجهاد الربّانيّ (غير المتحزِّب) والدّعوة الربّانيّة (التي لا تدعو إلى حزبية)، لذلك كان بقاء إسرائيلَ مرتبطاً بكسر راية الجهاد، المرجئةُ نكّسوا الراية والغلاةُ شوّهوا صفاءها.

في التاريخ اقتران مطّردٌ بين افتراق المسلمين وخروج المارقة، وبين اجتماع المسلمين وانجحارها.

الجامع المشترك لشُبَه الخوارج: الخللُ في التأصيل والخطأ في التنزيل.

1-شُبهةٌ يعتمد عليها الخوارج:

يذكرون في قواعد التكفير (من لم يكفّر الكافر أو شكّ في كفره فقد كفر) [1] هو مثال للتخبط والجهل في هذا الباب، فظاهر القاعدة تكفير من لم يُكفّر الكافر مطلقاً، مع أنّ بعض المُكَفِّرات تنازعَ العلماء في كونها مكفّرة -كَتَرْكِ الصلاة مثلاً-، فهل يلزم تكفير من لم يُكفر تارك الصلاة وهم جمهور العلماء؟!
جاء المرقِّعون أصحاب التّأصيل ليَحُلّوا المشكلة، فوضعوا قيد الكفر المجمع عليه أو الكفر القطعي! وهذا الكلام يجعل من القاعدة بأقل تقدير لغواً لأنّ إنكار أيّ شيء من قطعيّات الدين كُفرٌ مهما كان هذا القطعي، سواءً كان حرفاً من حروف القرآن، أو تكفيراً لكافر، مما يجعل عدم تكفير الكافر وصفاً غير مؤثر في المسألة، ووضع الوصف غير المؤثر في الضابط لغوٌ عند أهل الأصول، وأيضاً يُغْني عنه قاعدة "من أنكر قطعيّاً من الدين فقد كفر"، فبينها وبين تلك القاعدة بالضابط الذي ذكروا عموم وخصوص وجهيّ، فصارَ أصلُ القاعدة لغواً، والقيد هو الأصل، ويُغني عنه قاعدة أخرى!

كتبه (أبو أيمن الحموي)

2-شبهة خارجية:

يأتي البعض إلى أحاديثِ الطّائفةِ المنصورةِ والفرقةِ النّاجيةِ فيعتبرونها منهجاً ونبراساً لهم، وصاروا يستدلون بها على واقعهم، ويجدر هنا التنبيه إلى أنّ من العلماء كالشاطبي رحمه الله ذكر أنّ الخوارج هم أكثر الناس استدلالاً بأحاديث الطائفةِ المنصورة!!
الغريبُ في الأمرِ أنهم أساؤوا فَهْمَ سياقها واعتبروا العلامات التي فيها شروطاً وموجبات وخلطوا بين الأمر الشرعيّ والأمر الكونيّ، وبيان الأمر أنّ ما يَرِد في كلام الشارع أحياناً يكون من باب العلامات وأحياناً يكون من باب الموجبات، فوضع هذه مكان تلك يَجُرُّ للخطأ، فإخبار الشارع للنبي ﷺ أنّ قومه سيُخرجونه مثلاً، هذا أمر قدريّ لكنه شرعاً غير مطلوب، بل إنّ عليه أن يعمل على عكسه وهو البقاءُ في مكة ودعوةُ أهلِها فلا ينبغي أن يخرج منها تحقيقاً للخبر! والمتأمل في نصوص الطّائفة المنصورة يجد مفارقة بين النصّ وما يُنزلونه عليه من واقع.
(لا تزال) تفيد الاستمراريّة، أيْ أنَّها كانت ولا زالت، والتاريخ يشهد أنّ الذين حملوا راية الجهاد في كثيرٍ من حقب التاريخ من الصوفيّة والأشعرية وليسوا من السلفيّة الجهادية. فلن تستطيع جماعة ما أن تدّعي لنفسها أنها حاملةُ لواءِ الجهاد على مرّ التاريخ الإسلاميّ.
(طائفةٌ من أمتي) ولم يقل لا تزال أمتي طائفة، فالطائفة المنصورة من الأمّة وليست كل الأمّة. فهل يعقل أن تختزل الأمّة بجماعة ثم تدعي هذه الجماعة لنفسها أنها هي من تمثل جماعة المسلمين؟!

(ظاهرين على الحق) فحكموا لتنظيماتهم بالعصمةِ بناءً على هذه الجملة من أنّ الحق ملازمٌ لطائفتهم، الأمر الذي صدّهم عن مراجعة مناهجهم.
فما قولك في قوم يعتبرون التصنيف على لوائح الإرهاب العالمية مَأثرةً يتفاخرون بها ويوزعون الحلوى لأجلها، بدل أن يوزعوا على أفرادهم أذكار الهمّ والكرب ويعلموهم أن يفزعوا للصلاة ويسألوا الله أن يكفيهم شرّ أعدائه!! بل ويعتبرها كثيرٌ منهم دليل صلاحِ منهجهم أنّ الأمم تكالبت عليهم!!
(لا يضرّهم من خالفهم) فجعلوا كل من يخالفهم من الجماعات الإسلاميّة الأخرى هو ممن خذل الحق وحاد عن الجادة والصواب!

3-إسقاط أصلٍ من الأصولِ الكلية:

عندما نُحدّث بعض الجماعات الجهادية أنّكم تُوجِدون الذّرائعَ لأمريكا والغربِ للتّدخّل في بلاد المسلمين، يأتيك الردّ: أمريكا لا تحتاج للذرائع، والذريعة كلّ أمرٍ غير ممنوع في نفسه، ولكن يُخافُ في ارتكابه الوقوعُ في ممنوع.

دلت نصوص الكتاب والسنة على اعتبار أصل منع الذرائع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: 108) فمنع من سبّ آلهتهم مخافةَ مقابلتهم بسبّ الله.
ومن السنة نَـهْـيُهُ ﷺ عن تصوير مَن ماتَ مِن الصّالحين وبناءِ المساجد عليهم خشية أن يُعبدوا.
وقد جعل الأئمّـة هذا المبدأ من الأدلة الإجمالية التي يُرجع إليها لاستنباط الأحكام الشرعية، وتوسع المالكية فيه فصار ينسب إليهم والصواب أن كل الأئمة يقولون به إلا أن المالكية ومن بعدهم الحنابلة توسعوا في الأخذ به.

4-شبهة خارجية:

تروُج بين الخوارج مقولة "لا يفتي في الجهاد إلا من جاهد" أو "لا يفتي قاعد لمجاهد"
الأثر الذي يعتمد عليه سفهاء الأحلام في تسوّر الإفتاء مقولة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور، أو فاسألوا أهل الثغور، فإن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ (العنكبوت:69) اختُلِفَ في القائل ولكن كلّ أسانيدها لا تَصِحُّ أبداً.

وهذه الشبهة تفضي إلى إسقاط المذاهب الأربعة كونَ الأئمّـةِ الأربعةِ لم يكونوا على الثغور! ومن الأمثلة على شبهةِ حصرِ الفتوى بالمجاهدينَ ونسف علماء الأمّـة أنهم - أي الخوارج- يفتون بِردّة الجاسوسِ المسلم، وهذه الفتوى مخالِفةٌ لما عليه المذاهبُ الأربعة، لذلك تجد للخوارج تعاملاً مزدوجاً مع النصوص الشرعية:

- فالنصوص التي يفيد ظاهرها التكفير تبقى على ظاهرها ولا يقبلون بفهم السلف إذا كان هذا الفهم يصرفها عن ظاهرها، ويُعْمِلون مِعْوَل الطعن في صحّة الرواية كما ضعّفوا أثر ابن عباس في تفسير ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة -44

- والنصوصُ التي تُعذِر من وقع في الكفر أو الكبيرة يعملون معها مسلك التأويل لصرفها عن ظاهرها وإن لم يكن لهم بذلك سلف، كصرفهم لحديث حاطِبَ عن ظاهره وإبطال الاستدلال به بحُـجَّـة أنَّـها خصوصية لحاطبَ، وكحديث الرجل الذي أوصى أبناءه أن يحرقوه بعد موته شكّاً بقدرة الله مع خشية لقائه.

هناك مقولات تعتاش عليها الأقزام وإنْ قالها أئمة أعلام:

مثل (نحن رجالٌ وهم رجالٌ) (لا يُعرَف الحقّ بالرجال) (كلٌّ يؤخذ منه ويردّ) (إذا صحّ الحديثُ فهو مذهبي) (أنت الأمّـة ولو كنت وحدك)

هذه الكلمات صرنا نسمعها حتى ممن لا يحفظ متناً واحداً في العلم.

5-شبهةٌ خارجيةٌ:

عمد البعض إلى تسفيه آراء الأغلبية المسلمة وحصر الشورى في أهل الحلّ والعقد، وهو يقصد بأهلِ الحَل والعقْدِ في جماعته طالما أنَّـها هي بعينها تمثل جماعة المسلمين، وقد حشد لذلك أدلّـةً يظن أنَّـها تُسعفه بما يبغي ظنّـاً منه أنَّـه قد ألقم مخالفيه الحجرَ، وبالنظر إلى ما استدل به تجد أنَّـه عمد لآيات نزلت في الكفار فجعلها على المسلمين، مثل قوله تعالى:

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:116].

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

المتتبّعُ لهذه الآيات يجدها تتناول الكفار وليس المسلمين فضلاً أنْ تتناول الطليعة المؤمنة.

صدق ابن عمر إذ قال: (إنّهم انطلقوا إلى آيات نزلت في المشركين فجعلوها على المؤمنين) رواه البخاري.

6-الاحتجاج بالحكم الكونيّ على تجويز الحكم الشرعيّ:

شبهة خارجية في الخلط بين الحكم الكوني والحكم الشرعي.

دأبَ كثيرٌ من أبناء الجماعات الإسلاميّة على تبريرِ تصرفات جماعته بالحكم الكوني لكسب الشرعية.

إنّ الخلط بين الحكم الشرعي والحكم الكوني مطبٌّ خطير يقع فيه كلّ من لم يرسخ بالعلم

في أحد كتب فقه الجهاد أتى المؤلف واسمه (أبو عبد الله المهاجر) بدليل من السنة على جواز القيام بأعمال تفجيرية ولو اختلط الكفار بالمسلمين وقُتِلَ من الطرفين ثم يحشرون على نِـيّـاتهم، ولم نرَ له سلفاً في استدلاله:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : "يغزو جيشٌ الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم" قالت: قلت يا رسول الله: كيف يُخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: "يُخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نِـيّاتهم" صحيح البخاري.

فإن الحكم الكوني هو ما قدّر الله تعالى أنَّـه سيحصل وقوعه فعلاً، فإذا حكم كوناً بوقوع شيء فلابد أن يقع ولا يستلزم ذلك محبته، فقد يحكم الله كوناً بوقوع ما لا يرضاه لحكمة يعلمها سبحانـه وتعالى.

وأمّـا الحكم الشرعي فهو ما طلب الله من العباد تطبيقه والعمل به من الأحكام الشرعية، وهذا لا يستلزم الوقوع، إذ قد يقع وقد لا يقع، فقد أمر الله أبا جهل بالإيمان ولم يؤمن.

7- التأصيل السني والتنزيل البدعي

هناك إشكال كبير في قضية ضبط مسمى الإيمان عن عبث الخوارج ومرجئة العصر وكيف نوجه البحث للرد على الغلاة والمرجئة بطريقة نحرر فيها محل النزاع والخلاف.

الحقيقة نحن لم نعد أمام مشكلة في التأصيل لمسمى الإيمان فأغلب التيارات اليوم متفقة ولا تكاد تختلف فيه على شيء.

كل الفرق الضالة اليوم تؤصل لمسمى الإيمان وتقسيماته على ما هو عن أهل السنة والجماعة، فخوارج العصر ومرجئة العصر يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ويقسمون الإيمان إلى أصل وواجب ومستحب كما هو عند أهل السنة والجماعة. إشكاليتنا الكبيرة هي عندما يكون التأصيل على الطريقة السنية ويكون التنزيل على الطريقة البدعية.

فالمارقة مثلاً تجعل كثيراً مما هو من قسم الواجب والمستحب من أصول الإيمان فيكون ذلك مدخلاً للتكفير، إن قلت له أنت خوارج قال لك كذبت فأنا أقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والخوارج يجعلون الإيمان شيئاً واحداً لا يزيد ولا ينقص، ويجعلونه كله من أصل الإيمان فإن ذهب بعضه ذهب كله، كما إن كثيراً من مرجئة العصر يدخلون كثيراً مما هو من أصول الإيمان في دائرة المستحب أو الواجب، فيبطل مدخل التكفير تماماً بإدخال الأعمال التي هي من أصل الإيمان في دائرة المستحب والواجب، خصوصاً في قضية الحاكمية والولاء والبراء.

فهاتان القضيتان ليستا على مرتبة واحدة في مسمى الإيمان، فمنها ما يدخل في أصل الإيمان ومنها ما يدخل في واجبه ومنها ما يدخل في مستحبه، فالمارقة تجعل مسألة الحاكمية والولاء والبراء قسماً واحداً كله داخل تحت أصل الإيمان، وتجد المرجئة تخرج كل مسائل الحاكمية والولاء والبراء من أصل الإيمان.

لذلك أي بحث يتناول التأصيل بطريقة سنية ويترك التنزيل للمبتدعة لن يضبط شيئاً من المسألة، ولن يحصر موضع الخلاف وإنما يقوي موقف المبتدعة، فكثير من العاطفيين يغتر بالتأصيل السني ويغفل عن التنزيل البدعي فيحكم على التنزيل بالصحة تبعاً لصحة التأصيل في المسالة.

فتحرير الخلاف الآن في إدخال أعمال في أصل الإيمان وهي ليست منه وإخراج أعمال من أصل الإيمان وهي منه، حتى المسائل التي تدخل في أصول الإيمان، يجب ربطها بشروط وموانع التكفير لكي تنضبط لدينا المسألة ولا تترك على إطلاقاتها ليمتطيها المبتدعة.

ثانياً: الشهوات

1-شهوات نفسية تقع فيها الجماعات الإسلاميّة

هَوَسُ السلطة وإقامة الدولةِ في مرحلة ردّ العدوّ الصائل سيجعل الجماعاتِ الإسلاميّةَ تدخلُ في صراعٍ بينيّ، وتعكف على مشاريعها الخاصّة ويبقى شعار ردّ الصّائل مطيةً.

والنتيجة: لا الصائلَ ردّت، ولا دولةَ الإسلامِ أقامت ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ .

الحكم والسلطة وسيلتان وليستا الغاية أغلب الحركات الإسلاميّة تمارس السياسة الميكافيلية (الغاية تبرر الوسيلة)، وتغليفُ شهوة الحكم بمشروعِ تطبيق الشريعة صارت خدعةً لا تنطلي على أحد، وحُجَّةً يتذرّع بها العلمانيون للطعن في العاملين الصادقين للمشروع الإسلاميّ فهناك علاقة تخادم بين العلمانيين والغلاة في السعي إلى السلطة.

الغلاة يستعملون بعبع العلمانية للاستبداد بالسلطة، والعلمانيون يستعملون بعبع الغلاة للاستبداد بالسلطة.

إخلافُ وعد واحد من تنظيم إسلاميّ كافٍ لإسقاط كل الإنجازات التي غالباً تحمل طابع الدعاية السياسية والبعد الاحتفالي لترويج الفكر الخاطئ من خلال المنجز النبيل، لأنّك تتعامل مع شعبٍ عاطفي سريعِ النسيان للحسناتِ.

وفي سبيل ذلك اسْتعملت كل التجاوزات الشرعية لتثبيت الحكم وبررت أنَّها للمصلحة الشرعية، فوقعوا بطاغوت المصلحة الذي كانوا ينكرونه على غيرهم.

حتى الحسنات التي تنجزها الجماعات الإسلاميّة تَنْحوا منحى الدعاية السياسية، فتجد أنهم يحرصون على حسنةٍ بين كل سيئتين تبرّر ما قبلها وتمهّد لما بعدها.

البعض يمارس سياسةَ حسنةٍ واحدةٍ بين كل سيئتين تمحو ما قبلها وتمهد لسيئة بعدها

شهوة الاستكبار على العامّة بما لديهم من علم واغترارهم بأنهم الطائفة المنصورة المحقة وأنّ اجتهاداتهم صوابٌ دائماً جعلتهم يعيشون في برج عاجي.

الفكرة السلطويّة بذاتها أشغلت العقول، فالكل يبحث عن دولته التي يستطيع أن يقيم فيها أيدولوجيته ويصارع المنافسين له.

الذي يريد أن يقيم الإسلام لا يُفكر بالدولة بل يُفكر بالأمّة لتقيم هي الدولة.

الدولة هي البيت الجامع للأمّة وليست شقة خاصّة للحزب والجماعة.

حتى تخرج الجماعات الاسلامية من حالة الوهن

عليها ان تقوم بالقياس الصحيح مع العلل النفسية والامراض الاجتماعية التي اصابت أهل الكتاب من الاسرائيلين لتشخيص الداء والعلاج بشكل صحيح بناء على قوله صلى الله عليه وسلم

(لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ)

ولا يصح قياسهم على المرحلة المكية مرحلة بلاء الاستضعاف في السيرة النبوية لبعد الشقة وكمية العلل النفسية والامراض الاجتماعية التي تحملها هذه

الفصل الثالث

الفقه الحركي والانتقال من فقه الجماعة إلى فقه الأمّـة

معنى الفقه:

لقد ضُيّقَ معنى الفقه في الدين الذي دلّت الأدلّـة المتضافرة على عظيم فضله لينحصر في زاوية فقه الأحكام العملية، وهذا الاستعمال لم يكن شائعاً عند السلف الصالح، بل كان المراد بالفقه الفهم الدقيق الذي يشمل الدين كله، فقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً (من يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُـفَـقِّهْهُ في الدّين) ليس معنى الفقه في هذا الحديث: العلم بالحلال والحرام فحسب بل المعنى أشمل من ذلك، وهو أنّ من أراد الله به خيراً جعله عالماً في الدين، كل الدين، الذي منه: الفقهُ الحركيّ للجماعة الذي يتناول التكاليفَ الجماعيةَ من الجهادِ والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ وإقامةِ الشرعِ وعقدِ الإمامةِ والقيام بالفروض الكفائية الأخرى كعمارة الدنيا لتصل الجماعة به إلى التمكين وسيادة الشريعة.

وإنما جاء سوء النظر من استخفاف البعض بخيارات الآخر، وتحميله مآلات اختياراته دون استكمال اختبارات الخيار الفقهي على محكات تجارب لمّا تنته بعد.

وفيما بينَ ابنِ المبَاركِ والفُضيل بنِ عياضٍ درسٌ ونموذجٌ للاقتداء دون نكيرٍ أو تبكيت، كلّ في مساره يكمّل الآخر.

آفة الحكم على المواقف والخيارات: الرغبةُ المحمومةُ لدى كل الأطرافِ في التنقيص والتبخيس، وليس الوقوف على قواسمَ مشتركةٍ.

ولعلّ حالةَ التشظي التي تعيشها الأمة مما تنتج تلك الفوضى في الأحكام على مساراتٍ واتجاهاتٍ دون محاولاتٍ لتفهّم الدوافع والأسباب.

ولعل أيضا حالةَ التسَيُّب من تصدّر كل أحد للرأي والنظر هو ما يُشغِب على أكابر العلماء إشاعةَ وإعلانَ ونشرَ آراءٍ واجتهاداتٍ معتبرةٍ، لو تحقق لها ذلك لقطعت الطريق على حالة السيولة في الرأي لدى كل أحد.

- تحقيقُ معنى الاستخلافِ يتشكّل من استيعاب عشرةِ أنواعٍ للفقهِ:

1-فقه المرحلة: وهذا يحتاج للمقارنة بين الإمكانات والتحديات لتحديد المرحلةِ ومتطلباتِها واتخاذِ الموقفِ المناسبِ، والتمييزِ بين مرحلةِ القوّة ومرحلةِ الضعف، وساحةِ الدّعوةِ وساحةِ الجهادِ.

2-فقه المآل: وهذا يحتاج إلى النظر في النتائجِ التي تُفْضي إليها المواقف والأعمال المشروعة في أصلها ولكنها قد تؤدي إلى نتائجَ ومفاسدَ تفوق المصالح المبتغاة منها، فيكون تحريمها ليس لذاتها وإنما لمآلاتها والتي تدرك من خلال الاضطراد والعادة.

3-فقه المصلحة: وهذا يجبُ أن ينضبطَ بضوابطِ المصلحةِ المرسلةِ التي لم يدل الدّليل الصريحُ على اعتبارها ولا على إلغائها، وجعلُ مسلكِ النظر والاستنباط هو المسلك في تحديدها.

4-فقه التأليف: وهو تابع للمصلحة، فاجتماع الأمّـة وتآلفها مصلحة لا تفوقها أي مصلحة، وفي ذلك قد يجوز لنا السكوت عن بعض المنكرات وتأجيل بعض السنن التي ربما تؤثر على التآلفِ بين المسلمين الذي يشكل لنا فريضةً متقدمةً على كثير من السنن فلا يجوز أن نهدر اجتماع الأمّـة من أجل سنة أو مندوب.

5-فقه التغيير: وهذا أيضاً له قواعده، لا يجوزُ تغييرُ مُنكَرٍ يؤدي لمنكرٍ أكبر منه، أو إنكارُ ما اختلف فيه العلماء، أو البحثُ عن منكر مستخفٍ، وعلى العامل به أن يتسلح بالعلمِ قبله والرّفقِ فيه والصبرِ بعده، ويجبُ أن يبدأ من عالم الأفكار والعواطف قبل السلوك.

6-فقه الأولويّـات: من أين نبدأ ومتى نبدأ، كذلك يحدّده سلم الأولويّـات في أصول الفقه.

ولدى النظر في أحوال الجماعات الإسلاميّة نرى أن غالب اختلافهم هو الاختلافُ في تحديد الأولويّات، من الجماعات من تولي الجهادَ الأولويّة المطلقة، ومنها من تجعل التمسك بالهدي الظاهر أولويّة تُقَدّمُ على غيرها، ومنها من ترى الدعوة وتزكية النفس على رأس الأولويّات، ومنها من ترى مشروع الخلافة والنظام السياسي الإسلاميّ تاجَ الفروض.

7-فقه التمكين: وذلك بتحديدِ نقاطِ القوّة عندنا ونقاطِ الضَّعفِ، وقياس ذلك على المحيط المصارع بعد تحييد أكبرِ عددٍ من الخصومِ ثمّ الخروجِ بالنتيجة.

8-فقه الموازنات: الموازنة بين المصالح والمفاسد، والموازنة بين المصالح والمصالح، والموازنة بين المفاسد والمفاسد، ثم الترجيح بينها باختيار أصلح المصلحتين وأخف المفسدتين.

9-فقه المقاصد: وهذا هو الهدف العامّ للاستراتيجية التي يجب أن يتبنّاها هذا التيار، وهو ضابطٌ للتحرك في إنزال أحكام الفروع على الواقع، والإمام الشاطبي

عَلَمٌ في هذا المضمار، وهذه المقاصدُ هي: (حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال).
وحفظ مقاصد الشريعة يكون بأمرين:
أ- من جهة الوجود وذلك بإقامة أركانها وقواعدها.
ب-من جهة العدم وذلك بتشريع ما يدرأ عنها الخلال الواقعَ والمتوقّعَ

فحفظ النفس من الضروريات الخمس، حافظت الشريعة عليه من جهة الوجود عن طريق مراعاة حق الإنسان في الحياة وحفظ حياته من التلف أفراداً وجماعات وتشريع الزواج، ومن جهة العدم حافظت الشريعة عليه عن طريق تحريم القتل وتشريع القصاص وتشريع حد الحرابة...
المسارُ الصّحيح في إقامة الشريعة هو ربطُ الأحكام بالمقاصد، وهذه الثغرة التي أُتِيَت منها الجماعاتُ الإسلاميّة التي تنظر إلى الأحكام الجزئية منفصلةً عن مقاصدها، الأمر الذي يوقعها في هَدْرِ أصل كُلّيّ لتحقيق فَرْعٍ من الفروع والسير في تطبيق الشريعة مَسيرَ الاصطدام والتنطّع.
في فقه المقاصد قد يَرْتئي الفقيه إلغاءَ فرعٍ أو تأخيرَه وتقديمَ آخر أو ارتكابَ محظورٍ بناءً على نظره في المآل، أو المقارنة بين المصالح والمفاسد المترتّبة على هذا الفرع وما قد يضر الإتيانُ بهِ من خللٍ في المقاصد الكلية.
لم يكن قيام الدولة الإسلاميّة والإمامة مقصداً شرعيّاً بحدِّ ذاته إلا لرعاية وحِفظِ مقاصد الشريعة من الدين والأنفُسِ والأعراض والعقول والأموال، فإذا تسبّب إيجادُ هذه الدولة بِهَدْرِ الدين والأنفس والأعراض فيَبْطُلُ المُكَمِّلُ لاختلال الأصل كما ذكر الإمام الشاطبيّ 790هـ في أولِ باب المقاصد (ضمن كتابه البديع: الموافقات في أصول الشريعة).
10-فقه السنن الربّـانيّة في نهوض الأمم وهلاكها التي تتّسم بسِمَتين: الثبات والاضطراد.
11-فقه النفس والتزكية: والاجتهادُ في ذلك ضاعَ بين الإفراط والتفريط، وسنتحدث عن هذا الفقه بإسهاب في الفصول الآتية.

•غياب المرجعية العلمية الربّـانيّة وتصدّر الرؤوس الجُهّال من المنظرين المتحزبين:
تكادُ تكونُ علاقةُ الحركاتِ الإسلاميّـة مع علماءِ الأمّـة علاقة انفصالٍ تامّ، الأمرُ الذي يجعلُهم في عزلةٍ تامّةٍ عن الأمّـة التي ترتبط بعلمائها أكثر من أيّ شيءٍ آخر، ناهيك عن أنّ العلماء لا يمكن أنْ يتعايشوا في الأجواء الحزبيّـة القائمة على تلقي الأوامر وتنفيذ الأعمال.

إنّ السقوف المتدنّية لا يمكن أن تستوعب القامات الطويلة، وحتى يعود الأمر إلى نصابه وجب على الحركات الإسلاميّة أن تتّبع العلماءَ وليس العكس، هذا الأمرُ دفع الكثير من الأحزاب إلى أن يصنعوا مرجعياتٍ علميّة مصطنعة على أذواقهم تُغذي العصبيّة الحزبيّة وتقوم على سِدانتها وحراستها وتأصيلها في نفوس الأتباع، لذلك فقدت هذه الجماعات صمام أمانها فهي عرضة للانفجار في أيّة لحظة في وجه الأمّة.

ولأنّ المنظّر المتحزّب يرى الحقائقَ من خلال عيون من يحب، فيَنِدّ عن الإنصاف ويفقد ثقةَ قطاعٍ كبيرٍ من الأمّة بسبب تحزبه، فصارت تنظيرات المتحزبين سبباً لدخول الجماعة في صراعٍ مع أمّتهم بعد أن صارت عقيدةُ الولاءِ والبراءِ مقتصرةً على أبناء التنظيم لا تتعدّاهم، ويعبرون عن ذلك بإخوّة المنهج.

وما صنميّةُ المنهج هذه إلا فتنةُ سامريّ يفرقون بها بين المرء وأمّته.

هذا ما دفع البعض إلى الطعن في علماء الأمّة الحريصينَ على اجتماع الكلمة الحاملينَ لواءَ الإصلاحِ ووأد الفتن كي يُمَرِّروا منهجهم الحزبيّ، ويلجؤون إلى تفصيل مرجعيّات متناسبة مع مقتضيات المصلحة الحزبيّة.

بعض الأحزاب الإسلاميّة تشابه اليهود ببُهْتانها، لو وافقهم طالب علم بهواهم قالوا عالِمُنا وابن عالمنا، ولو خالفهم بمسألة واحدة قالوا جاهلنا وابن جاهلنا، فمن يبحث عن العالم الربّانيّ بين المتحزبين هو كمن يبحث عنه بين علماء السلاطين، حتى أنّ بعض الأحزاب شابَهَت وزارة الأوقاف لدى الطغاة، حتى في كتابة ما يُراد من العالم أن يتكلم عنه وما يُراد له أن يسكت عنه، وما أسهل من قرار الطرد إن حادَ عن المطلوب والمسار المحدّد.

ذكر أبو محمد بن تميم الحنبلي في كتابه اعتقاد الإمام أحمد -241هـ -رحمه الله: " وكان يأمر بإظهار العلم، وقال في الحبس وهو مهدد بالضرب والقتل: إذا سكت الجاهل لجهله، وأمسكَ العالم تقيّةً، فمتى تقوم لله حجة ؟! "

يلجأ الناس إلى العلماء في الفتن لأنّ العلماء يُبْصرون الفتنة قبل أن تقع، أما العوام فيدركون الفتنة عند وقوعها، وأما الحمقى فيدركون الفتنة بعد وقوعها وانجلائها، وأما المتكبرون فلا يعترفون بوجودها.

هنا لا بُدّ من توجيه كلمة للمدارس المنتجة لطلبة العلم:

إنّ العقليةَ المنتَجةَ في كلّ المدارسِ الشرعيةِ هي مدارسُ تصنعُ طلابَ علمٍ تنتظر التلَقّي وترديدِ ما تتلقاه، فأغلبها عقليّة تقليديّة لا شأن لها بالإبداع والاستنباط ودراسة الحالات الطارئة والمستجدة، لذلك تجد أنّ موقفهم في كثير من القضايا المستجدة موقف مرتبك ومتردد، وغالباً يتشكل بعد فوات الأوان وانسياقاً لرأي العوام الذين يدركون الموقف ببساطة الفطرة.

يجب ألا يدفعنا الخروج من الصنميّة إلى إسقاط الرموز، ولا يصل بنا تقديس الرّموز إلى نصب أصنام جديدة.

الدعوة الربّـانيّة والدعوة الحزبيّـة

لا يمكن القضاء على الدعوات الحزبيّـة إلا بتجذير الدعوة الربّـانيّة.

يُراد بربّـانيّة الإسلام: انتسابُ الإسلام وأحكامِه وتشريعاته المستمدةِ من القرآن الكريم والسنة النبوية إلى الرب سبحانه وتعالى.

الربّـانيّة شيء مغايرٌ تماماً للحزبيّة.

الانتساب والاستمداد والدعوة والجهاد المنتفي عن الإطارات الحزبيّـة الضيّقة التي تُأزّم علاقة الأمّـة ببعضها وتسمح بوجود ثغراتٍ ينفذ منها الأعداء والحكومات الوظيفية.

يجب أن تدرك الأمّـة أنّ قيام جماعة من الأمّـة بحمل قضيةِ الإسلام من دون الأمّـة يتسبب بتحييد قسمٍ كبير من الأمّـة وتركِ هذه الجماعةِ تواجهُ تحدياتِ الأمّـة بمفردها.

- سفهاء الغلاة نسخوا الدّعوة إلى الله:

1-بين المسلمين بإسقاط العُذر بالجهلِ فنصبوا أنفسهم قضاة يتربصون زلات المكلفين.

2-وبين الكفار بإسقاط فهمِ الحجّة والاكتفاء ببلوغها، فجعلوا من هذا الأمر بوابة لبدأ القتال دون بيان.

من الجماعات الإسلاميّـة من يسلك مع الأمّـة مَسلَك التوريط لِزَجِّها في الصراع بدلاً من منطق الإقناع والتحشيد والخطاب الربّـانيّ الذي لا يقوم على فرز الأمّـة إلى جماعات وأحزاب بالتنقيب عن مَمْسَكٍ لِتَبَنّي الاختلاف وتأصيله وخلق الصراعات الجانبية بين جماعاتها، وإنّـما يُعزِّز الانتماء للأمّـة والاجتماع على أصول الإسلام.

نحتاج قبل ذلك إلى إيجاد الدعوة الربّـانيّة والجهاد الربّـانيّ والفهم الربّـانيّ والحركة الربّـانيّة، لذلك نجد القرآن الكريم يتحدث عن الربّـانيّة في مقامين: مقام الفهم والدعوة، ومقام الجهاد والحركة.

الدعوة الربّـانيّة وليست الدعوة الحزبيّـة والمسميات البدعية للأحزاب التي صارت بديلاً واضحاً عن مسمى الإسلام الذي برأيي هو مسمّىً وقفيٌّ لا يجوز الحَيْدُ عنه لأسماءٍ ابتدعوها وما رَعَوْها حق رِعايتها.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ آل عمران:79

وكذلك نحتاج إلى الجهاد الربّـانيّ الذي يُسْتمدُّ من كلّ الأمّـة وليس من جماعة بعينها، ويصب حصادها في مكاسب الأمّـة وليس لمكاسب جماعة بعينها، ويسير وفق المنهج الربّـانيّ وليس وفق منهج الجماعات، وهنا لا بد من تفعيل المدارس الفقهيّة المجمع عليها كالمذاهب الأربعة مثلاً، قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران:146.

من هنا تصل الأمّـة إلى التحرر والانعتاق ليكون بداية التمكين، ولن تصل إلى التمكين ما لم نوجد الدعوة والفهم الربّـانيّ والجهاد والحركة الربّـانيّة بالفهم الشموليّ والوسطيّ والمرونة والثبات والتوازن والخطاب العالميّ الموسوم بخصائص الإسلام العامّـة.

استنهاض الأمّـة بالدعوة الربّـانيّة مقدمة لا بدّ منها للوصول إلى التمكين والسيادة.

هنا لا بدّ أن ندخل بما يسمى فقه التمكين وبناء الشوكة والمنعة للأمّـة الإسلاميّـة قبل الحديث عن الخلافة والدولة.

أولاً: فقه التمكين:

كثيرٌ من الجماعات ما إن تجتمع حولها ثُـلّة من الرجال وخردة من السلاح في مساحة من الأرض حتى تعلن الجماعةُ الإمامةَ والإمارةَ، وعن أرضها: دولة، وعن حزبها جماعة المسلمين، وهم خائفون من إعلان أسمائهم ظنّـاً منهم أنهم صاروا من المُمَكّـنين في الأرض وأنّ واجب قيام الخلافة صار على عاتقهم، وهذا من تسمية الأوهام بالحقائق دون إدراك معادلـة التمكين المعقدة خصوصاً في هذا العصر.

معادلـة التمكين:

التمكين هو عناصر **(القوة)** =

1-المعطيات الثابتة في القوة = {التاريخ (تحضير الذاكرة والتجربة)

+ الجغرافيا (تحديد الأرض الصديقة والعمق)

+ (عدد السكان والقوة البشرية كماً ونوعاً) + الثقافة (التمسك بالهوية والانتماء)}

2-المعطيات المتغيرة في القوة = {القدرة الاقتصاديّة (موارد تعطي القدرة على الصمود) + القدرة التكنولوجية (قوة الردع) + القدرة العسكرية (التعبئة الجهادية)}

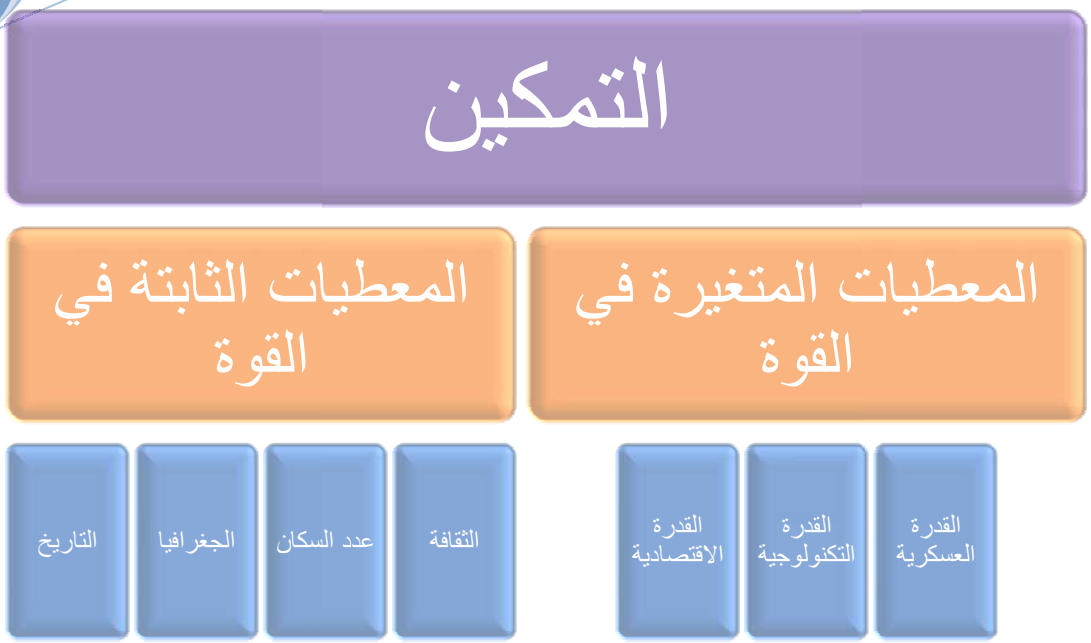

نتوصل إلى معادلـة التمكين:

القوة = {المعطياتُ الثابتةُ + المعطياتُ المتغيرةُ) (الذهنيةُ الاستراتيجيّةُ (قراءةُ المحيطِ وتقسيمِه إلى: عدوّ \حليفٍ\ محايدٍ) + التخطيط الاستراتيجيّ (تحديد القدرات الأساسية ودراسة التحديات) + الإرادة السياسية (القيادةُ امتدادٌ لإرادة الشعوب وليس العكس)}

وبذلك تصبح المعادلـة:

التمكين = {(التاريخ + الجغرافيا + عدد السكان + الثقافة) + (القدرة الاقتصاديّة + القدرة التكنولوجية + القدرة العسكرية)} مضروبة في (الذهنية الاستراتيجية + التخطيط الاستراتيجيّ + الإرادة السياسية)

"كتاب العمق الاستراتيجيّ"

يقول الشيخ المجاهد أبو يزن الشامي رحمه الله تحت عنوان **التمكين في الوهم والعقلية الاحتفالية:**

المكاسب في علمِ السياسةِ إمّـا صلبةٌ (ذاتُ طابعٍ استراتيجيّ) أو هشةٌ (ذات طابع احتفالي)، صلح الحديبية مكسبٌ صلبٌ، تحرير أبو جندل مكسبٌ هشٌّ.

صلح الحديبية: فترةُ استقرار وبناءِ عشرِ سنواتٍ لدولةِ النّبوةِ الصّاعدة، اعترافُ المحيط بها كدولة قائمة بعد أن كانت عصابةً بنظرهم وقلعٌ لخنجر اليهود في خيبر ...

التخلي عن مكاسبِ الحديبيةِ السياسيةِ مقابلَ أسيرٍ هو مكسبٌ للاحتفال أكثر منه مكسباً لبناءِ الدولة، لذلك تركه ﷺ لأنَّـه رجلٌ يبني دولة.
استدعاء العاطفة من ابن الخطاب كان سيولد أزمة داخلية ويؤدي لخسارة مكاسب الحديبية، لذا ندم عمر رضي الله عنه أشدّ النّدم وقال: "عملت له أعمالاً "، فقول عمر: (ألسنا على الحق؟ بلى، قال: أليس عدونا على الباطل؟ بلى، قال: فلم نعطي الدّنيّة في ديننا؟) مقتلٌ سياسيٌّ أنجانا ﷺ منه.
العقليّة الاحتفاليّة تجعل العمل الاستراتيجيّ من الصعوبة بمكان فتربية الإصداراتِ والأناشيد لا تولّدُ عقليةً احتفاليّة فحسب بل مهرجانية.
العقليّـة الاحتفاليّة طغت على المشهد الجهاديّ بسبب الغلو وأهله، وهذا الطغيان لا يعالَج للأسف إلا بضرباتِ الواقع المؤلم.
يبدو أنّ قَدَرَنا في الشام أنْ نخوض كل الجولات بانتظار الجولة الأخيرة، فإنّ للوعي في زمن الاحتفالات ثمناً أعظمَ مما كنّا نظن.

مراحل التمكين في السيرة النبوية

1-مرتِ الدعوةُ الإسلاميّـةُ بمرحلةِ الاستضعافِ التي قاسى بها الرّعيل الأول أصناف البلاءِ مع امتناع البعض بعشيرتهم أو الدخولِ بحماية كافرٍ مجيرٍ، وانتهت هذه المرحلةُ بإسلام عمرَ بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما
جاء في البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر)
لتبدأ:
2-مرحلةُ تمكينِ النّكايةِ أو التمكين الجزئي الذي كفّ أذى قريشٍ عن أغلب المسلمين، ولكن لم يُعلِن رسول الله ﷺ قيام الدولة وكانت جُلّ البيعات التي تُؤخَذ: بيعات على الإسلام فحسب.
إنّ إعلان الدولة في هذه المرحلة ليس أكثر من إدخال القاعدةِ الصلبةِ في مواجهة غيرِ متكافئةٍ ربما تنتهي بإجهاضِ المشروع الإسلاميّ برمّته، وهذا ما تُـكَرِّرُه الحركات الإسلاميّـة من حصدٍ للفشَل تلو الآخر تحت ضغط الاستعجال وحماسِ الصدقِ والجهلِ بفقهِ المرحلةِ وحرقٍ للمراحل وقفز على الأسباب.
ثم جاءت:
3-المرحلة الثالثة وهي تمكين الحماية والمَنَعَة، وبدأت ببيعة العقبةِ الكبرى فكانت بيعةً على القتال والحمايةِ والنصرة، وهي التي تُوِّجَت بقيام دولة المدينة.
وبدأ الجهاد الدفاعي والذي استمر إلى:

4- المرحلة الرابعة: غزوة الخندق حيث قال رسول الله ﷺ بعدها: "اليوم نغزوهم ولا يغزونا".

وهذا موضعُ الخللِ عند أغلب الجماعات الجهادية التي لا تزال في تمكين النكاية، وتريد أن تقطف لوازمَ تمكينِ الحمايةِ فتقعُ في الانتكاس وتبديد طاقاتها وإفناء شبابها في مواجهاتٍ تنتهي بطليعتها إلى الجبال والكهوف، ثم يفسّرون ذلك أنَّه الابتلاء من أجل التمحيص، مستدلين بمثلٍ لم يتكرّر في السيرة إلا مرّة ويتكرر في عمل الجماعات الإسلاميّة في كل مرّة، ويتّهمون كلّ من لم يسر معهم بهذا الاجتهاد بالخيانة والقعود عن الجهاد والتخذيل.

هل انتقلت الحركاتُ الإسلاميّة من السفه إلى الرشد؟

لقد نهى البيان الإلهي وَلِيّ اليتيم أشدّ النّهي عن إيتاء السفهاءِ أموالَهم قبل الاختبار لهم على جزءٍ منه، فإن التمسنا منهم رُشداً دفعنا إليهم المال، وإن كانوا يراهقون في السّفه بقي الحِجْرُ عليهم ملازماً، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ النساء:5 وقال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء:6

وما ينطبق على سَفَهِ فَرْدٍ ينسحب على سفه أمّة.

إذا أراد الله تعالى أن ينشل الأمّة من حال الاستضعاف إلى التمكين اختبرها بشيء من التمكين الجزئي، فإنْ أثبتت من نفسها رُشداً نقلها من التمكين الجزئي إلى التمكين الكلي، وإنْ بقيت تراهق في السفه أرْكَسها في الضعف وحَجَرَ عليها خلافة الأرض إلى حين، **فهل يخالف الله ما ينهانا عنه؟** هيهات.

من فقه التمكينِ عبرَ المسارات الخمس:

1-مكّن الله تعالى لرسوله ﷺ بنصرة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: 62-63

2-ومكّن لداوود عليه السلام بالجهاد والصناعات الحربية، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ البقرة:251

-ومكّن لسليمان عليه السلام بوراثة الملك، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ النمل:16

4-ومكّن لذي القرنين بالعلم، قال تعالى:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف:84، قال ابن عباس: السبَبُ العِلْمُ

5-ومكّن ليوسف بالولاية الاقتصاديّة على خزائن الأرض، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف:56

يجب على الحركةِ الإسلاميّـةِ أن تتجهَ في هذه المساراتِ الخمسِ نحوَ التمكين.

من فقه التمكين:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: 25).

لقد بينت الآيةُ القاعدةَ التي يقوم عليها الإسلام، بل كل الرّسالاتِ، وهي الكتاب، والقوة. قال ابن تيمية رحمه الله: "قِوام الدين: كتاب يهدي وسيف ينصر" جهادٌ ودعوةٌ لا ينحصران ولا يتأطّران في مضيق الحزبيّـة، لا يمكن أنْ تقوم دولةٌ إسلاميّـة بدون مجتمع إسلاميّ، ولا يمكن إيجاد مجتمع إسلاميّ بدون دعوة ربّـانيّة، والدعوة الربّـانيّة تحتاج إلى دعاةٍ ربّـانيّن يسلكون في دعوتهم التصفية والتربية:

تصفيةَ الإسلامِ من بِدَعِ الزيادة والنقصان، التربية والتزكية الربّـانيّة للمجتمع على هذا المنهج الربّـانيّ الذي لم تفسده مزايدات الجماعات الإسلاميّـة واجتهاداتهم الحزبيّـة، فنعود لأصول الإسلام وليس لأصول الجماعات.

الإعداد والتربية:

المناهج الإعدادية التربوية لا تكفي بدون تحقيق الشوكة والنكاية وإلا ستتحول الطليعة إلى خرفان مسمنة يزُجُّها الطواغيت متى أرادوا في السجون ويسوقونهم إلى حبال المشنقة ولن يجدوا لأنفسهم حتى البواكي.

والنكايةُ لا يمكن أن تكون بدون إعداد، والإعدادُ يجب أن يكون بالقوة المتاحة لا المكافئة، ولكنّ أغلب الجماعات تَصرفُ أكثر جهدها للإنجاز وقليل من الجهد التافه يصرف إلى الإعداد.

لن يكون لدى الإسلاميّين دولةٌ ظاهرةٌ إذا لم يكن لهم دولة عميقة، ولن يكون لهم دولة عميقة إلا بالتغلغل في مفاصلِ القوة وخوض معركةٍ لا هوادة فيها في تفكيك الدول العميقة للطغاة واستبدالها بكوادرَ تكون الطَابورَ الخامسَ لنصرةِ المشروع الإسلاميّ وتمكينه. قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

الأنفال:60

نتيجة الإعداد إحداث الرهبة للأعداء والمنافقين، فإذا كان إعدادُنا لا يُرهبهم، فما قمنا بالأمر حقاً.

جهاد الأمّـة وجهاد العصابة في طريق التمكين

استراتيجيةُ جهاد العِصابة، لا تعرفُ الثبات ولا الاستقرار في مكان دون مكان، تعتمد أسلوب الكرّ والفرّ، ومن ثم التخفي والمواراة، لا تبالي لو رَمت بسهامها في أكثر من اتجاه وعلى أكثر من جبهة، لا تحسب للعواقب والمآلات حساباً ذا بالٍ إلا فيمَ يتعلق بسلامة وحركة العِصابة ذاتها.

استراتيجيةُ جهاد العِصابة هي الخيارُ الأسهل بالنسبة للمقاتلين والمجاهدين؛ لأنَّـه لا تترتّب عليها مسؤولياتٌ ومهامٌ كبيرة يلتزمون بها نحو الشعوب، والمجتمع المسلم ومؤسساته، ونحو قيام دولة راشدة عادلة قوية لها مؤسساتها ومرافقها وأهدافها، وبالتالي فهي ـ أي استراتيجية جهاد العصابة ـ لا تصلح لقيام مشاريعَ كبيرةٍ ومهمة ـ حتى لو رفعتها كشعار ـ كقيام دولة إسلاميّـة تحكم بما أنزل الله، لها مؤسساتها ومرافقها المدنية والاجتماعيّـة، ولو حاولت ستفشل، كما فشلت في أكثر من موقع في واقعنا المعاصر.

استراتيجية جهاد العصابة قد تترك آثاراً، لكنها لا تُزيل عروشاً، ولا تقيم دولاً.

استراتيجية جهاد العصابة لا تكترث بالحاضنة الشعبية كثيراً، فلا تهمّها من هذه الحاضنة الواسعة والضخمة سوى أن تنتقي لنفسها منها بضعة أفراد، تنطلق بهم نحو أهدافها، وتُشَـتِّـتَهُم بحسب تشتُّـتِ سهامها، وعدد جبهاتها!

وهذا بخلاف ما عليه استراتيجية جهاد الأمّـة، فاستراتيجية جهاد الأمّـة تعتمد على الجهاد بالأمّـة ضد أعداء الأمّـة، الجهاد بالشعوب المسلمة ـ كل الشعوب المسلمة ـ ضد الطغاة الظالمين، وأنظمتهم الفاسدة الفاجرة.

استراتيجية جهاد الأمّـة تعتمد على تشكيل الجيوش المسلمة المعلنَة، تستمد عناصرها من مجموع القادرين من الشعوب المسلمة، والمنظمة تنظيماً حديثاً ومتطوراً، لتقوم بمهامها في الذود عن الدين والديار والحرمات، لا تعرف أسلوب الكرّ والفرّ، ومن ثم التخفي عن الأنظار!

استراتيجية جهاد الأمّـة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمطالب وآمـال الشعوب وما تصبو إليه، كقيام دولة راشدة عادلة قوية لها مؤسساتها ومرافقها المدنية والعسكرية، وبالتالي فإن هذا البُعد معتبرٌ جداً في استراتيجية جهاد الأمّـة في كل خطوة من خطواتها، وفي كل مرحلة من مراحلها، تحسب للعواقب والمآلات حساباتها الجيدة والمُحْكَمَة.

استراتيجية جهاد الأمّـة لها مسؤولياتها الجسام نحوَ مجموع أبنائها ومصالحهم وديارهم وبلدانهم ومقدساتهم، كما تتحمل مسؤولياتها الأخلاقيّـة والشرعيّة نحو جميع شعوب العالم، وبالتالي فهي من هذا الوجه صعبة جداً تحتاج إلى جهدٍ كبير، وإلى كوادر كبيرة وكثيرة تتضافر عليها مجموع قوى أبناء الأمّـة.

استراتيجية جهاد الأمّـة والشعوبِ معنيّةٌ بإزالةِ عروشِ الطغاة الظالمين وإقامة دولة العدل والحق، فمهمّـتُها لا تقتصر على المناوشات أو الهدم وحسب، ومن ثم بعد ذلك فليكن ما يكون من دون الالتفات إلى العنصر الأهمّ، عنصر البناء، بناء الدولة العادلة الراشدة القوية.

استراتيجية جهاد الأمّـة والشعوب، قائمة على ترتيب الأولويّـات في تحديد العدو الأشد خطراً، ومن ثم دفعِه ودفعِ خطرِه عن البلادِ والعباد، وهذا قد يستدعي منها نوعَ تحالفٍ أو تصالحٍ مع فريق دون فريق، لتتفرغ للعدو الأشد شراسةً وخطراً، فهي ـ أي استراتيجية جهاد الأمّـة ـ لا تنهج سياسةَ استعداءِ العالَم، كلّ العالَم، وتجعلهم جميعاً في صفّ واحدٍ من العداوة، ومن ثم تخوض معهم مجتمعين معركة ـ في وقت واحد ـ تُعرفُ نتائجها المدمرّة على دولة الإسلام ومؤسساتها وعلى الشعوب المسلمة مسبقاً.

والسنة قد أشارت لشيءٍ من هذا الفقه الهام، كما في قوله ﷺ: "ستصالحون الرومَ صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائهم، فتسلمون وتغنمون"، وفي رواية: "ستصالحون الرومَ صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتنتصرون، وتغنمون، وتَسْلَمُونَ" صحيح، رواه أبو داوود، وابن ماجهْ

فهناك عدوٌ من وراء الروم ـ ويُحتمل أن يكون جزءاً منه من وراء المسلمين كما أفادت بذلك الرواية الأخرى ـ شديدُ الخطرِ والعداوةِ لا يمكن الوصول إليه ومن ثم دفعُه ودفعُ شرّه، إلا بعد تصالحٍ وتنسيقٍ مع نصارى الروم.

وفي غزوة الخندق، استشار النبي ﷺ أصحابه، في أن يشاطر بعض الأحزاب التي شاركت في تطويق المدينة وحصارها، تمر المدينة، مقابل أن يفكوا ارتباطهم

وتحالفهم مع مشركي قريش، وينفضوا عن القتال ومحاصرة المدينة، وهذا كله من قبيل العمل بالفقه المشار إليه أعلاه.

فإن قيل: هل يُفهم مما تقدم أعلاه أنّ استراتيجيةَ جهادِ العصابةِ مرفوضةٌ أو مستهجنةٌ على الإطلاق؟

أقول: لا، بل قد تتواجد ـ في مرحلةٍ من المراحل ـ ظروفٌ موضوعيّة تبرّر وجود من يُقاتل على طريقة حرب العصابات، معتمداً استراتيجية جهاد العِصابة، وقد تواجد في التاريخ الإسلاميّ شيء من ذلك كما في جهاد الصحابي الجليل أبي بصير ومن معه، لما اضطرتهم الظروف النّاجمة عن صلح الحديبية أن يشكلوا بأنفسهم جبهةً مستقلةً ومتنقلة، تعتمد أسلوبَ الكرّ والفرّ بعيداً عن دولة الإسلام والتزاماتها، المتمثلة في المدينة المنورة، والتي كانت تمثل استراتيجية جهاد الأمّة.

لكن ما إن تزول تلك الظروف الموضوعية التي أفرزت تلك المجموعة التي تقاتل على طريقة استراتيجية جهاد العصابة، إلا ويتعين على تلك المجموعة أن تنخرط وتدخل في المشروع الأضخم والأشمل، مشروع استراتيجية جهاد الأمّة والشعوب، وهذا الذي حصل مع الصحابي أبي بصير رضي الله عنه ومن معه، فما إن زالت تلك الظروف الموضوعية التي أفرزتهم وأبعدتهم عن استراتيجية جهاد الأمّة، إلا وسرعان ما انضموا إلى الجسد الأكبر للأمّة، ليجاهدوا معها جهادها الأكبر وفق استراتيجيتها.

استراتيجية جهاد العصابة حالة استثنائيةٌ طارئةٌ توجدها ظروفٌ موضوعيّة معيّنة، فإذا ما زالت تلك الظروف ووُجِدَتْ استراتيجيةُ جهادِ الأمّة والشعوب، بطلت استراتيجية جهاد العصابة، ودخلت وجوباً في الاستراتيجية العامّة لجهاد الأمّة، فإن لم تفعل، فحينئذٍ قد تُفسد أكثر مما تُصلِح، إذ لا يمكن أن تُفعَّل في زمانٍ واحدٍ ومكانٍ واحد استراتيجية جهاد الأمّة، واستراتيجية جهاد العِصابة معاً! (أبو بصير مع استراتيجية المدينة)

لا يجوز أن تكون استراتيجية جهاد الأمّة تبعاً لاستراتيجيةِ جهاد العصابة، أو أن تفرض العِصابةُ على الأمّة استراتيجيتها في الجهادِ والعملِ والحركةِ والتغيير، فمَثَلُ من يفعل ذلك كمثل من يُلزم الرجل الكبير بأن يرتدي ثيابَ الطفل الصغير، وأنّى!

عندما تنهضُ الأمّة للجهاد والتغييرِ يجب على من يجاهدُ على طريقة استراتيجية جهاد العِصابة أن يتنحى عن الطريق، وأن يعطيَ الفرصة كاملةً للأمّة والشعوب لتمضيَ في طريقها نحو أهدافها، وإلى نهايته من دون أن يُحدث أي حدثٍ، حتى لا يفسد على جهاد الأمّة خطتها واستراتيجيتها وطريقتها في العمل والتغيير.

الطغاة الظالمون في كثير من الأحيان لا يستطيعون مواجهة استراتيجية جهاد الأمّـة والشعوب، ولكي يفسدوا على الأمّـة خطتها في الجهاد والتغيير يستفزّون ويستجرون الذين يُقاتلون على طريقة استراتيجية جهاد العصابة إلى الساحات والميادين ليثيروا معهم المعارك الجانبية، ويضربوهم ويضربوا معهم جهاد الأمّـة والشعوب، وتكون ذريعتهم في ضرب استراتيجية جهاد الأمّـة والشعوب أنهم أرادوا ضربَ ومحاربةَ من يُقاتل ويُجاهد على طريقة استراتيجية جهاد وحرب العصابات، أرادوا قتال الإرهابيين "والعصابات الإرهابية"، وليس الشعوب، وهم بهذا الزعم الكاذب عساهم يستعطفون دول العالم لتقف بجوارهم في حربهم ضد الشعوب الثائرة الراغبة في التغيير!

لذا إن لم يتنبه من يُجاهد على طريقة استراتيجية جهاد العصابة لهذا الجانب، وأبى إلا أن يُزاحم ويشارك استراتيجية جهاد الأمّـة والشعوب في العمل والجهاد والتغيير على طريقته وفق استراتيجيته، فهو من جهة يضر أكثر مما ينفع، ومن جهة أخرى يقدم خدمةً كبيرةً لطغاةِ الحكم المجرمين الظالمين من حيث لا يدري!

لا ينبغي ولا يليقُ لمن يُجاهد على طريقة استراتيجية جهاد العِصابة، أن يُطالب الأمّـة والشعوب بالجهاد والنهوض للتغيير، ثم إن فعلت الأمّـة ونهضت للجهاد والتغيير وفق استراتيجيتها، زاحمها في العمل وأحدث الأحداث التي تفسد عليها خطتها واستراتيجيتها في الجهاد والعمل والتغيير، وألزمها باستراتيجيته وطريقته في العمل، فإن لم تفعل، ولن تقدر على أن تفعل، أساء بها الظنون ورمى بفشله على الأمّـة والشعوب، والحقّ أن ما أصابه، وأصاب الأمّـة بسببه، هو من عند نفسه.

(أبو بصير الطرطوسي)

كيف نقيم الشريعة في طريق التمكين

كيف نقيم الشريعة؟

الشريعة مبنيةٌ على تحقيق مصالح الناس في المعاش والمعاد، إذاً هي لحل مشاكلهم وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط.

ويقول ابن القيم رحمه الله: إن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَمِ ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وقال: أساس الشريعة الإسلامية جلب كل مصلحةٍ تنفع العباد ودرء كل مفسدةٍ تضرّ بهم. إعلام الموقعين 3/5

لذلك كانت من أسباب فشل الحركات الإسلاميّة في تسويق مشاريعهم: طرحُ المشروع على أنَّـه قضيّة عَقديّة محضةٌ يترتبُ عليها كفرٌ وإيمان، فيبتزون العامّـة ويتعامون عن حل مشاكل الأمّـة برؤية شرعية مقنعة.

لا نقول: الشريعة الإسلاميّـة صالحةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، بل هي مصلحةٌ لكلّ زمان ومكان.

الملاحظ أن دعوة الأنبياء عليهم السلام اقترنت دائماً بحل مشاكل الأمّـة التي يدعونها وإقامة الشريعة عن طريق حلّ المشاكل، لذلك كانت:

1-دعوة موسى عليه السلام اقترنت بعلاج مشكلة سياسية، قال تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ الدخان:18-19

2-دعوة لوط عليه السلام اقترنت بالدعوة إلى إصلاح مشكلة أخلاقية، قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ هود:78

3-دعوة يوسف اقترنت بحل أزمةٍ اقتصادية وأمن غذائي، قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ يوسف:55

4-دعوة شعيب عليه السلام اقترنت بالدعوة إلى إصلاح مشاكل اجتماعية ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الأعراف:85

5-دعوة ذو القرنين عن طريق حلّ مشاكل الشعوب، لم يتحدث القرآن عن دعوة مجردة، وإنّـما عن دعوة مع حلّ المشاكل المعضلة، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ

إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ الكهف:94-95

ودعوة محمد ﷺ اقترنت بحل المشاكل الحضارية في الأمة الأمية قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾

الجمعة:2

بينما طريقة التطبيق عند الجماعات الإسلاميّة هي طريقة إفرازِ المشاكل، بل إنّ هذه الجماعات بحدّ ذاتها تحولت إلى مشكلة

التكليف مَنُوْطٌ بالاستطاعةِ والتمكين
بينَ العجزِ الجُزئي والعَجزِ الكُلّي

إنَّ الله تعالى قد أخبر في غير موضع أنَّـه لا يكلّف نفسًا إلا وُسعها، كقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ البقرة:286، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمنواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصحاب الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الأعراف:42، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا﴾ الطلاق:7

• وأمر بتقواه بقدر الاستطاعة فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن:16، وقد دعاه المؤمنون بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ البقرة:286، فقال الله عز وجلّ: [قد فعلت] رواه البخاري

فدَلَّت هذه النصوص على أنَّـه لا يكلف نفساً ما تعجز عنه، خلافا للجَـهْمِيَّة المجبرة، ودلّت على أنَّـه لا يؤاخذ المخطئَ والناسي خلافا للقدريّـة والمعتزلة، وهذا فصل الخطاب في هذا الباب.

• فالمجتهد المستدلّ من إمامٍ وحاكمٍ وعالمٍ وناظرٍ ومُفْتٍ، وغير ذلك، إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع، كان هذا هو الذي كلّـفه الله إيّاه، وهو مطيعٌ لله مستحقٌ للثواب إذا اتّـقاه ما استطاع، ولا يعاقِبُه الله البتّـة خلافاً للجهمية الجبريّة وهو مصيب، بمعنى: أنَّـه مطيع لله، لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه، خلافاً للقدرية والمعتزلة في قولهم:

كل من استفرغ وسعه علم الحق، فإنّ هذا باطل كما تقدّم، بل كل من استفرغ وُسْعَهُ استحقّ الثواب إن كان من أهله

• وكذلك الكفار، من بلغه دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنَّـه رسول الله فآمن به، وآمن بما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع ، كما فعل النجاشي وغيره، ولم يتمكن من الهجرةِ إلى دار الإسلام، ولا التزامِ جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعًا من الهجرة وممنوعًا من إظهار دينه، وليس عنده من يعلّمهُ جميع شرائع الإسلام، **|فهذا مؤمنٌ من أهل الجنة|.**

• كما كانَ مؤمنُ آل فرعون مع قوم فرعون، وكما كانت امرأة فرعون، بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفارًا، ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام، فإنَّـه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ غافر:34.

• وكذلكَ النجاشيّ، هو وإن كان ملك النصارى! فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، بل إنّـما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك أحد يصلي عليه، فصلي عليه النبي ﷺ بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى فصفّـهم صفوفًا، وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " نَعَى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّجَاشِيَ صَاحِبَ الْحَبَشَةِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ،

فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ " . وفي رواية للبخاري " قَدْ تُوُفِّيَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنَ الْحَبَشِ ".

• وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك! فلم يهاجر، ولم يجاهد، ولا حج البيت، بل قد روي أنَّـه لم يصل الصلوات الخمس، ولم يصم شهر رمضان، ولم يؤدِّ الزكاة الشرعية؛ لأنّ ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه، ولا يمكنه مخالفتهم.

• ونحن نعلم قطعًا أنَّـه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن!

والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنَّـه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه، وحَذَّرَه أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه.

• وهذا مثل الحكم في الزنا للمُحْصَن بِحَدِّ الرجم، وفي الديات بالعدل، والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع، النفس بالنفس والعين بالعين، وغير ذلك.

• والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن؛ فإن قومه لا يُقِرُّونه على ذلك، وكثيرًا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيًا بل وإماما وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك! بل هناك من يمنعه ذلك! ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها!

وعمر بن عبد العزيز عُودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل، وقيل: إنَّـه سُمَّ على ذلك.

• فالنجاشيّ وأمثاله |**سعداء في الجنة**|! وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها.

قاله العلامة أحمد بن تيمية الحرّاني الحنبلي ـ يرحمه الله ـ كما في ((المجموع، 19 / 216 وما بعدها)).

التعجل في المواجهة

في بداية التجميع والإعداد للقاعدة الصلبة يجب أنْ تكون الرعاية بعيداً عن أعين المتربّصين والضجيج الإعلامي لكيلا يفسدوا المشروع: ﴿ولْيَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحدًا﴾ الكهف:19

يجب على القاعدة الصلبة المؤمنة المستضعفة أنْ لا ترمي بكل أوراقها في مواجهة الباطل فتكون أمام خيارين لا ثالث لهما:

﴿إنهم إن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أو يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إذا أبداً﴾ الكهف:20

المواجهة يجب أنْ تُحدّدَ بثلاث أنواع من الفقه:

1. فقه الأولويّـات: هل تم اختيار المواجهة مع عدوّ تشكل مواجهته أولويّـة لنا على غيره من الأعداء؟

2. فقه الواقع لحالنا وإمكانيّاتنا وإمكانيّات العدوّ، وهل الأمر ضمن استطاعتنا؟
3. فقه المآلات: وهو النظر فيما يترتب على أيِّ قرار بالمواجهة من تبِعاتٍ ممكنٌ أنْ نتحمّلها.

حتى تنجح الدعوة لا بُدّ من اكتشاف الطاقات واستثمارها:

فراسة اكتشاف الرجال لا يهتدي إليها إلا أولو البصيرة والفهم (تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً) رواه مسلم

هناك كثير من الطاقات المهدورة أو المبعدة والمعتم عليها من الصفوف الأولى في الحركات الإسلاميّة التي لا تريد مغادرة الأضواء وفسح المجال للدماء الجديدة لتأخذ دورها، لذلك القضيّة تحتاج إلى اكتشاف الطاقات الكامنة والاقتصاد في الطاقات المهدورة وتشغيل الطاقات المعطلة وترتيب الطاقات العشوائية وفق الاختصاص.

لذلك تجد في السيرة النبوية: مُصعبٌ للدعوة، وحُذيفةُ للأسرار، وأُبيٌّ للقرآن، وحَسّانُ للشعر وأبو بكرٍ وعُمَرُ للشورى، ومعاذٌ للعلم، وزَيدٌ للفرائض.

لقد كان عمر رضي الله عنه يتمنى أن يكون عنده ملءُ بيتٍ كبيرٍ رجالاً كأبي عبيدة عامر بن الجراح، لله دره كيف أدرك أن امتلاك المعادن النفيسة من الرجال أهم من امتلاك المعادن النفيسة من الذهب والفضة وهذا ما لا يدركه قادة الجماعات الإسلامية فكم من رجالٍ دفناهم وكم من عقولٍ قتلناها لأنها لا تسرع في شهواتنا ولا تنضوي تحت أحزابنا، فكم وكم وضعنا الرأس مكان الذنب ووضعنا الذنب مكان الرأس، إذا صارت أذنابنا رؤوساً لنا .. صرنا بحكم الطبع نمشي إلى الوراء.

ثانياً: فقه الاختلاف

من خصائص الدعوة الربّانيّة والأمّة الربّانيّة احتمال الاختلاف المعتبر، الاختلاف الذي لا يؤدّي إلى الافتراق.

سعة الفقه وأوجه الاجتهاد المعتبرة فيها متسع لتبني رؤية تستند إلى وجه من الوجوه.

والخيارات الفقهية مما يميز الإسلام السني.

وليس عيباً تلك السعة فهي عامل إثراء للفقه وإتاحة مزيد من الخيارات للحركات الإسلاميّة للتعامل مع واقع شديد التعقيد وسريع التغيير، إنما العيب أن تتضارب فيما بينها، وأن تغيب إرادة التعاون والتكامل بما لا يفوت على الأمة مصلحة.

وإنما جاء سوء النظر من استخفاف البعض بخيارات الآخر، وتحميله مآلات اختياراته دون استكمال اختبارات الخيار الفقهي على محكات تجارب لما تنته بعد.
وفيما بين ابن المبارك والفضيل بن عياض درس ونموذج للاقتداء دون نكير أو تبكيت كل في مساره يدعم الآخر.
آفة الحكم على المواقف والخيارات رغبة محمومة لدى كل الأطراف في التنقيص والتبخيس، وليس الوقوف على قواسم مشتركة.
ولعل حالة التشظي التي تعيشها الأمة مما تنتج تلك الفوضى في الأحكام على مسارات واتجاهات دون محاولات لتفهم الدوافع والأسباب.
ولعل أيضاً حالة التسيب من تصدر كل أحد للرأي والنظر هو ما يشغب على أكابر العلماء في إشاعة وإعلان ونشر آراء واجتهادات معتبرة لو تحقق لها ذلك، لقطعت الطريق على حالة السيولة في الرأي لدى كل أحد.
البحث عن فقه قطعي الأحكام أحدي الحكم ضرب من الخيال.
الاختلاف سنة ربّـانيّة، (كان شيخ الإسلام ابن تيمية مع شدّة اختلافه مع الأشاعرة والصوفيّة قد طوى بساط الجدل لمّا داهَمَهُم خطر التتار، وجاهد معهم في "شقحب" من أعمال دمشق وسماهم الطّائفة المنصورة.)
(ذكر ذلك الإمام ابن كثير في تاريخه).

عندما يأتي من يريد نسف المذاهب ويقول لنا (الكتاب والسنة بفهم سلف الأمّـة) نقول: أول من يدخل في مفهوم السلف الأئمّـة الأربعة، وكأنّ السّلف لم يحصل بينهم خلاف!
فإذا جئت له بآراء السّلفِ انتقى منها رأياً يريد أنْ يحمل الأمّـة عليه، وقد وَقَعَ الاختلاف كثيراً بين الصحابة:
اختلفوا في مسألة وفاة رسول الله ﷺ هل توفي أم أنّه ذهب ليناجي ربه، ثم اختلفوا على مكان دفنه،
ثم اختلفوا على تغسيله ﷺ،
ثم اختلفوا على ميراثه ﷺ هل يوزع أم يكون صدقة،
ثم اختلفوا على الإمامة من بعده ﷺ هل هي في المهاجرين أم في الأنصار،
ثم اختلفوا على بعث أسامّـة،
ثم اختلفوا على محاربة المرتدين.
- صلى الشافعي الصبح في مسجد أبي حنيفة الصبح فلم يَـقْنُت ولم يَجْهَر ببسم الله تأدبّـاً مع أبي حنيفة رحمهما الله [طبقات الحنفية 433/1].
قال القرطبي: "كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرؤون البسملة لا سراً ولا جهراً، وصلى أبو

يوسف خلف الرشيد وقد احتج وأفتاه مالك بأنَّـه لا يتوضأ فصلى خلفه أبو يوسف ولم يعد" [الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 375/23].
قال النووي: "ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصّاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً" [شرح النووي على صحيح مسلم 24/2].

أسباب وقوع الخلاف:

أغلب أدلّـة الشرع هي أدلّـة ظنيّة الدّلالة، والاختلاف في فهم معناه وارد جداً وكذلك الاختلاف في ثبوته:
1-اختلاف العلماء في حُجّـيّة بعض المصادر الفقهية أو اختلافهم في رتبة الاحتجاج بها كما في خلاف الفقهاء في حجية القراءات الشاذة والحديث المرسل والاستحسان وشرع من قبلنا وإجماع أهل المدينة.
2-اختلافهم في فهم النصوص، كما في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً﴾ [المائدة:6]. فسرها الجمهور بالجماع، ولم يجعلوا لمس المرأة مما ينقض الوضوء، فيما أخذ الشافعي بظاهرها فجعل مجرد لمس المرأة ناقضاً للوضوء.
3-الاختلاف في فهم علّة الحُكْم كما في الخلاف في مشروعيّة القيام للجنازة هل هو للمؤمن أم للكافر؟ وهل يقام تعظيماً للملائكة أم لِهَوْلِ الموت؟ أم أنَّـه خاصّ بالكافر حتى لا تعلو جنازة الكافر رأس المسلم؟ وكما في علّة سهم المؤلّفةِ قلوبهم هل هو للتأليف أم لدفع شرّهم عند ضعف المسلمين؟
4-من أسباب الاختلاف عدم بُلُوْغِهِمُ الدّليل، مثاله: خَفِيَ على عمر حكم دخول أرض الطاعون، بل وعلى كثير من الصحابة، فاختلفوا حتى أخبرهم عبد الرحمن بن عوف بقول النبي ﷺ في ذلك.
5-من أسباب الاختلاف عدم الوثوق بصحة الدّليل الذي عند الآخرين، فقد يضعفُ العالمُ المخالفُ الحديثَ في حين يُصحِّحُهُ الآخرون، لاختلاف العلماء في تعديل أحد الرواة، أو لعلّة يراها في السند أو المتن تجعل الرواية شاذّة أو لغير ذلك من أسباب رد الرواية مما هو مسطر في كتب علم الحديث.
ومن ذلك قصة عمر مع فاطمة بنت قيس حين رد حديثها في سكنِ ونفقةِ المطلّقة طلاقًا بائِناً بقوله: (لا نترك كتاب الله وسنة نبينا ﷺ لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت) [مسلم ح1480].
6-من أسباب الاختلاف: الاختلاف في دلالات الألفاظ والنصوص لكون اللفظ مشتركاً أو مجملاً، ومثله قد وقع من الصحابة عام الخندق كما في الصحيحين

عندما قال ﷺ لأصحابه: ((لا يُصلِّينَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة)) [البخاري ح946، ومسلم ح1770]. فتمسك بعضهم بظاهر النص ففاتتهم الصلاة، وتمسّك الآخرون بمفهوم النص والمراد منه وهو الإسراع، فصلوا وهم في الطريق، قال ابن عمر: (ولم يُعنّف النبي ﷺ واحداً منهم).

وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية القول في كتابه "رفع الملام عن الأئمّة الأعلام" فلا يجوز للأمّة أنْ تُوجد أحزاباً وجماعةً بناءً على اختلافها في مسائل ظنيّة.

ثالثاً: فقه التزكية

قدّم البيانُ الإلهيُ التزكيةَ على العلم لأنّ التربية الأخلاقيّة هي المِلاطُ الذي يمسكُ بِلَبِناتِ الجماعة من التفكّك والتبعثر، والتنظيم بدونها عرضةٌ للانهيار والانشقاق والانفراط. القاعدةُ الأخلاقيّة هي التي عليها تُكسرُ المصائبُ والابتلاءاتُ.
هناك شكوى في الوسط الإسلاميّ من طريقة تعبيرِ أبناء التنظيماتِ الإسلاميّةِ عن نقدهم وآرائهم التي تكاد لا تخلو من كلماتٍ نابيةٍ وبذاءةٍ واضحةٍ في حق المخالف فلا تكاد تُجري معه القليلَ من الحوار إلا وسارع برميك بالإرجاء أو الكفر أو الكذب أو أنّك ترمي بالشُّبَه، وظاهرة التطاول على علماء الأمّة صارت أمراً مستمراً، فهل يا ترى غلبت علينا التربية الحزبيّة وجفّت فينا التربية الأخلاقيّة؟
وهذا ملاحَظٌ حتى في المناهج التي تدرَّسُ عند الحركات الإسلاميّة، فلقد اطّلَعْتُ على كتاب لم يَكشف المؤلفُ عن نفسه أحصى فيه مثالب التيارات الإسلاميّة المخالفة له وتقرّبَ إلى الله في النيل من علماء الأمّة بأبشع الكلمات، لذلك كان لابُدّ أن تبدأ التربية من حيث بدأ رسول الله ﷺ وأن يُعيدَ قادةُ العمل الإسلاميّ النظرَ في طريقة إعداد أفرادهم قبل أنْ يستفحِلَ الخطرُ.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الجمعة:2

من كلام الشيخ محمد أحمد الأنصاري (أستاذ الإسلاميّات بجامعة بهاولبور – باكستان):
إنّ اليهودَ والنصارى غَزوا أرضنا، وإبليسَ وجنوده غزوا قلوبنا، واللهُ لا يُعيدُ لهذهِ الأمّة أرضها حتى تعود الأمّة بقلبها لربها، فما دامت القلوب بحبّ الدنيا مُعْتَلّة، فما تزال الأرضُ مُحْتلّة، لأنّ جميع الموازين مُخْتلّة.
* فمن بدأ بعدوّ القلب قبل الأرض تربّى على أربعٍ قبل أربع، فتنشأ فيه أربع:
-تربّى على الرحمة قبل الغضب (فيضبطه)

-تربّـى على الحب في الله قبل البغض في الله (فيضبطه)
-تربّـى على الذلة على المؤمنين قبل العزة على الكافرين (فيضبطه)
-تربّـى على الولاء قبل البراء (فيضبطه).
مِن أكثر ما يُضرُّ بالجهاد مَن لا يُفرّق بين الولاء والبراء وبين استعداء الأعداء:
الأول دين، والثاني سياسة، فتنشئ فيه **أربع** هُنّ صواريخ القلوب ومغذياتُ الدين:
1-يَعفو عمّن ظلمه
2-يُعطي من حرمه
3-يَصِلُ من قطعه
4-يُحسن إلى من أساءَ إليه.
فيمشي في الناس داعياً لا قاضياً، يُضحّي بمُراده من الناس لمراد الله منهم (وهي الهداية) فيهدي به الله من شاء من عباده.
* ومن بدأ بعدوّ الأرض قبل القلب تربّـى على أربعٍ قبل أربع، فتنشأ فيه أربعٌ:
-تربّـى على الغضب قبل الرحمة (فيمنعها)
-تربّـى على البغض في الله قبل الحب في الله (فيمنعها)
-تربّـى على العزة على الكافرين قبل الذلة على المؤمنين (فيمنعها)
- تربّـى على البراء قبل الولاء (فيمنعها)
فتنشئ فيه أربع:
1-التفسيق 2-التبديع 3-التكفير 4-التفجير
فيمشي في الناس قاضياً لا داعياً (كأنَّـه إله) يُضلُّ به الشيطان أكثر مما يريد هو إصلاحه، وأفسد من حيث أراد أن يُصلح.
السُّبَابُ والشتائِمُ التي تنهال في تعابير المتديِّنين عندما يردُّون على المخالفين لهم دليلٌ على وجود الحلقة المفقودة في بناء الإنسان الربّـانيّ، ألا وهي التزكية التي قدّمها البيان القرآني على العلم، تسمع كلاماً لبعض من ينتسبون للدّعوة والعلم فتترحم على الحطيئة، والمسلمون في تضييع هذا الجانب بين طرفي نقيض، بين مشوِّه له بالدّخائل والبدع، وبين مُقزّم له بالإهمال، وقد عبر عن ذلك أحد العلماء بقوله: أسِفْتُ كما أسِفَ غيري لصنفين من الناس:
أ-صنفٌ تلمِسُ في قلبه عاطفةً حارّة، ورغبةً في الله عميقة، وحبَّـاً لرسوله بادياً، ومع ذلك تجده ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسّنة، يعلم منها قليلاً ويجهل منها كثيراً، ويُغريْه بالتعصُّبِ للقليل الذي يَعْلَمُهُ أنَّـه يأنس من نفسه صدق الوجهة، وقوّة محبة لله ورسوله ربما افتقدها في غيره فلم يشعر بها.
ب-وصِنفٌ تلمِس في عقله ذكاءً، وفي علمه سعة، وفي قوله بلاغة، يعرف الصّواب في أغلب الأحكام الشرعية، ويؤدي العبادات المطلوبة منه أداءً لا بأس

به، ولكنه بارد الأنفاس، بادي الجفوة، غليظ القلب، يكاد يتمنى العثار لغيره، كي يُندِّد بأغلاطه، ويستعلي هو بما أوتي من إدراكٍ للحقّ، وبصرٍ بمواضعِه من كتابٍ وسنةٍ.

الوهن والغُثائيّة

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:
"يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها" قال: قلنا يا رسول الله: أمِنْ قِلّة بنا يومئذٍ؟ قال: "أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع الله المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن" قال: قلنا وما الوهن؟ قال: "حب الحياة وكراهية الموت". أخرجه أبو داوود وأحمد بإسناد حسن.

-مرحلة الغثائية هي المرحلة التي يتضخم فيها الكمّ على حسابِ النّوع، لذلك المشكلة لا تكمن في نقصِ العددِ أو الموارد، بل في هشاشة المضمون الأخلاقيّ والعَقديّ والإيمانيّ عند الأفراد، ولن يجدي عند ذلك توحدها لأنّ اللبِنة الهشّة عندما تتجمّع لن تشكل أكثر من جدارٍ هشٍّ.

وحالة الوحدة تحمي اللبِنة ذات الوجوه السِّتة من أربع جوانب وتبقى مكشوفةً من وجهين، وجهٍ يحمي الظهر ووجهٍ يواجه الخطر مع البنيان المرصوص.

وجه الشبه بين الأمّة وغثاء السيل:

الأمّة اليوم لا مضمون لها، وغثاء السيل كذلك فقاعات لا مضمون لها.

الأمّة اليوم لا اتجاه لها، وغثاء السيل يمضي مع السيل بدون اتجاه.

الأمّة اليوم لا وزن لها، وغثاء السيل يطفو على الماء لا وزن له.

الأمّة اليوم مجموعة غير متجانسة من المناهج، وغثاء السيل عناصرُ غيرُ متجانسةٍ من المهملات.

الأمّة اليوم مسيّرة من أعدائها، وغثاء السيل يسيِّره السّيل.

من سمات الحالة الغثائية للأمّة:

1-تعدد الرايات والأعلام وضياع الغايات
2-ضخامة الأعداد وضآلة الإعداد
3-التشدد في الأمنيّات والتفلت في الإيمانيات
4-إصدار الاستعراضات وغياب المخططات

5-غياب القيادة وتقليد الرويبضة
6-الاختلاف على المفقود وتضيع الموجود
7-استفتاء الرؤوس الجُهّال والحجر على العلماء

خامساً: فقه الواقع

الفتاوى المضطربة والمواقف السياسية المرتجلة ناشئة عن نقص أو تضخيمٍ في المعلومات، لذلك كان فقه الواقع والمناط أحد أهمّ أركان الفتوى الصحيحة.
الغرب اليوم يُسَخِّرُ مراكز الأبحاثِ والدراسات وأجهزة الاستخبارات لفهم الواقع ونحن لا نزال نعتمدُ على انطباع الفقيه وإلهام السياسي!
من مشاكل الجماعات الإسلاميّة: اشتداد النكير على بعضهم في واقع لم يعايشوه، فيحكمون على إخوانهم من خلال واقعهم هم لا من خلال الواقع الذي يعيشه إخوانهم، لذلك تجد أنّ الدافع للسّلْقِ بالألْسُنِ الحِدادِ هو التنافس المنهجي والتشهير بالأخطاء أكثر منه النصح والإرشاد.
الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، عندما تجمع صورة مشوّهة عن الإسلام بالاستقاء من المنابع المسمّمة، عندها ستعطي وصف الحكم الإسلاميّ لكل المشوهين، لأنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

كيف تنظر الحركات الإسلاميّة إلى واقع الأمّة

الحركات الإسلاميّة غير متفِقةٍ على أمر وهو وصف حال الأمّة.
هل نحن نعيش حالة استعمارية حقيقيّة كاملة؟ أم حالةَ تحرُّرٍ كاملة؟ أم بمنزلة بين المنزلتين؟ أم بحالة أسوء من حالة الاستعمار المباشر؟
لو نتّفق كأمّة أنّنا نعيش بحالة استعماريّة وأنّ هؤلاء الحكام مناديبٌ استعمارية مزايدة في عسفها على أسيادها. فالمفروض أنّ الأحزاب هي جيوب المقاومة التي يجب أن تنفّذ خطة استراتيجية واحدة تستخدم فيها الأيديولوجية المناسبة في كل حالة أو مرحلة، لكن الذي نشاهده هو غياب حقيقي عن الحالة وتصادم بين المشاريع وجرّ الأمّة لصراعات حزبيّة، تنفق الأحزاب من الجهد في إفشال بعضها أضعاف ما تنفقه مع الأنظمة الاستعمارية.

وينقسم المتحزبون إلى قسمين:

- قسم لا يصنفها بالاستعمارية ويدخلها بالخصومة السياسية، فيستدعي الأمّة من باب صندوق الاقتراع ويتعاملُ مع الآخر كخصمٍ سياسي ويتشارك معه

في مشاريع تظهره بمظهر المتواطئ ويتقبل الهزيمة، لكن ما إن يتمكن هذا القسم من الوصول إلا وينقلب الخصوم السياسيون إلى حالة الطوارئ ضباطاً وعسكراً، ويشنّون حرباً عليه ويعزلونه بعد أن يذيقوه الذلّ والهوان. والغريب أن التجربة تتكرّر!

- وآخر يصف الحالة بالاستعمارية أو أكثر، لكن تعامله معها يأخذ جانب التضخيم الحاد، فيتعامل مع معارضيه بالنفي من المشروع والتخوين والتكفير، وعنده تضخيم للنفس وتقزيم للآخر، وقابل للنفخ بسهولة، حتى إن اعتقد أنَّـه تمكّن يتم فرقعته والتخلص منه، والدلائل دول كرتونية قامت تمّ نسفها في أيام، ومع ذلك تتكرر هذه التجربة!

هل نجحت التجربتان في الوصول إلى التمكين الذي تعتقد أنَّـها من خلاله تستطيع الاستقرار وبناء مشروعها؟

نجزم أنَّـه لم تنجح أي من المجموعتين في الاستقرار أو البقاء والاستمرار في المشروع بل عادت خطوات إلى الوراء، لتعود إلى نقطة ما وراء الصفر وهي مثقلة بتبعات الفشل وحالة من النكران ودعوى المظلومية والمؤامرة.

فنحن أمام عدّة تجاربَ فاشلةٍ وتكرارُها هو تكرارُ فشلٍ جديد، إن تجمعت نفس المعطيات ستأتي نفس النتائج، الإدارةُ الفكريةُ الناجحةُ هي القادرةُ على التعاطي مع أقصى حالاتِ الطوارئ، ليس من تسقط أمام أول اختبار!

نحن قريبون جداً من الفكر الجهادي لأنّنا نضعُ الحالةَ بموقعها الاستعماري لا الخلاف السياسي، ولكنّ هذا الاستعمار له وسائل للسيطرة ليس عسكريا فقط بل هي نسيج من القيود مما يجعل الحالة مركبة.

الدولة الإسلاميّـة لم تحقق الانعتاق الاقتصاديّ إلا في خلافة عبد الملك بن مروان حيث استقلت الأمّـة بعُمْلتها الخاصّة.

وهذا يجعلنا نستقرئ حاجتنا للخط السياسيّ لإلهاء الغرب وتحْـيِيْدِه مع استمرار العمل الجهاديّ والعلميّ والدعويّ لبناء كيانٍ قويّ غيرِ قابلٍ للهدم، وهذا يُعيد للأذهان مرحلة صُلْحِ الحديبية، المسلمون يَـبنون دولتهم ويتصلون بدول العالم، وأبو بصير وأبو جندل يوجّهون ضرباتٍ موجعةٍ لقريش بحرب عصابة، كِلا الأمرينِ كان مفيداً ويَـصُبُّ في صالح المشروع، ولكن لا وجه للارتباط الظاهري بينهما.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في أعلام الموقعين: ولا يتمكّنُ المفتي ولا الحاكم من الفتوى إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهمُ الواقعِ والفقهِ فيه، واستنباطُ عِلمِ حقيقةِ ما وقع بالقَرَائِن والأمارات والعلامات حتى يُحيطَ به علما.

والثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فَهْمُ حُكمِ الله ورسوله الذي حَكَمَ به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده وأفرغ وسعه في ذلك لم يُعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، وكما توصّل شاهد يوسف بشقّ القميص من دُبُرٍ إلى معرفة براءته وصدقهِ وكما توصل سليمان عليه السلام بقوله: " ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما" إلى معرفة عين الأم.

عبثٌ في فَهْمِ أحاديث الفتن يستتبعُ جهلاً في فهم الواقع

دأب كثيرٌ من المثقفين وطلابِ العلم على البحث عن تفسيرِ ما يجري لحال الأمّة في أحاديث الفتن، وهذا حالنا، كلما عجزنا عن فهم ما يجري التجأنا إلى أحاديث الملاحم، مع أنّ الإغراق في تحليل أحاديث الفتن وإسقاطها على الواقع للبحث عن تفسيرٍ مقنعٍ لما يحدث، له منعكسات خطيرة خصوصا أنّك عندما تقرأ هذه الأحاديث تجدها متبايِنَة الحال.

مرّة تتحدث عن المسلمين في حالة الوهن والضعف، ومرّة عن حالة من القوة وقيام الخلافة الراشدة، ومرّة عن غُرْبة الإسلام وكثرة الفتن وتكالُبِ الأمم، ومرّة عن فتح روميّة وبُلوغِ الدين ما بلغ الليلُ والنهارُ، مما يدلّ على أنّ هذه الأحاديث تبين أنّ الإسلام والمسلمين يسيرون في خط بيانيّ متعرِّجٍ، تارةً يكون مساره إلى الأعلى وتارةً يكون مسارُهُ إلى الأسفل، وليس كما يتصورُ البعض أنّ الاتجاه هو إلى الهاوية بخطّ مستقيمٍ.

وعُمْدة الفهم لأحاديث الفتن: حديث حذيفة في الصحيحين عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عنِ الخيرِ وكنتُ أَسألهُ عنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أن يُدْرِكَنِي، فقلتُ: يا رسول اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وشرٍّ فجاءنَا اللَّهُ بهذا الخيرِ فهل بعدَ هذا الخيرِ من شرٍّ، قالَ: نعم، قلتُ: وهل بعد ذلك الشَّرِّ من خيرٍ، قالَ: نعم وفيهِ دَخَنٌ، قلتُ: وما دَخَنُهُ، قالَ: قومٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعرفُ منهم وتنكِرُ، قلتُ: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ، قال: نعم، دعاةٌ إلى أبوابِ جهنم من أجابهُم إليها قذفوهُ فيها، قلت: يا رسول اللَّهِ صفهُم لنا، فقال: هم من جلدتِنا ويتكلَّمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، قال: تلزمُ جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمامٌ، قال: فاعْتَزِلْ تلك الفرقَ كُلَّهَا ولو أن تَعَضَّ بِأَصْلِ شجرةٍ حتَّى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنتَ على ذلكَ "

ففي الحديث بيان حقيقة أنّ المسلمين يمرُّون في تاريخهم في مراحل إدبار تتلوها مراحل إقبال وبالعكس، وهذا كله وِفقَ سُنَنٍ ثابتةٍ لا تجامل ولا تنخرِمُ، وليست القضيّـةُ حظوظاً عمياءَ وخبطَ عشواء وبالقفز على الأسباب والسُّـنن والمُغالبة.

من فقه الواقع معرفةُ الخصوم وقدراتهم قبل المواجهة

قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأنعام:55

شأنٌ عجيب! أنَّـه يكشف عن خطةِ المنهجِ القرآنيّ في العقيدة والحركة بهذه العقيدة!
إنّ هذا المنهج لا يعني ببيانِ الحقّ وإظهارِه لتستبين سبيلُ المؤمنين الصالحين فحسب، إنّـما يعني كذلك ببيانِ الباطلِ وكشفِه حتى تستبينَ سبيلُ الضالين المجرمين أيضاً.
إنّ استبانةَ سبيلِ المجرمين ضروريّة لاستبانةِ سبيلِ المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق.
إنّ هذا المنهج هو المنهج الذي قرّرَه الله - سبحانه - ليتعامل مع النفوس البشرية، ذلك أنّ اللهَ سبحانه يعلم أنّ إنشاء اليقين الاعتقاديّ بالحقّ والخير يقتضي رؤيةَ الجانبِ المضادّ من الباطل والشرّ، والتأكيد من أنّ هذا باطل محض وشرٌّ خالص، وأنّ ذلك حقّ محضٌ وخيرٌ خالص، كما أنّ قوة الاندفاع بالحقّ لا تَـنشأُ فقط من شعور صاحب الحق أنَّـه على الحق، ولكن كذلك من شعوره بأنّ الذي يُحادُّهُ ويُحارِبُه إنّـما هو على الباطل، وأنَّـه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنَّـه جعل لكلّ نبيٍّ عدواً منهم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الفرقان:31، ليستقرّ في نفس النبيِّ ﷺ ونفوس المؤمنين أنّ الذين يعادونهم إنّـما هُمُ المجرمون عن ثقةٍ وفي وضوحٍ وعن يقينٍ.
إنّ سُفورَ الكُفرِ والشرِّ والإجرام ضروريٌّ لوضوحِ الإيمان والخيرِ والصلاح، واستبانةُ سبيلِ المجرمينَ هدفٌ مِن أهدافِ التفصيلِ الربّـانيّ للآيات ذلك أنّ أيّ غبشٍ أو شُبْـهةٍ في موقفِ المجرمين وفي سبيلهم ترتدُّ غَـبَشاً وشُبْـهةً في موقف المؤمنين وفي سبيلهم، فَـهُما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقان، ولا بد من وضوح الألوان والخطوط.
ومن هنا يجب أن تبدأ كلّ حركة إسلاميّـة بتحديدِ سبيلِ المؤمنين وسبيلِ المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريفِ سبيلِ المؤمنين وتعريفِ سبيلِ المجرمين، ووضع العنوان المُميّز للمؤمنين والعنوان المميز للمجرمين في عالمِ الواقعِ لا في عالمِ النظريات، فيعرف أصحاب الدعوة الإسلاميّة والحركة الإسلاميّة مَن هم المؤمنون مِمّن حولهم ومن هم المجرمون، بعد تحديد سبيلِ المؤمنين ومنهجِهم

وعلامتِهم وتحديدِ سبيلِ المجرمين ومنهجهم وعلامتهم، بحيث لا يختلطُ السبيلان ولا يتشابه العنوان، ولا تلتبس الملامح والسِّماتُ بين المؤمنين والمجرمين،
فكان من أساليبهم في محاربة الحق:

1-الادعاء بأنّ دعوة الحق تتسبّبُ بتخَلْخُلِ أمن المجتمع:

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القصص:57.

2-ومنها اتِّهام أهل الإيمان بتبديل الحقائق وتحريفِ الدين ونشر الفساد في الأرض:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ غافر:26

3-ومن أساليبهم اتهام أهلِ الحق أنهم يبتغون من دعوتهم صرف وجوه الناس إليهم وكسب الجاه الدنيويّ والتّفَضُّلَ على غيرهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ المؤمنون:24

4-والاستهزاء بأهل الحق بالضحكِ والهَمْزِ واللّمْزِ من دَأْبِ المجرمين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ *﴾ المطففين:29-32.

5-والإعدامات الجماعية من وسائلهم القذرة:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج:4-8.

6-تفريق أهل الحق وتضخيم الخلاف بينهم وجعلهم أحزاباً متخاصّمةً من وسائل أهل الباطل:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص:4.

7-الطّعْنُ والتشويه في الأئمّة الحاملين للدّعوة لإسقاط دعوة الحق شَنْشَنَةُ أهل الباطل: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ الشعراء:27.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ الذاريات:52-53.

8-الدخول في الدعوة ثم الانشقاق عنها لتشكيكِ الأتباع فيها من وسائل أهل الباطل:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ آل عمران:72.

9-الطعن في أتباع الدعوة لإسقاط الدعوة من وسائل المبطلين:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هود:27

10-إيذاء أهل الحق في أولادهم ونسائهم من وسائل أهل الباطل في ثَنْيِ أهل الحق والضغط عليهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ غافر:25

11-فرض الإقامة الجبريّة ومنع الزيارات والمقاطعةُ من سياسة الباطل في الصدِّ عن الحق: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الحجر:69-70

عن قتادة، قوله (أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال: ألم ننهك أن تضيف أحدا؟

12-الاعتقال التعسفيّ لحجب الدعوة من وسائل أهل الباطل في الصّد عن الحق:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال:30 الإثبات هنا السَّجْن.

13-التهْجيرُ القسريّ والنفيُ من الوطن بحججٍ مُضحكة:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخرِجُوا آلَ لُوطٍ مِن قَرْيَتِكُمْ ۖ أَنهم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ النمل:56

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا أَو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ إبراهيم:13.

14-الاتّـهام بالعمالة للخارج من وسائل أهل الباطل في الصّدِّ عن الحق:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَه عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ الفرقان:4

15-وتنفيذ الاغتيالات السريّة وسيلة قديمة جديدة:

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ النمل:49

16-من وسائل أهل الباطل في محاربة الحق كفُّ أتباعهم عن الاستماع لصوت الحق والتشويش عليه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (26) فصلت.

فقه الواقع وعقدة الاختصاص

كلٌّ يفسر المشاكل بعقدة اختصاصه:

الاقتصاديّون يُصوّرون صِراعَ البشرِ صراعاً طَـبَـقِيّـاً

والمؤرِّخون يُصَوِّرونه استجراراً لمشاكل التاريخ إلى الحاضر

والمُـتديِّنون يُشخِّـصونه على أنَّـه صراعُ أديان

والسياسيّون يُفسِّرونه صراعاً على المُلك

وفرويد يرى أنَّـها الغريزة الجنسية

والجاهلون يَضِيعون بين هؤلاء

وجذرُ المشكلةِ غيابُ الشخصيات الموسوعيّة المتوازنة في معرفتها والمحيطة بزوايا النظر إلى الحقيقة المتطابقة بين التصوُّر الكامل والصورة الواقعيّة الكاملة، فكثيراً ما تكون الأزمة مركّبةً من مزيجِ أزمات وليست أحادية المنشأ والتركيب، يغيب إدراكها عن العقلية الاختصاصية لأنَّـها تنظر بعين واحدة.

سادساً ـ فقه الأولويّـات

إنّ آفة كثيرٍ من حركاتِ الصّحوة الإسلاميّـة هي غيابُ فقه الأولويّـات عنها، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيّات قبل الكلّـيّات، وبالمختَـلَف فيه قبل المتَّفق عليه، وتسأل عن دمِ البعوض، ودمُ الحسين مُهَرَاقٌ، وتثير معركةً من

أجل نافلةٍ، وقد ضَيّـعَ الناسُ الفرائضَ، أو من أجل شكلٍ أو هيئةٍ، دون اعتبارٍ للمضمون.

وأما **(فقه الأولويّات)** فنعني به وضع كل شيء في مرتبته، فلا يُؤخَّر ما حقه التقديمُ، أو يُقدّم ما حقّه التأخيرُ، ولا يُصَغَّرُ الأمر الكبيرُ، ولا يُكَبَّر الأمر الصّغيرُ.

هذا ما تقضي به قوانين الكون، وما تأمر به أحكام الشرع، أعني أنّ خَلقَ اللهِ تعالى وأمرَهُ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ كلاهما يُوجِبان رعاية هذا الترتيب.

السيرة النبوية وفقه الأولويّات

في العهد المكّي كانت مهمّة النبي ﷺ محصورةً في الدعوة إلى الله وتربيةَ الجيلِ المؤمن الذي يحمل هذه الدعوة بعد ذلك إلى العرب، ثم ينطلق بها إلى العالم كله، وكان تركيزه على أصولِ العقيدة، وترسيخِ التوحيد، وعبادةِ الله وحده، ونبذِ الشرك واجتنابِ الطاغوت، والتحلّي بالفضائل ومكارمِ الأخلاق، وكان القرآن الكريم في تلك المرحلة يُزكّي هذا الاتجاه، فلم يشغل المسلمون في هذه الآونةِ بالمسائل الجزئية، ولا بالأحكام الفرعية، بل بِبُنْيانِ الإنسان الذي تحدثّت عنه سورة العصر:

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ العصر:1-3

لم يُشْرَع للمسلمين أن يحملوا فُؤوسَهم على الأصنام وهم يرونها كل يومٍ حول الكعبة، ولم يُؤذَن لهم أنْ يُشهِروا سُيُوفهم دفاعاً عن أنفسهم، ومقاومة العدوالذي يسومهم العذاب بل كان يقول لهم ما ذكره القرآن أنْ ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ النساء:77 وإنْ كانوا يأتون إلى رسولهم ﷺ ما بين مشجوج ومجروح.

ارتباط الأولويّات بفقه الموازنات

إنّ فِقهَ الأولويّات مرتبطٌ بفقه الموازنات، وفي بعض المجالات يتداخلان أو يتلازمان، فقد تنتهي الموازنة إلى أولويّة مُعيّنة، فهنا تدخل في فقه الأولويّات.

وجوب مراعاة النِّسَبِ بين التكاليف الشرعية:

إنّ الإخلال بالنِّسَبِ التي وضعها الإسلام للتكاليف الشرعيّة يُحدِث ضرراً بليغاً بالدين والحياة. إنّ العقيدة في الإسلام مقدّمةٌ على العمل، لأنَّـها الأساس، والأعمال هي البناء ولا بقاء بغير أساس، وبعد العقيدةِ تأتي الأعمال وهي متفاوتة تفاوُتاً بعيداً، وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً:

(الإيمان بضعٌ و سبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبةٌ من الإيمان) والقرآن يبيّن لنا أنّ الأعمال تتفاضل عند الله، وليست في درجة واحدة، يقول تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ التوبة: 19، 20

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج، بل ذكر فقهاء الحنابلة وغيرهم أنّ الجهاد أفضل ما يتطوع به من أعمال البدن.

وفي فضل الجهاد جاءت أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو هريرة، قال: "مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عُيَيْنَةٌ من ماء عذبة فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله فقال: لا تفعل، فإنّ مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عامـاً".

وفي فضل الرباط جاء حديث سلمان مرفوعاً: "رِباطُ يومٍ وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وآمن من الفتان" رواه مسلم.

وهذا ما جعل إماماً مثل عبد الله بن مبارك وهو في أرض الرّباط يكتب إلى صديقه الفُضَيل بن عياض الزاهد العابد، وهو ينتقل بين الحرمين مكة والمدينة متعبداً:

يا عابِدَ الحَرَمَيْن لو أبْصَـرتَـنا ... لعلمت أنّـك بالعبادة تلعبُ
من كان يَخْضُبُ خـدُّهُ بِدُمُـوعِهِ ... فنُحورُنا بِدِمائِنا تَتَخَضَّبُ

*ومن المقرر فقهاً: أنّ النافِلة لا يجوز تقديمها على الفريضة، وأنّ فرضَ العَينِ مُقدّمٌ على فرض الكفاية، وأنّ فرض الكفاية الذي لم يقم به أحد أو عدد يكفي مُقدّمٌ

على فرض الكفاية الذي قام به من يكفي ويَسُدُّ الثغرة، وأنّ فرض العين المُتَعَلِّقَ بالجماعة والأمّـة مُقدَّمٌ على فرضِ العين المتعلق بحقوق الأفراد، وأنّ الواجبَ المُحدَّدَ الوقتِ والذي جاء وقته بالفعل مُقدَّمٌ على الواجب المُوسّعِ في وقته. ومن المقرر كذلك أنّ المصالح المقرّرَة شرعاً متفاوتة فيما بينها، فالمصالح الضرورية مقدمة على الحاجيّة والتحسينيّة، والمصالح الحاجيّة مُقدَّمَةٌ على التحسينية، والمصالح المُتعلقة بمصالح الأمّـة وحاجاتها أولى بالرعاية من المصالح المتعلقة بالأفراد عند التعارض، وهنا نجد فِقهَ الموازنات يلتقي بفقه الأولويّـات.

غياب فقه الأولويّـات عند كثير من المسلمين

إنّ آفة كثيرٍ من فصائل الصحوة الإسلاميّـة هي غيابُ فقهِ الأولويّـات عنها، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيات قبل الكليات، وبالمختلف فيه قبل المتفق عليه، وتسأل عن دم البعوض، ودم الحسين مهراق، وتثير معركة من أجل نافِلة، وقد ضيع الناس الفرائض، أو من أجل شكل أو هيئة، دون اعتبار للمضمون. وهذا هو الحال عند عموم المسلمين، أرى الملايين يعتمرون تطوّعاً كل عام في رمضان وغيره، ومنهم من يحجّ للمرّة العاشرة أو العشرين، ولو جمع ما ينفقه هؤلاء في هذه النوافل لبلغ آلاف الملايين، ونحن نلهث من عدة سنوات لتجميع ألف مليون دولار للهيئة الخيرية الإسلاميّـة, فلم نحصل على عشر المبلغ ولا نصف عُشره , ولا ثلثه، ولو قلت لهؤلاء المتطوعين بالعمرّة أو الحج: ادفعوا ما تنفقونه في رحلتكم التطوعية لمقاومة التنصير أو الشيوعية في آسيا وإفريقيا أو المجاعات هنا وهناك، ما استجابوا لك، وهذه آفة قديمة شكا منها أطبّاء القلوب.

وإنّ من فقه الأولويّـات: أن نعرف أي القضايا أولى بالاهتمام فتعطى من الجهد والوقت أكثر مما يُعطى غيرها.

ومن فقه الأولويّـات أن يُعرَف:

أيُّ الأعداء أولى بتوجيه قِوانا الضاربة إليه، وتركيز الهجوم عليه، وأيّ المعارك أولى بالبدء، فالناس في نظر الإسلام أنواع: هناك المسلمون، وهناك الكفار، وهناك المنافقون. والمسلمون منهم الجَهَلَة، ومنهم الخَوَنة، والكفار منهم المسالمون، ومنهم المحاربون، ومنهم الذين كفروا فقط، ومنهم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، والمنافقون منهم ذوو النفاق الأصغر، ومنهم أهل النفاق الأكبر، فبمن نبدأ؟ وأيُّ الجهات أولى بالعمل؟ وأيُّ الأمور أولى بالرعاية؟

ومن فقه الأولويّـات: أن نعرف واجبَ الوقت، فنقدمه على غيره ونعطيه حقه، ولا نؤخِّره فنُفَوِّتَ فرصةً قد لا تُعوَّض إلا بعد زمن طويل، وقد لا تعوّض يوماً. والشاعر الراجز يقول:

وانْـتَـهِزِ الفُرْصَـةَ إنَّ الفُرْصَـة تَصِـيْرُ إنْ لَمْ تَـنْـتَـهِزْها غَـصَّـة

ومن حكمنا المأثورة: لا تؤخر عمل اليوم إلى غد.

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز يوماً: أَخِّرْ عَمَلَ هذا اليوم، وقم به غداً، فقال: لقد أَعْـياني عملُ يومٍ واحدٍ، فكيف إذا اجتمع عَـلَـيّ عَمَلُ يومين؟

ومن حكم عطاء: حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوقٌ لا يُمكن قضاؤها، إذْ ما من وقتٍ يَرِدُ إلا ولله فيهِ حقٌّ جديد، وعملٌ أكيد.

الإمام الغزاليّ وفقه الأولويّـات

وقد أنـكر الإمام الغزاليّ في (الإحياء) على بعضِ فِرَقِ المغرورين بالعبادة دون مراعاةٍ لمراتب الأعمال، فقال:

(وفِرْقَةٌ أخرى حرَصَت على النوافل ولم يَعْـظُمِ اعتدادها بالفرائض، نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: (ما تقرّب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم)، وتركُ الترتيب بين الخيرات من جُملة الشرور، بل قد يَتعَـيَّنُ في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيْقُ وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً.

ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصى، فإنّ المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنّـما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية, وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهمّ من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبرُّ يا رسول الله؟ قال: (أمَّك) قال: ثم من؟ قال: (أمَّك) قال: ثم من؟ قال: (أمَّك) قال: ثم من؟ قال: (أباك)، قال ثم من؟ قال: (أدناك فأدناك)

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع. وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدّم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض الأهمّ على فرض هو دونه. وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد (حينئذٍ) معصية، وإنْ كان هو طاعةً في نفسه. وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهمّ من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور.

تحقيق الإمام ابن القيم في أيّ العبادات أفضل

ويَذكُرُ المحقق ابن القيم الأقوال في أي العبادات أفضل: هل الأفضل منها: الأشقُّ؟ أو الأفضل: المتعدِّيةُ النَّفعِ؟

ثم رجَّحَ أنَّه لا يوجد فضل بإطلاق، وإنّما لكل وقت عبادة تكون هي الأفضل بالنسبة له، فعند المجاعات يكون إطعام الطعام أفضل ما يُتَقرَّبُ به إلى الله، وعندما يغزو الكفار بلداً مسلما يكون الجهاد أفضل الأعمال، وإمداد المجاهدين بالسلاح والمال من أعظم القُرُبات، وعندما يموت العلماء، ولا يوجد من يخلفهم، يكون طلب العلم والتَّبَحُّرُ فيه من أجلِّ ما يُؤجر عليه المسلم، ويُحمد به عند الله وعند المؤمنين، وهكذا يكون التفاضل بين الأعمال.

ما ينبغي التركيز والبدء به

ولكنّ الذي ينْبَغي أن تُركّز عليه الحركة هنا عدة أمور لها أهمّيتها الخاصّة في المرحلة القادمة في ضوء (فقه الأولويّات) المشار إليه.

- التركيز على مفاهيمَ معينة يجب تجْلِيَتُها وتعميمُها وتعميقُها في المجال الفكريّ، وهو ما أسميناه (الفقه الجديد).

- التركيز على شرائح اجتماعية معيّنة يجب أن تمتدّ إليها الحركة، وتشملها الصحوة وذلك في المجال الدعوي.

التركيز على مستوى كيفيٍّ معيَّنٍ من إعداد القيادات المرجوّة للمستقبل، ولاسِيَّما الإعداد الإيماني والفكري، وذلك في المجال التربوي.

- التركيز على تطوير الأفكار والممارسات فيما يتصل بالعلاقات السياسية المحلية والعالمية خروجاً من التقوقع الداخلي، والحصار الخارجي، وتحقيقاً لعالمية الحركة ومرونتها، وذلك في المجال السياسي.

من فقه الأولويّات

1-أولويّة الكيف على الكم

2-أولويّة العلم على العمل (بَوَّبَ الإمام البخاريُّ باباً في صحيحه سمّاه: بابُ العلمِ قبلَ القولِ والعمل)

3-أولويّة الفهم والفقه على الحفظ (رُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامعٍ)

4-أولويّة المقاصد على الظواهر (مقاصد الشريعة من حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال)

5-أولويّة الاجتهاد على التقليد) خصوصاً في مرحلة النوازل والمستجدات لا يمكن أن يفتى بها بفقه الاستقرار)

6-أولويّـة التخفيفِ والتيسير على التّشديد والتعسير
7-أولويّـة ما لا يتَّسِعُ لهُ الوقتُ على ما يتّسعُ لهُ الوقتُ (الحجّ يتسعُ له الوقت بينما ردُّ الصَّائلِ لا يتسعُ له الوقت)
8-أولويّـة ما يَـعُمُّ ويشمل نفعه على ما يخصُّ نفعه (العبادات الاجتماعيّـة تُـقدَّمُ على العبادات الشخصية)
9-أولويّـة الفرائضِ على النوافلِ وأولويّـةِ فروضِ الأعيانِ على فروض الكفايات (لا يقبلُ الله تعالى نَافلةً حتى تؤدّى الفريضة)
10-أولويّـة حقوق العباد على حق الله المجرّد، وأولويّـة حق الجماعة على حق الفرد (حقوق الله تعالى مبنيّـة على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المُشاحَـحَة)
11-أولويّـة جهاد العدوِّ القريب الصَّائلِ على غيره قال تعالى: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) التوبة

سابعاً: فقه المآلات:

ويُؤصِّلُ الإمامُ الشاطبيّ لهذا الفقه فيقول: النظر في مآلات الأفعال مقصودٌ شرعًا؛ وذلك أنّ المجتهدَ لا يحكمُ على فِعلٍ من الأفعال الصادرةِ عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعًا لمصلحةٍ فيه تُـسْتجْلَبُ، أو لمفسدةٍ فيه تُـدْرأ، ولكن له مآلٌ على خلاف ما قُصِدَ فيه، وقد يكون غيرَ مشروع لمفسدةٍ تنشأ عنه أو مصلحةٍ تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أُطلق القول في الأول بالمشروعيّة فربما أدّى استجلابُ المصلحة فيه إلى مفسدةٍ تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أُطْلِقَ القول في الثاني بعدم المشروعية فربما أدّى استدفاعِ المفسدة بمفسدةٍ تساوي أو تزيد، فلا يَـصْلُحُ إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجالٌ للمجتهد صعب المورد إلا أنَّـه عذب المذاق محمود العاقبة، جارٍ على مقاصد الشريعة.

تأصيل فقه المآلات من القرآن الكريم والسنة النبوية:

أولاً: من القرآن الكريم:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام:108

يقول ابن العربي: اتفق العلماء على أن معنى الآية: لا تسبُّوا آلهةَ الكفار فيسبُّوا الله

سبحانه وتعالى، وهذا نَهْيٌ عن سبِّ آلهة المشركين، ولو كان ذلك السبُّ على سبيل الغيظ منها والإهانة لها والحَمِيَّةِ لله عزّ وجلّ، ولأنَّـه في الوقت نفسه يؤدي إلى سبّ الكفار لله عز وجل، ولذلك ورد النهي عنه.

وكذلك آياتُ سورة الكهف وقصة سيدنا موسى مع العبد الصالح، حيث إنّ أفعال العبد الصالح كلها عُـلِّـلَتْ بغايات مآلية: خرق السفينة ﴿قَالَ أَخرقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ الكهف:71 فـعَلَّـل: ﴿أَما السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وكَانَ وراءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الكهف:79

وكذلك في مسألة قتل الغلام وعمليّة بناءِ الجدار

يقول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهم يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

قال العلماء: هذه الآية أصلٌ من أصول إثبات سد الذرائع -التي عمل بها كل الأئمة وتوسع فيها مالك وتابعه أحمد في بعض رواياته- وهو كلّ عملٍ ظاهِرُهُ الجوازُ يُتَوَصَّلُ به إلى محظور، كما فعل اليهود حين حُرّم عليهم صيد السبت، فسكروا الأنـهار وربطوا الحيتان فيه إلى يوم الأحد، والشواهد من القرآن الكريم في هذا الموضوع كثيرة لا يتسع المجال لاستيفائها.

ثانيا: من السُّنة النبوية:

وفي السنة النبويّة تطبيقات هادية في هذا الباب:

فقد أمتنع النبي ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه بهم وعلمه باستحقاقهم القتل، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ، قَالَ: " وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ " البخاري ومسلم واللفظ له، - وتخلي النبي ﷺ عن إعادة بناء المسجد الحرام على قواعد إبراهيم حتى لا يثير بلبلة بين العرب، وكثيرٌ منهم حديثو عهدٍ بالإسلام، وقال مخاطبًا عائشة رضي الله عنها: "أَلَمْ تَرَي أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوُا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ

إِبْرَاهِيم؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلاَ تَرُدُّهَا على قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيم؟ فقال رسول الله: لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفرِ لَفَعَلْتُ" رواه مسلم

وفي رواية أخرى "لَوْلا حَدَاثَةُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْبَيْتَ، ثُمَّ لَبَنَيْتُهُ على أساس إِبْرَاهِيم" رواه البخاري

والشاهد أنّ النبي ﷺ ترك ذلك الفعل مع ما فيه من المصلحة الظاهرة خشية أن يؤول الأمر إلى ما فيه مفسدة، ودرء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح كما هو مقرر عند أهل العلم.

الأسس الثلاثة لفقه المآلات:

1-استقراء الجزئيّات لصياغة الكليات

2-فقه سنن القرآن في الأنفس والمجتمعات والحضارات قياما وسقوطاً.

3-الاعتماد على آليات النظر الاستراتيجيّ المعتمد في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية المعاصرة.

أما الأساس الأول: فهو يعتمد على قراءة متأنّية وعميقة للأحداث التي شكلت المواقف السياسية والأنماط الاجتماعيّة والثقافيّة للمجتمع الذي نعيش فيه. وقد أثبتت الدراسات الاجتماعيّة أنّ المجتمع يتكون من أنماط ثقافية وعرفية إلزامية وأخرى غير إلزامية، بل إنّ الأعرافَ الإلزاميةَ هي التي تُحْدِث التغيير الاجتماعيّ وليس العكس، وأنَّها قوة اجتماعيّة من الصعب جدًّا تغييرها بعد استحكامها في المجتمع.

ولذلك فالداعية في حاجةٍ إلى استقراء جزئيات الواقع وتحديد العوامل التي تؤثر في مساره كما يحدّدُ عالمُ الاجتماع الأنماطَ السلوكيةَ للمجتمع. وإذا كان علم الاجتماع قد حدد عناصر الثقافة في ثلاثة عناصر: اللغةِ والعاداتِ والقيمِ، فإنّ الداعية المسلم في حاجة إلى الارتقاء إلى المستوى الحضاري في تحديد الإطار العام لعناصر الثقافة، وهو الإطار الحضاري الإسلاميّ الذي يجعل من الدينِ الوحدة الأساسية لتحليل الأحداث الجزئيّة والكلية، أو على حدّ تعبير مالك بن نبي "استخدام الفكرة الدينية لتفعيل عناصر الحضارة، وهي الإنسان والتراب والزمن".

والأساس الثاني من أسس فقه المآلات هو فقه السنن الكونية والحضارية التي تضمنها القرآن وهو يفسرُ لنا قيامَ وسقوطَ الأممِ والحضارات، فلقد زَخِرَ القرآن الكريم بجملة من سنن قيام وسقوط الحضارات كثيرًا ما نغفل عنها.

وأمّا الأساس الثالث: فهو دعوة للاستفادة من آليات الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية التي تستخدمها اليومَ الدولُ والمراكزُ الخاصّةُ بذلك، فإنّ معظم الدوائر السياسية والاقتصاديّة تعتمد على مؤشرات تبني عليها خططها التنموية، وترسم

على ضوئها سياستها المالية التي تساعدها على تحقيق التنمية المستدامة وضمان الاستقرار العام.

*** أهمّ تطبيقات فقه المآلات:**

من أمثلة ذلك ما ذكره العلماءُ في حالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث ذكروا أنَّ المرءَ يأمر وينهى في حالة عدم نتوج مفسدةٍ أكبر بسبب هذا الأمر وذلك النهي، وحين يجد الآمرُ والنّاهي أنّ فعله سيؤول إلى مفسدةٍ أعظم، فعليه أن يَكُفَّ عن أمره ونهيه، عندما بال الأعرابيّ في المسجد، وقام الصحابة لزجره ومنعه، قال عليه الصلاة والسلام: (لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ) رواه البخاري ومسلم

فلولا مراعاة المآلات والنتائج لوجب قتل المنافقين وإعادة بناء البيت على قواعد إبراهيم، ومنع الأعرابي من إتمام عمله المنكر الشنيع، ولكن الأول كان سيفضي إلى نفور الناس من الإسلام خشية أن يُقْتلوا بتهمة النفاق، والثاني يؤدّي إلى اعتقاد العرب أنّ النبي ﷺ يهدم المقدسات ويغيّر معالمها، والثالث ليس فيه إلا أن يُنَجِّسَ البائل جسمه وثوبه وربما نجس مواضع أخرى من المسجد، وربما كان هناك ضرر صحي عليه.

وفي صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال: قال عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: (قَسَمَ رسولُ اللهِ ﷺ قسْمًا فقلت: والله يا رَسُولَ اللهِ لَغَيْرُ هَؤُلاءِ كان أَحق بِهِ منهم، قَالَ: أنهم خَيَّرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أو يُبَخِّلُونِي فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ) رواه أحمد ومسلم

يقول ﷺ إنهم سألوني مسألةً لا تصلح؛ فإن أعطيتهم وإلا قالوا: هو بخيل ، فقد خيروني بين أمرين مكرهين لا يتركوني من أحدهما: الفاحشة والتبخيل، والتبخيل أشد، فأدفع الأشد بإعطائهم.

عن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رضي الله عنهما أنَّـه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عام الْفَتْحِ وهو بِمَكَّةَ: "إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأصنام، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأيتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّـها يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بها الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بها النَّاسُ، فَقَالَ: لا، هُوَ حرام، ثُمَّ قال رسول اللهِ ﷺعِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ". رواه البخاري

هذه النصوص وغيرها تدل على أصالة فقه المآلات ومكانته في شريعتنا الإسلاميّـة، وعلاقته الوطيدة ببعض صور الاستدلال، حتى إنّ الشاطبيّ رحمه الله يؤكد أنّ سدّ الذرائع ومراعاة الخلاف يتفرعان من مبدأ (المآلات).

ثامناً: فقه الموازنات

أقسام فقه الموازنات:
يُقسم فقه الموازنات إلى ثلاثة أقسام رئيسة:
1-الموازنة بين المصالح:
المصلحة في الاصطلاح كما عرّفها الغزالي هي: طلب منفَعَةٍ أو دَفعُ مَفسدةٍ، والمحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهي: (الدين، النفس، النسل، العقل، والمال)، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يُفَوِّتُ هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة.
ومن الأدلّة التي استنبط منها العلماء قاعدة الموازنة بين المصالح: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ ماذا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219]. فقدم القرآن الكريم مصلحة الإنفاق على العيال في حال عدم وفرة المال، على مصلحة الإنفاق على الفقير وهو أمر عقلي وفطري يعضده الرأي الشرعي والرأي الاجتماعيّ، وهي العادة الشفوية.
2-الموازنة بين المصالح والمفاسد:
ومن الآيات الدّالّة على الموازنة بين المصالح والمفاسد قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]. ففي قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ دلالة واضحة على الموازنة بين المصالح والمفاسد.
وفي الحياة اليومية تغلب معرفة هذا النوع لكونه مقرّراً في طبائع الأشياء حيث يغلب معرفة المفسدة من المصلحة لكون التقارب بينهما والاشتباه بعيداً.
3-الموازنة بين المفاسد:
ذكر القرآن الكريم قصة الخَضِر عليه السلام حين خَرَقَ السفينة وهي صالحة، فقد أحدث فيها مفسدة، ليدفع بها مفسدة أعظم، ألا وهي غَصْبُ السفينة من قبل الملك، فلولا هذا الخرق أو المفسدة لأخذها الملك، وضاع أهلها الذين يقتاتون بما رزقهم

الله من دخلها، قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 79]، وفي هذه القصة دليل على جواز قصد إحداث مفسدة ما، لدفع أخرى راجحة، ولا يُعدّ ذلك من باب الخيانة للأمـانة أو للأمّـة.

فكيف تكون الحال إذا فَرَضَ الواقع نفسه بضغط من الظروف كالاستعانة بالجيوش غير المسلمة لدفع عدوٍّ صائلٍ، أو توقيع معاهدة سلام مع الأعداء والتنازل فيها عن بعض الحقوق، أو بالضغط من قبل الأعداء لتسليمهم بعض الرعايا المسلمين في ظروف خاصّة حرجة. لا شك أنّ عمل مثل هذه الأمور في مثل هذه الأحوال القاهرة أولى بالجواز، لما سيترتّـب على عدم الاستجابة لهذه الضغوط من مفاسد كبيرة تهدد أحياناً وجود الدولة.

إنّ فقه الموازنة عملٌ دقيقٌ، تكتنفهُ مخاطرُ عدة، لذا فهو يحتاج إلى فقيهٍ فطن وخبير متوازن الشخصية، متمكّنٍ من علوم الشرع، مستبصرٍ بواقعِ الحال، مدركٍ لمآلات الأفعال وآثارها.

يقول ابن تيمية: "باب التعارض باب واسع جداً، خاصّة في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوّة وخلافة النبوّة، فإنّ هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمّـة؛ فإنَّـه إذا اختلطت الحسنات بالسيّئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوامٌ قد ينظرون إلى الحسنات فيرجِّحون هذا الجانب وإن تضمّن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون للسيئات فيرجِّحون الجانب الآخر وإن تَرَكَ حسنات عظيمة، والمتوسّطون الذين ينظرون الأمرين، قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمَضَرّة، أو يتبيَّنُ لهم، فلا يجدون من يعينهم للعمل بالحسنات وترك السيئات لكون الأهواء قارنت الآراء".

وقبل أن نذكر وجوه الترجيح وموجِّهات الموازنة فلا بدّ أن ننبّه هنا إلى أنّ المعيار الصحيح لإدراك المصالح والفاسد هو الكتاب والسنة، وهذا أمر تدركه الفطر السليمة، والعقول الصحيحة، ولذا فالمعتبَر في معرفة المصلحة هو النصّ الشرعيّ، فإنّ الشرع لا يُهْمل مصالح العباد.

ومن المصالح والمفاسد ما يكون الترجيح بينهما بالتقريب، لأنَّـها «لا وقوف على مقاديرها وتحديدها»، وبذلك فهي من موارد الاجتهاد التي يختلف فيها النظر بين المجتهدين، فمن أصاب فَلَهُ أجران ومن أخطأ فَلَهُ أجرٌ واحد.

إلا أنّ المطلوب من الناظر عند الموازنة أن يَسْتوفيَ النظر، غير غافلٍ عن أيِّ وصفٍ مؤثر. يقول ابن تيمية: " الورع المشروع هو أداء الواجب وترك المحرَّم،

وليس هو ترك المحرم فقط، ومن هنا يغلط كثير من الناس فينظرون ما في الفعل من كراهة توجب تركه ولا ينظرون ما فيه من جهة أمر توجب فعله " .
وسبب ذلك أنّ مِن الناس مَن ينظرُ للفساد الموجودِ في الفعل والذي يحمله على تركه، ولا ينظر إلى ما يعارض من المصلحة الراجحة.
والمطلوب من الناظر ألا يَغفلَ عن أيّ وصفٍ للحال أو المآل، ويتحرّى الصواب، مع الاستشارة، فإن الصواب قد يظهر لقومٍ ويغيب عن آخرين، وينبذَ الهوى، فإنّ في اتباعه مضادةً للصواب، ويستعمل الإخلاص وحُسْنَ القصد وسلامة القلب، فإن الموازنة مذلة قوم، ومضلة فهم، وكثيراً ما يقع فيه الاختلاط. (الدكتور هاني بن عبد الله بن محمد الجبير)
حاجتُنا إلى فقه الشرع وفقه الواقع: ونحن في هذا المقام نحتاج إلى مُستوَيَيْن من الفقه:
أوّلُهما: فقهٌ شرعيٌّ يقوم على فهمٍ عميقٍ لنصوص الشرع ومقاصده، حتى يسلم بصحة (مبدأ الموازنات) المذكور، ويعرف الأدلّة عليه، وهي واضحة لمن استقرأ الأحكام والنصوص وغاص في أسرار الشريعة.
فما جاء الشرع إلا لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، برتبها المعروفة: الضرورية والحاجيّة والتحسينيّة.

والآخر: فقه واقعي، مبنيّ على دراسة الواقع المَعايِش دراسةً دقيقةً مُسْتوْعِبةً لكلّ جوانب الموضوع، معتمدةً على أصلح المعلومات وأدقِ البيانات والإحصاءات، مع التحذير هنا من تضليل الأرقام غير الحقيقية المستندة إلى المنشورات الدعائية، والمعلومات الناقصة والبيانات غير المستوفية، والاستبيانات والأسئلة الموجّهة لخدمة هدف جزئيّ معيّن لا لخدمة الحقيقة الكلية.

ضرورة تكامل الفقهين للوصول إلى نتائج سليمة:
ولا بدّ أن يتكامل فقه الشرع، وفقه الواقع، حتى يمكن الوصول إلى الموازنة العلمية السليمة، البعيدة عن الغلوّ والتفريط.
والجانب الشرعي هنا واضح من الناحية المبدئية، فقد تحدّثَتْ عنه كتب أصول الفقه من المستصفى إلى الموافقات، وكتب القواعد والأشباه والفروق.
إنّ المصالح إذا تعارضت فُوِّتت المصلحة الدنيا في سبيل المصلحة العليا، وضُحِّيَ بالمصلحة الخاصّة من أجل المصلحة العامّة، ويُعَوَّضُ صاحب المصلحة الخاصّة عمّا ضاع من مصالحه أو ما نزل به من ضررٍ، وألغيت المصلحة الطارئة لتحصيل المصلحة الدائمة أو الطويلة المدى، وأُهْمِلت المصلحة الشكلية لتحقيق المصلحة الجوهرية، وغُلِّبتْ المصلحة المُتَيَقّنة على المَظنونة

والموهومة.
وفي صُلح الحديبية رأينا النبي ﷺ يُغَلِّبُ المصالح الحقيقيّة والأساسيّة والمستقبليّة على بعض الاعتبارات التي يتمسك بها بعض الناس، فَقَبِلَ من الشروط ما قد يُظَنُّ لأوَّلِ وَهْلةٍ أنّ فيه إجحافاً بالجماعة المسلمة، أو رضىً بالدون، ورَضِيَ أنْ تُحْذَفَ البسملة المعهودة، ويُكْتَبَ بدلها (باسمك اللهم) وأن يُمْحى وصف الرسالة من عقد الصّلحِ، ويُكتفى باسم محمد بن عبد الله. والأمثلة كثيرة، والمجال ذو سِعَة.
وإذا تعارضت المفاسد والمضارّ ولم يكن بدٌّ من بعضها، فمن المُقرَّرِ أن يَرْتكب أخفُّ المفسدتين، وأهونُ الضررين. هكذا قرر الفقهاء: أنّ الضرر يُزالُ بقدْرِ الإمكان، وأنّ الضرر لا يُزالُ بِضَرَرٍ مثله أو أكبر منه، وأنَّـه يُتَحَمَّلُ الضررُ الأدنى لدَفْعِ الضررِ الأعلى، ويُتَحَمَّلُ الضررُ الخاصّ لدفع الضررِ العام. ولهذا أمثلة وتطبيقات كثيرة ذُكرت في كتب (القواعد الفقهية) أو (الأشباهِ والنظائر).
وإذا تعارضت المصالحُ والمفاسدُ، أو المنافعُ والمضارُّ، فالمقرَّرُ أن يُنظَر إلى حجمِ كلٍّ من المصلحة والمفسدة، وأثرها ومداه، فتُغْتَفَرُ المفسدة اليَسِيْرَة لِجَلْبِ المصلحة الكبيرة، وتُغْتَفَرُ المفسدةُ المؤقتةُ لجلب المصلحة الدائمة والطويلة المدى، وتُقبَلُ المَفسَدَةُ وإنْ كَبُرَتْ إذا كانت إزالتها تؤدّي إلى ما هو أكبر منها.
وفي الحالات المعتادة: يُقدّمُ درءُ المفسدة على جلبِ المصلحة.
وليس المُهِمّ أنْ نسلم بهذا الفقه نظرياً، بل المهمُّ كلّ المُهِمّ أن نُمارِسَهُ عمليّـاً.
فكثيرٌ من مُسَبِّبات الخلاف بين الفصائل العاملة للإسلام، يرجع إلى هذه الموازنات:
-هل يُقبَلُ التحالف مع قوىً غير إسلاميّـة؟
-هل تُقبَلُ مُصالَحَةٌ أو مهادنةٌ مع حكوماتٍ غير ملتزمة بالإسلام؟
-هل تمكِنُ المشاركة في حكم ليس إسلاميّاً خالصاً؟ وفي ظل دستور فيه ثغرات أو مواد لا نرضى عنها تمام الرضى؟
-هل ندخل في جبهة معارضة مكونة من بعض الأحزاب لإسقاط نظام طاغوتي فاجر؟؟
-هل نقيم مؤسسات اقتصادية إسلاميّـة مع سيطرة الاقتصاد الوضعي الربوي؟؟
-هل نجيز للعناصرِ المسلمةِ العملَ في البنوك والمؤسسات الربويّة أم نفرغها من كل عنصر متدين ملتزم؟؟

*صعوبة الممارسة والتطبيق في الحياة العملية:
إن تقرير المبدأ سهل، ولكن ممارسته صعبة، لأنّ فقه الموازنات يصعب على العوام وأمثالهم من القادرين على التشويش لأدنى سبب. لقد لقي العلامة المودودي

وجماعته عَنَتاً كثيرا حينما رأى -في ضوء فقه الموازنات- أن لانتخاب فاطمة جُناحٌ أقلُّ ضرراً من انتخاب أيوب خان، فشُنَّت الغارة عليهم بحديث "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة ". وهل يفلح قوم ولوا أمرهم طاغيةً متجبراً ؟؟ لن يفلحوا والفقه هنا ينظر: أي الشرَّيْن أهون، أو أيُّ المفسدتين أخفّ، فيرتكب الأدنى في سبيل دفع الأعلى.

والإخوة في سوريا عانوا مثل ذلك، حين قرروا التحالف مع بعض القوى غير الإسلاميّة لمقاومة النظام الذي يريد أن يستأصلَ شأفتهم، وقد تحالف الرسولُ مع خُزاعة وهم على الشرك، واستعان ببعض المشركين على بعض.

وأنا لا أنتصر هنا لموقف هؤلاء ولا أولئك، ولكن أنتصر للمبدأ، مبدأ فقه الموازنات الذي على أساسه يقوم بنيان (السياسة الشرعية).

وفي مواقف الرسول الكريم وأصحابه وأدلّة الشرع الفسيح، ما يؤيّد هذا كله، من جواز الاشتراك في حكمٍ غير إسلاميّ، وجوازِ التحالفِ مع قوى غير إسلاميّة.

أدلّة من القرآن على فقه الموازنات

والمتدبر لآيات القرآن الكريم مكّيّة ومدنيّة، يجد فيه أدلّة كثيرة على فقه الموازنات والترجيح.

* نجد في الموازنة بين المصالح قوله تعالى على لسان هارون لأخيه موسى عليهما السلام: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ سورة طه: 94.

* وفي الموازنة بين المفاسد والإضرار نجد قوله تعالى على لسان الخضر في تعليل خرق السفينة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ سورة الكهف: 79 فلإن تبقى السفينةُ لأصحابها وبها خرقٌ أهون من أن تضيع كلها، فَحِفْظُ البعض أولى من تضييع الكل.

*ومِن أبلغ ما جاء في الموازنات قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ﴾ سورة البقرة:217

فقد أقرّ بأن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن لمقاومة ما هو أكبر منه.

*وفي الموازنة بين المصالح المعنوية والمادية، نقرأ قوله تعالى عتابًا للمسلمين عقب غزوة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال:67

*وفي الموازنة بين المصالح والمفاسد نقرأ قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ البقرة: 219.

*وفي الموازنة بين الجماعات والقوى بعضها ببعض غير المسلمة ، نقرأ أوائل سورة الرّوم وفيها انتصار للروم على الفرس، وكلا الفريقين غير مسلم، ولأنّ الرّوم أهل كتاب فهم أقرب إلى المسلمين من المجوس عُبّاد النار.

كلام شيخ الإسلام ابن تيمية:

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام قويٌّ في جواز تولي بعض الولايات في دولة ظالمة، إذا كان المتولّي سيعمل على رفع بعض الظلم أو تقليل حجم الشر والفساد وله في موطن آخر فصل جامع في تعارض الحسنات أو السيئات، أو هما جميعاً، إذا اجتمعا ولم يُمكِن التفريق بينهما، بل الممكن إمّا فعلُهُما جميعاً وإمّا تركهما جميعا

إذا غاب فقه الموازنات عن الساحة

إذا غاب عنا فقه الموازنات سَدَدْنا على أنفسنا كثيراً من أبواب السعةِ والرحمةِ، واتخذنا فلسفةَ الرّفض أساساً لكلّ تعامل، والانغلاقَ على الذات والفرار من مواجهةِ المشكلات واقتحامِ الخصمِ في عقر داره. سيكون أسهل شيءٍ علينا أن نقول: «لا» أو: حرام. في كل أمر يحتاج إلى إعمال فكر وإجهاد.

أما في ضوء فقه الموازنات فسنجد هناك سبيلاً للمقارنة بين وضعٍ ووضع، والمقابلة بين حالٍ وحالٍ، والموازنةِ بين المكاسب والخسائر، على المدى القصير

وعلى المدى الطويل، وعلى المستوى الفردي، وعلى المستوى الجماعي، ونختار بعد ذلك ما نراه أدنى لجلب المصلحة، ودرء المفسدة.

ولا يزال بعض الإخوة يُنكِرون على من يكتب في الصحف اليوميّة التي لا تلتزم بالخط الإسلاميّ الصريح، بل هناك من يرى مقاطعة أجهزة الأعلام كلها: مقروءة ومسموعة ومرئية، لما يشوبها من انحرافٍ وفسادٍ في الفكر والسلوك، ناسِيْنَ ما لها من خطر بالغ على العقول والضمائر، وإنّ تَرْكَها لا يزيدها إلا فساداً وخبالاً، وسيُمَكِّنُ العلمانيين والمُنْحَلِّين من التغلغل فيها، والتخريب لها، وسيحرِمُنا نحن من فُرَصٍ لا نجد لها عوضاً.

ومن نظرَ إلى الأمر في ضوء فقه الموازنات وَجَدَ أنّ الدخول في هذه الميادين الهامّة ليس جائزاً فحسب بل هو مستحبٌّ، بل واجبٌ، لأنَّه وسيلةٌ إلى أداء أمانة الدعوة ومقاومةِ الباطلِ والمنكر بقدر المستطاع، وما لا يَتِمُّ الواجب إلا به فهو واجبٌ كما هو مقرر ومعلوم.

النتيجة:

على الجماعات الاسلامية أن توازن في حال الضعف وغياب التمكين بين الفاسد والأفسد وفي حال القوة والمُكنة بين الصالح والأصلح.

تاسعاً: فقه المرحلة

يجب على من يتصدر الساحة أن يفقه المرحلة التي يعمل بها ويراعي الظرْفَ الزمانيّ والمكانيّ والاجتماعيّ والمُنْحَنى البيانيّ لسير الدعوة، فإنّ كثيراً من الدّعوات والمشاريع الحضارية أجهضت لضعف الفقه المرحلي عند أبنائها.

وعليه فإنّنا نراعي أنْ لا نبحث عن حلٍّ قبل أن نُشَخِّصَ المشكلة، ولا ننتقل إلى الدعوة جهراً قبل أن تتخمّر الدعوة سرّاً، ولا نفكر بالهجرةِ قبل عقد البيعة، ولا نعمل على أنّنا في العهد المدني ولا نزال في العهد المكي ولا نبني الدولة ونحن لم نبني الإنسان، ولا نستعجل الفتح قبل الجهاد، ولا نبدأ الجهاد قبل الإعداد ولا نقدم الجهاد القتالي قبل الجهاد البياني، ولا نتحرك في جهاد الطلب ولم نخرج من ساحة جهاد الدفع، ولا نسترخي بعد الوصول إلى الفتح حتى لا يكون المنحدر والسقوط.

1-في زمن الاستضعاف جاز للمسلم كِتمان الدين تحقيقاً لمقاصده، وفي حال الإكراه الملجئ جاز للمسلم النطق بكلمة الكفر من غير أن يخدش ذلك في دينه.

2-وما جاز زمنَ الاستضعاف قد يكون محرّماً عند التمكين، وما أُبِيْحَ حالَ الإكراهِ والاضطرار فهو محظورٌ عند القدرةِ والاختيار.

3- إنّ الخلط بين ما جاز فِعلُه زمنَ الاستضعاف وما يجب فعله زمنَ التمكين يؤدّي إلى اضطراب في الرؤية والهدف وانحراف سلوك العاملين للدين.

4- فمن تمام العلم بالشريعة معرفةُ حكمةِ التفريق بين مرحلة الاستضعاف والإكراه ومرحلة القدرة والتمكين، وتَـغَـيُّرِ الأحكام بين المرحلتين ضمن قواعد الاستطاعة.
5- وإنّ من المقرر في أصول الشريعة أنّ الأحكام مُـعَـلَّـلةٌ، وما انضبطت عِلّـتُه سرى حكمه لغيره إن اشتركا في العلّة ولو لم تنص عليه الشّريعة.
6- وإن من المتفق عليه بين الأصوليين أن بعض المسائل قد يتغيّرُ حُكمُها بتغيُّر الزمان أو المكان أو المآل أو الحال أو المصلحة أو المفسدة.
7-ولا يتعارض ذلك مع ثبات أحكام الشريعة وأصالتها لأنّ أدلّـة تغيّر أحكام تلك المسائل هي الشريعة نفسها، مما يدل على سِعَتِها وصلاحيّـتها لكل الأزمان.
8-يقول الإمام الشاطبيّ في موافقاته في بيان صفة العالم الراسخ: " أنَّـه ناظر في المآلات قبل الجواب على السؤالات ".
9-فكلما ازداد إدراك العالم لشمول الشريعة ومُروْنتها ومقاصدها وكلياتها ازداد رسوخاً في العلم حتى يصل إلى مقام أهْليّة الفُـتْـيَا والنظر في النوازل.
10- وكلما وقف الداعية على ذلك كانت دعوته على بصيرةٍ ونورٍ، وتربى على يديه جيلٌ راشدٌ مؤهلٌ لحمل الرسالة الربّـانيّة والهدي النبوي بالطريقة الأمثل.
11- وعلى قدر إدراك القائد والأمير لها تكون قراراته مسددة وخطواته موفقة بحيث تسير الجماعة باتزان في سيرها لإقامة العدل وتجتنب اعوجاج الطريق.
12- فكم من أقوام دعوا إلى أمورٍ تأبى الشريعة نسبتها إليها وقاتلوا عليها فصدوا عن سبيل الله وأفرحوا بذلك قلوب الكافرين وأحزنوا قلوب المؤمنين.
13- فما أشدّ حاجة العاملين للدين جهاداً ودعوة في زمانـنا إلى إدراك شمول الشريعة وحيويتها ومرونتها أثناء المدافعة والتغيير.
14-وعليه فلمن سأل عن أدلّـة فقه المرحلة فجوابه جميع النصوص التي تربط التكليف بالقدرة وكيفية امتثال الأمر الإلهيّ حالَ العجزِ الجُـزئيّ أو العجز الكُـلّـيّ.

فقه المرحلة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

يقول شيخ الإسلام:
"فحيثما كان للمنافق ظهورٌ، وتخافُ من إقامة الحدّ عليه فتنةً أكبرَ من بقائه، عملنا بآية: {وَدَعْ أذاهم}. كما أنَّـه حيث عجزنا عن جهاد الكفار، عملنا بآية الكفّ عنهم والصفح، وحيث ما حصلت القوة والعز خُوْطِبنا بقوله: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ}.
اهـ. الصارم المسلول في حكم من سب الرسول ج1 ص362

من فقه المرحلة

النظرة الظاهرية للنصّ دون الاستقراء العامّ للنصوص يجعل الجماعة تعمل بسياسة:
حرقِ المراحل بدلاً من فقه المرحلة،
واستعداءِ الخصوم بدلاً من تحييد الأعداء،
والعملِ على إنجاز الهدف المعجِز وتَـرْكِ الهدف الممكن، والتمسكِ بالمسمّيات مع تغييب الجوهر،
وعليه يجب على الجماعات الإسلاميّـة أن تجتهد في تحديد المرحلة التي تعمل بها بمُحدّدات واضحة:
1-هل نحن في المرحلة المكّيّـةِ أم المرحلة المدنيّـة أم بمرحلة بين بين أو نَرْفُضُ هذا التقسيم أساساً؟
2-هل نحن في مرحلة قوّة أم مرحلةِ استضعافٍ أو بين بين (مرحلة تمكين جزئي)؟
3-هل نحن في مرحلة التِّيْهِ أم الرُّشدِ أو في مرحلة بداية الخروج من التيه؟
هذه كله يجب أن يُحَـدَّدَ لنعرف أيّ نوع من الأحكام نعمل
لأنّ الملاحظ أن الجماعات تعمل تارةً بأحكام التمكين وتارةً بأحكام الاستضعاف فلا تكاد تنضبط
بسبب القراءات البتراء والمجذوذة للنصوص والسيرة والعقيدة والفقه

عاشراً: فقه السنن الربّـانيّة في الأمم والحضارات:

على الجماعات الاسلامية أنْ تفقه سُنَنَ الله في الدعوات والدول، وهي دساتيرٌ ثابتةٌ في حركة المجتمعات وزوال وقيام الحضارات والدول والمنحنى البياني لقوتها وضعفها ، وهذه السُّـنَنُ سُـنَنٌ ثابتةٌ لا تُجامل نبيّـاً مرسلاً ولا وليّـاً مقرّباً، وهي تفعل فعلها بالمجتمعات كما تفعل قوانين الفيزياء والكيمياء فعلها في المادة، وهي تختلف عن السُّنَنِ الكونيّـة التي ربما تُخْرَقُ لنَبِيٍّ أو وليٍّ، ولكن هذه السنن لا تنخرم ولا تتخلف، والجهل بهذه الدساتير يجعل من الجماعات الاسلامية تقف متخبطة متحيرة أمام الأحداث تقع قدرا على ما حددته حكمة الله تعالى بين مقدمات هذه السنن ونتيجتها الحتمية
تمتاز هذه السنن بسمتين متلازمتين:
الثبات والاضطراد،
فهي ثابتة لا تتغير إلى سنن أخرى، ومضطردة إن وجدت مقدمتها ستفضي إلى نفس النتائج، قال تعالى:

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ الإسراء:77 ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ فاطر: 43 ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ الأحزاب: 62

المغالبةُ والقفزُ على السنن:

1-يجب دفعُ الأمر الكونيّ بالأمر الشرعيّ ولكن مع تحاشي المغالبة:

قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف:6

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فاطر:8

2-كما لا يجوز القفز على السُّنَنِ "إنَّ المُنْبَتَّ لا ظَهْراً أبقى ولا أرضاً قطع" وهذه السنن هي:

أولاً -سُنَّةُ الابتلاء والتمكين

1-التمكين يكون بعد الابتلاء، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ القصص:5 وقد أسلفنا الذكر عنها في فقه التمكين.

2- الابتلاء بصفة عامّة سُنَّةُ الله في خلقه، وهذا واضح في تقريرات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنعام: 165

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الكهف: 7

وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ الإنسان: 2.

مِنْ أعجبِ حُجَجِ المنافقين استدلالُهُم بالابتلاء على خطأ الطريق! كما قال الأُوَلُ {لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا} وكما يستدل البعض ايضا على صحة الطريق من مجرد البلاء لا يفرق بين بلاء التأديب والبلاء الذي يعقبه النصر والتمكين

الابتلاء مرتبطٌ بالتمكين ارتباطا وثيقاً، فلقد جَرَتْ سُنَّة الله تعالى ألا يُمكِّن لأمّة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وبعد أن ينصهر معدنها في بوتقة

الأحداث، فيَمِيْز الله الخبيثَ من الطيب، وهي سُنّة جاريةٌ على الأمّة الإسلاميّة لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبتلي المؤمنين ويختبرهم، ليمحص إيمانهم ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعيّ حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يُمكن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يُمَكّنُ حتى يُبتلى، فإنّ الله تعالى ابتلى نوحًا وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلمّا صبروا مكّنهم، فلا يظن أحد أن يَخْلُصَ من الألم البتة.

حِكْمَةُ الابتلاء وفوائده:

1-تصفية النفوس:

جعلَ الله الابتلاءَ وسيلةً لتصفية نفوس الناس، ومعرفةِ المحق منهم والمبطل، وذلك لأنّ المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمنا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت: 2

2-تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «ثم إنَّه الطريق الذي لا طريقَ غيره لإنشاء الجماعة التي تحملُ هذه الدعوةَ وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقةِ الناس وحقيقةِ الحياة، ذلك ليَثْبُتَ على هذه الدعوة أصلبُ أصحابها عودًا، فهؤلاء هم الذين يَصْلُحون لحملها، إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»

3-الكشف عن خبايا النفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «والله يعلمُ حقيقة القلوب قبل الابتلاءِ، ولكنّ الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوفٌ لعلم الله، مُغَيَّبٌ عن عِلم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمُه سبحانه من أمرهم، وهو فضلٌ من الله من جانب، وعدلٌ من جانب، وتربيةٌ للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حقَّقهُ فِعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه».

4-الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وما بالله – حاشا لله – أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقيُّ لتحمُّل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاصّ لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقيّ على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتنفي عنها الخَبَث وتستجيش كامن قواها المذخورةِ فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويُصْلَب ويُصْقَل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالا بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يُسَلّمون الراية في النهاية مؤتَمَنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»

5-معرفة حقيقة النفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي يَعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسَهم، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرَوْن كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق ومسارب الضلال»

6-معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي تعزّ هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غثٍّ وبلاء، وبقدر ما يُضَحّون في سبيلها من عزيز وغالٍ، فلا يُفرّطوا فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»

7-الدعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامتة لهذا الدين وهي التي تدخل الناس في دين الله، ولو وَهَنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي ﷺ ثم يأتيه أمر النبي ﷺ أن يمضي إلى قومه يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله ﷺ (وسنرى ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله.)

8-جذب بعض العناصر القوية إليها:

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية تكبر عند هذه الشخصياتِ الدعوةُ وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق.

9-رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول ﷺ: " مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً " رواه مسلم (فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أنّ الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم).

كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها: معرفة عِزِّ الرّبوبيّة وقهرها، معرفة ذلّ العبوديّة وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرّعُ والدعاء، الحِلمُ عمّن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصّبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، ما أعدّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد.

ثانياً -سُنّة النصر والهزيمة

النصر يكون لمن أخذ بأسبابه وأعد له العدة الإيمانية والمادية، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: 7 وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الأنفال:60

والنصر قد يُبطئ على الذين ظُـلِموا وأخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربُّـنا الله، فيكون هذا الإبطاءُ لحكمةٍ يريدها الله:

1-قد يـبطئ النصر لأنّ بنية الأمّـة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً.

2-وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمّـة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، لا تبذله هَـيّناً رخيصاً في سبيل الله.

3-وقد يـبطئ النصر حتى تُجَرِّبَ الأمّـة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سَنَدٍ من الله لا تكفل النصر، إنّـما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخرَ ما في طوقها ثم تَـكِلَ الأمر بعدها إلى اللـــــه.

4-وقد يُبطئ النصر لتزيد الأمّـة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألّم وتبذل ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجَّهاً إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي

الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن الله به، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به.

5-وقد يبطئ النصر لأنّ الأمّة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحيتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه، وقد سُئِل النّبيّ صلى الله عليه وسلم: الرجل يقاتل حميةً والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليُرى، فأيُّها في سبيل الله؟ فقال "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

6-كما قد يبطئ النصر لأنّ في الشر الذي تكافحه الأمّة المؤمنة بقيّةَ خير، يُريد الله أنْ يُجَرِّدَ الشرّ منها ليتمحض خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

7-وقد يبطئ النصر لأنّ الباطل الذي تحاربه الأمّة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظلّ له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أنْ يَظَلَّ الباطل حتى يتكشَّفَ عارياً للناس، ويذهب غير مأسوفٍ عليه من ذي بقية.

8-وقد يُبطئ النصر لأنّ البيئة لا تصلُح بعدُ لاستقبال الخير والحق والعدل الذي تمثله الأمّة المؤمنة، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقرّ لها قرار، فيظل الصراع قائما حتى تتهيّأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه!

ومن أجل هذا كله ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يُبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام، مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه وتهيّؤ الجوّ حوله لاستقباله واستبقائه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج:40-41

فوَعْدُ الله الوثيقِ المؤكّد المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره، فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله فيستحقون نصر الله القوي العزيز الذي لا يهزم من تولاه؟ أنهم هؤلاء: {الذين إن مكّنّاهم في الأرض} فحققنا لهم النصر وثبتنا لهم الأمر {أقاموا الصلاة ،،،}

ثالثاً -الابتلاء لكل صاحب دعوة صادقة جماعةً كانوا أم فرداً قال تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت:1-3 ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الفرقان:31

رابعاً -سُنّـة المدافعة

المدافعة للظالم بحيث لا يَعُمُّ فساده في الأرض تحدّث البيان الإلهي عنها في موضعين من كتاب الله:

* قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة:251

* وقال سبحانه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج:40

في الآيتين نلحظ:

1-أنّ هذه السُّنّة -سُنة المدافعة- تشمل كلّ الناس وليست خاصّة بأهل الإيمان والحق.

2-نلحظ أنّ الآية الأولى تكلّمت عن فساد الدنيا والثانية عن فساد الدين.

3- وأنّ هذه السُّنة هي نعمةٌ من الله تعالى على المؤمنين يمكن للمؤمنين الاستفادة منها كما دخل الصحابة في منعة المشركين بداية الدعوة واستجاروا بالنجاشي في عهد الضعف وأقاموا التحالفات مع المشركين من قبيلة كِنانة في عهد التمكين الجزئي .

4- أنّ سنة دفع أهل الحق لأهل الباطل في الآية الثانية مرتبطة بسُنّـةٍ أخرى وهي سُنَّـة الانتصار لله تعالى حتى ينصرنا، لأنَّـها تتحدث عن صراع المبادئ، أمّـا الآية الأولى فلم تربط التدافع بنصرة الله تعالى لأنَّـه صراع دنيا ينتهي للأقوى عادةً .

سنة المدافعة هي عملية تنازُعِ البقاءِ للأصلح والأفضل في حَـمَأةِ صراع الحق مع

الباطل، وهنا لا بد من حصر أنواع الصراعات وموقف أهل الإيمان من كل منها:

أولاً- صراع أهل الحق مع أهل الباطل أزَلِيٌّ قديمٌ مستمر:

وهو الذي بدأ من صراع آدم مع إبليس إلى أن يَقتُـل المسيحُ بنُ مريمَ عليه السلام المسيحَ الدّجّـالَ.

كانت رحلة الأنبياء تتجلى في بث هذه المبادئ بين الناس، ولكنّ غالبية القوم يجادلون ويستهزئون ويحاربون بكل الأساليب الإعلاميـة والاقتصاديّة والسياسية والاجتماعيّـة والثقافية إلى أن تصل أحياناً إلى محاولات الطرد والنفي والاغتيال لأصحاب الدعوات، وقد ينشُبُ بينهما حربٌ عسكرية، وفي النهاية تكون العاقبة للمتقين الآخذين بمنهج الله تعالى سبيلًا لهم ووَعَوا سُـنُـنَه في كونه، فأعَدَّوا العُـدَّةَ الإيمانية والعلمية والعسكرية، يحوطها إرادةٌ لا تلين كما هو واضحٌ في قصة طالوت وجالوت، وكيف أنّ الله نصر الفئة المؤمنة حينما انتفضت قلوبهم انتفاضة إيمانية وأخذوا بسلاح العلم والقوة العسكرية، وعاشت قلوبهم إرادةَ التمكين في الأرض فكانت الهزيمة لأعدائهم رغم تفوقهم العدديّ والعتاديّ.

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنّماء بقيام الجماعة الخيّـرة المهتدية المتجرّدة.

ثانيًا -صراع أهل الباطل مع أهل الباطل:

لعلّ الصراع بين أهل الباطل قد يكون نظرة عقائدية، فيرى الفريق الأول أنَّـه على الحق ودونه الباطل, ومن هنا تستجيش العاطفة الإيمانية للوقوف قلبيًا مع الأقرب للحق، وهذا ما لاحظناه من حرب الرّوم والفرس، فتمنى المؤمنون أن يُنصَر أهلُ الروم لأنهم أهل كتاب، بل إن الله سماه نصرًا من عنده فقال: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الروم: 1-3

وقد يكون الصراع صراعاً دنيويّـاً لنهب المصالح والسيطرة الدائمة لنيل الشهوات فما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية أوضحُ دليل

فكان اللجوء للتحالفات على أساس مصلحة دون مصلحة، وهذا ما حدا بإيطاليا بأن تنقلب على حلفائها في الحرب العالمية.

في هذه الحالة على المسلمين احترام العهود والمواثيق والتصرف بناء عليها.

ثالثاً -تَدافُعُ أهل الحق مع أهل الحق:

والسؤال المطروح هل الحقُّ يتعدّد؟

لقد قسّم العلماءُ الحقّ إلى ثلاثة أقسام:

1-حقٌّ مُطْـلَقٌ وهو الله جل شأنَّـه.

2-وحقٌّ مُحْكَمٌ، وهو ما نزل من الكتاب أو ما حدّث به النبي ﷺ فيكون نصّاً قطعيّ الصِّحةِ واضِحَ الدلالة.

3- وحقٌّ نسبيٌّ، فيكون في مجال الفروع أو أمور محدثات الحياة ما لم يقع نصٌّ قطعيُّ الصحة وواضحُ الدلالة، فيكون الاختلاف فيه نسبة إلى الفهم أو عدم وصول النصّ الصّحيح، فيتولد في الاختلاف تدافُعٌ للوصول إلى أحقّ الحقّيْن، وهذا التدافعُ أصْلٌ في حياة الناس، فهو عاملٌ لتحرك الحياة، والسباقُ الخيريُّ فيه نحو الأفضل والأكمل يكون بارتفاع الهمم واتِّضاح معاني الخير ودَرَجاتها وتصاعُدها وأنواعها، فعدم التطور هلاكٌ، وهو منطق الفقه، فالتنافس يشكل عاملًا مهمًا في تنمية الحياة وترشيد مسارها والتخلص من الأخطاء والانحرافات، ولكن هذه الحصيلة من العمران الحضاري بالأفكار والعلوم والآداب لم تمنع من قيام تناقضات بجانبها أصلُها ابتداعٌ أو صراعٌ على السلطة ، فكان العمل الإصلاحيّ الاستدراكي المتنوع متمثلاً بأدب الخلاف هو السبيل لحل الإشكالات إذا خلصت النوايا وبنيت الثقة، متمثلين برأي الشافعيّ حين قال: رأيي صوابٌ يَحْتَمِلُ الخطأ، ورأيُ غيري خَطَأٌ يَحْتمِلُ الصَّواب.

وقد يصل الأمر إلى محاولات للغزو الخارجي بسبب التناقض البشري، فكان الجهاد واضعين كل خلافاتنا وراء ظهورنا متوحدين لإزالة العدو ومحاولاته.

كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية عندما جاهد التتار مع الأشاعرة والمتصوِّفة في (شقحب) وسماهم الطائفة المنصورة كما ذكر ذلك ابن كثير في تاريخه.

يَمُنُّ الله تعالى على الجماعة المجاهدة بالتمكين الجزئي اختباراً لهم وتمحيصاً ،
فإن أدّوا حق الشكر وقاموا بواجب التمكين جادَ عليهم بالتمكين الكُلّيّ،
وإن لم يكونوا لنعمته أهلاً وتنكّبوا عن أعباء الاستخلاف أركسَهم في وهدة الاستضعاف،

﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف:129

4- تلازم الشقاء مع الفساد والسعادة مع الصلاح، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم:41 وقال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل:97

5- هلاك الظالمين وإبادتهم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ الكهف:59

6-إزالةُ النعمة بكفرانها ودوامُها بالشكر، قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ الدخان:25-28،

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم:7

خامساً – سُنّة التِّيْه والرُّشدِ:

التيه عند رفض الأمّـة التكليف والرشد عندما تُحمَّلُ التكليف، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المائدة:26

من التيه إلى الرشد

سِمات عصر التيه:

في عصر التيه تكون الأمّـة بين حالتين، لا هي داخلة في حكم الطغاة ولا هي داخلة في شريعة التكليف.

التيهُ هو مرحلة الاستشفاء لأمّـة تكاثرت عليها العِلل فكان لابُدّ من عزلها في أجواء خاصّة لتتلقى التربية الناجعة.

بقاءُ الرسالة بدون من يحملها أهون عند الله من أنْ يقومَ بحملها من ليس لها أهلاً، وانتظار المعجزات الكونية في ذلك لا يُجدي.

لا يُمكِن أنْ يَتِمَّ ذلك إلا من خلال السُّنَنِ الجارية وليس من خلال السنن الخارقة.

1-ترك جهاد الأمّـة والاقتصار على النخبة، قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة:24، وترك الجهاد لم يكن هو مبدأ العِلل، بل هو نهاية تراكمِ العِلَلِ النفسيّـة من حب العيش والوَهَنِ النفسيّ.

2-كثرة الجدال والتعمُّقِ في الأسئلة التافهة وأخذ الأمر الشرعي بالاستهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ﴾ البقرة:67-68

3-الاجتراء على سفك الدّماء (بالمعنى الأدقّ تنفيذ الاغتيالات السرّيّـة) وقصة البقرة إنّـما كانت بعد عملية اغتيالٍ سرية.

4-التفرّق إلى أحزاب وجماعات، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ الأعراف:168

5-غيابُ القيادة الفاعلة وعجزها عن استيعاب العلل النفسية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ الكهف:60

6-التنافس على الموارد، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ الأعراف:160

7-وُفُوْرُ المَـلَـذّات بدون عناء، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ﴾ البقرة:57

8-بلادَةُ الذوقِ واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ البقرة:61

9-قسوة القلب إلى درجة التحجّر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ البقرة:74

10-الإيمان بالحِسِّيّات والشك في الغيبيّات، قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ النساء:153

11-التشرُّبُ بتقديسِ الأصنام المعنويّة والماديّة، قال تعالى ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة:93

ولكن يبقى السؤال بعد التأصيل هل يصحّ التنزيل على حالنا؟ وإن صحّ التنزيل على واقعنا فبأيِّ مراحلِ التيه نحن؟ هل نحن في طور الدخول أم في طور الخروج أم بين بين؟

-على ما يبدو أن كل أمّـة تخرُج لتوِّها من الحُكْمِ الجَبْرِيّ الاستبداديّ تبقى تحمل في كَوَامِنِها عِلَلَ التربية المُذلّة بعد استمرائها للذلِّ والهوان، ولعل هذا من حكمة الله تعالى أن يتربّى موسى في بيت عزٍّ ومنعةٍ بعيداً عن واقع الذلّ الذي عاشه قومه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ طه:39

-التربـية الفرعونية وطول فترة الاستعباد جعلت بني اسرائيل أمّـة غير قادرةٍ على التحوُّل من حالة الاستعباد لحالة السيادة.

-دخولُهم بحالة التقليد فقولهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وجدالُهم بقضيّة البقرة وهو أمر ربّـانيّ واضح لا يحتاج للجدل هو محاولة للهروب من التكاليف الربّـانيّة، فكانت فتره التيه أو بمعنى الحصار الذي يولد في النفس رغبة عارمةً للحرية مهما كانت تكاليفها، فكان الجيلُ الذي خرج مع سيدنا يوشع بن نون عليه السلام.

سادساً – سُـنّة الاستبدال التي تطَالُ الدُوَل والجماعات والأمم:

من سنن الله تعالى الثابتةِ أنه لم يربط التمكين لهذا الدين بفردٍ أو أمّـةٍ أو جماعةٍ أو قومٍ أو بلدٍ، عندما اجدبت مكة عن الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ نصره تعالى بأهل المدينة.

وعندما توفي رسول الله ﷺ وظن البعض أن الإسلام انتهى بموت محمد أنزل تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران:144

وقال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ من كان يعبد محمد فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

ولم يجعل نصرة الدين والرسالة حكراً على قوم دون قوم.

عندما تَنَكَّبَ العرب عن حمل راية الجهاد ورد صيال الصليبيين حملها الكُرد (نور الدين الشهيد وصلاح الدين)

ولما تنكّب الكردُ عنها، ذب عن بيضة الإسلام المماليك ودحروا هجمة التتار (المظفر قطز)
ثم حمل راية الجهاد والدفاع عن بيضة الأمّـة السلاجقةُ والأتراكُ (محمد الفاتح)
وكذلك كان في المغرب البربرُ ومنهم القائد (يوسف بن تاشفين) يَرُدُّ عادية الفرنجة ويستنجد به المعتمد بن عباد.
هذا الأمر يدلل أنّ الإسلام رسالةٌ ذاتيةُ القوةِ وأنّ البلدان والأقوام والجماعات والأفراد هم من يعتزّ بحمله وليس الإسلام من يعتزّ بهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ . . . ﴾ المائدة: ربعثانٌ بجماعاتهم
فالاستبدال لكل أمّـة تتولّى عن حمْلِ الرسالة ونُصرة الدين بأقوام آخرين سنة ثابتة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ محمد:38
سقوط الأفراد والجماعات على طريق الدعوة والجهاد وبقاء الدين محفوظاً يُخبرنا أنّ هذا الدين من عند الله ويحذرنا من التخلي عن نصرته.
من سُنَنِ الله الغالبة التي لا تُحابي ولا تجامل وتتّسِمُ بالثبات والاضطراد أنّ القدرات البشريةَ محدودةُ العطاءِ تصل أحياناً إلى درجة النضوب والعجز عن استمرارية العمل لهذا الدين.
وهذا ناتجٌ عن محدوديّة القدرة البشريّة وقصور أفرادِ الجماعةِ بطاقاتهم العلمية والعقلية والبدنية، وعلى مستوى الجماعاتِ قصورُ التخطيط والرؤية الاستراتيجيّة البعيدة المدى والملائمة للمتغيرات المتسارعة فوق قدرت الاستيعاب.
هنا الجماعة التي كانت لها الصدارة في خدمة الدين تصبح مع الزمن عاجزةً عن القيام بواجبها، بل قد تكون عقبة في طريق تحقيق هذا الواجب، وهنا يتحوّل دورُ الفرد والجماعة من الرّيادة إلى النّصح والإرشاد.
المشكلة أن بعض الجماعات تأبى أنْ تتنازل عن الريادة بدوافع من الهوى والأمراض الحزبيّـة، وربما يدفعها الأمر إلى الدخول في صراعات مع الجماعات الأخرى فيكون الاستبدال بطريقة غير مُشرّفة، هنا يقع الاستبدال، والمعصوم من عَصَمَهُ الله.
لذلك علينا نحن _من يدّعي العمل للإسلام_ أنْ نستعدّ جماعاتٍ وأفراداً لنُسَلّمَ الراية لمن بعدنا.

سابعاً – سُنّة التغيير

إن الله لا يُغيّرُ الظروف الاجتماعيّة السيئة في مجتمعٍ ما حتى يغيروا في أخلاقهم وسلوكهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ الرعد:11

فقه التغيير

تمهيد

بعث الله تعالى الأنبياء والرسلَ لأداء الرّسالةِ وتغيير الأوضاع الفاسدة في أقوامهم، فبلّغوا وغيّروا، وقد بعثَ اللهُ كلّ رسولٍ إلى قومه إلا الرسول ﷺ بعثه للعالمين.

لدى الأحزاب الإسلاميّة إشكاليّةٌ كبيرة في التغيير، فهم يسلكون مسلك التغيير بالعنف والقوة أو بالميزاتِ والأعطياتِ، هذا الأسلوب ينمّي الحالة النفاقية التي لا يُضمَن ولاؤُها إلا بالعصا والجزرة وليس بالاندفاع الذاتيّ، لذلك تشكّل خاصرةً رَخوة في التنظيمات مما يحملها على مضاعفة الجهد الأمنيّ لمراقبتها داخل الجماعة.

ضيقُ مساحة الحوار مع المخالف وعدمُ قدرة الأحزاب على تحمُّلِ الرأي الآخر _ربما لضعف الحُجَّة_ يحمِلُه على العدول عن أسلوبِ الإقناع العقليّ والتحريك الوجداني لإحداث التغيير المطلوب.

-علاقةُ الإنسانِ بالكون والمجتمع تضبطها نواميسٌ وقوانين لا تتغيّر ولا تتبدّل، قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ* هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران: 137-138

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر:43

-الإنسانُ محرّكٌ فاعلٌ ومغيرٌ، ومُنطَلَقُ ذلك نفسُه وإرادتُه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: مُحَرَّمٌ مُحَرَّمٌ

أولاً: مفهوم التغيير:

الانتقالُ من وضعٍ موجودٍ إلى وضعٍ أحسنَ مَنشود.

ثانياً: مؤشراته:

-البعد عن الله تعالى.

-ضَعْفُ العبادات وإهمالها.
-اليأس والمَلَلُ وفقدان لذة الحياة.
-انتشار الفساد ووجود الخلل على مستوى النفس والمجتمع (الذهنيّات، النظم، القيم، السلوكيات)، لذلك لابُدّ من استشعار المسؤولية أمام هذه الأوضاع وإلا سيَنزِل عقاب الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خاصّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال:25

-ضعف أو انعدام الإنتاج والعطاء.
-اضطراب سلم الأولويّات.

ثالثاً: مجالات التغيير:
-تغيير الأفكار والقيم والذهنيات والقناعات.
-تغيير السُّلوكيّات (السلوك ثمرة من ثمرات الفكر).
-تغيير الوضعيات.
-تغيير القدوات.

رابعاً: قواعد التغيير:
* احترام السُّنَن: البدء بترك الذنوب الكبرى قبل الصغرى، والتدرّج في الوسائل: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإنْ لم يستطع فَبِلِسانِـه، فإنْ لم يستطع فَبِقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].
* الإرادة الجادّة.
* الصبر على مشاقّ التغيير.
* وجود مُساند، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال:62
* حسن التخطيط.

خامساً: خلاصات
-الشعورُ بالألم وبالخطر أولُ خطوةٍ نحوَ التغيير.
-تحديد أهداف التغيير.
-التدرج في التغيير، قال ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانـه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

سادساً: شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
-الاستطاعة: يسقط الإثم عند العجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
-أن يكون المُنكر معلوماً من غير اجتهاد.

- أن يكون المنكر مجمعاً على تحريمه وليس فيه اختلاف معتبرٌ بين أهل العلم
-أن يكون المُنكر ظاهراً من غير تجسّس.
-مراعاةُ التدرّجِ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
-ألا يُفضيَ الأمرُ أو النهيُ إلى مفسدةٍ أعظم، لأنّ الشريعةَ الإسلاميّـةَ تحرص على تحصيل المصالح، ودفع المفاسد، وقد قسّم ابن القيم في "أعلام الموقعين" إنـكارَ المُنكر إلى أربع درجات:
-الأولى: أن يزول المنكر ويخلفه ضده.
-الثانية: أن يَقِلّ وإنْ لم يَزُل بجملته.
-الثالثة: أن يتساويا.
-الرابعة: أن يخلفه ما هو أشرّ منه.
وخَلُصَ إلى أن الدرجتين الأولَـيْـن مشروعتان، وأما الثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرّمة.

ثامنا سنة الكيد والتآمر:

في نظرية هناك مواقف بين طرفي نقيض في من يرفض نظرية المؤامرة بتاتاً ويعتبر نظرية المؤامرة بحد ذاتها مؤامرة فيقع فيما كان ينهى عنه
وبين المهوسون في تفسير كل حدث ومصاب بشماعة المؤامرة والكيد العالمي للمسلمين
والحقيقة أن تآمر الاعداء علينا شيء قررته النصوص الصريحة وبالحجم الكبير الضارب بأطنابه
قال تعالى (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) ابراهيم
قال تعالى {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} (الطارق 15-17)، {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} (الأعراف183)
ويحدثنا البيان الالهي انهم ينفقون الاموال الطائلة للصد عن سبيل الله وتمرير مؤامراتهم
قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) } الانفال
فالتآمر على الحق قديم وها قد تآمر غرب وشرق وعرب تآمر روس وفرس وشيعة ويهود ونصارى وشيوعيون ومغرضون ومنافقون على هذه الثورة بل لقد تآمر العالم بأثره إلا من رحم ربي على إجهاض هذه الثورة المباركة لالشيء إلا لأنها رفعت راية إسلامية سنية في غالبيتها

هناك سلاحان ما إن تمسكنا بهما فستتكسر كل المؤامرات العالمية اما صخرة ثبتنا عليها التقوى والصبر

{وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط} (آل عمران 120) وعندما نذكر التقوى نخص بالذكر التقوى من المعاصي السياسية خاصة كالفرقة واختلاف الكلمة والتحزب وترك الجهاد والركون والوهن وحب الدنيا فهذه الفراغات هي التي ينفذ منها الاعداء لتمرير كيدهم لنا فكان لزماً علينا أن نسد هذه الثغرات

والصبر على المبادئ في مواجهة الطغيان العالمي

فليتذكر أهالينا مع هذا التآمر العظيم والتخاذل المتصاعد الشديد أنها سنة ربانية فقد تآمر قوم إبراهيم وقذفوه بالنار وجاء الرد الرباني {قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم} (الأنبياء 69)

، قال تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (الأنعام : 123)

نار المؤامرة والفتنة يستطيع ان يشعلها أي احد ولكن لا يمكن له أن يظل متحكما في مساراتها وقد تتجه الى حرق بيته

لذلك لست مع الذين يفسرون ان المارقة هي مؤامرة مخابراتية الانظمة العالمية تستثمر في تشوهاتنا وليست هي من يصنعها \

واجتمعت قريش وقبائلها لقتل رسول الله ضربة رجل واحد فأذن الله له بالهجرة وتآمرت قريش وقبائل العرب واجتمعت على حربه فكانت معركة الأحزاب وغزوة الخندق وهزم الجمع فلا ضير قومي وإن شاء الله {سيهزم الجمع ويولون الدبر} (القمر45)، {الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَـاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّـاغُوتِ فَقَـاتِلُوا أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَـانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَـانِ كَانَ ضَعِيفًا} (النساء761).

الخلاصة ان المشكلة كامن في قابليتنا لابتلاع طعم المؤامرة والوقوع في شركها ولسيت في المؤامرة بحد ذاتها فالجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله عدوه به كما يقول مالك بن نبي المشكلة في قابليتنا للاستعمار وليست في الاستعمار

الفصل الرابع

السياسة الشرعية الرشيدة

أزمةُ الخطابِ الإسلاميّ

مَرَّ الخطابُ السياسيُّ الإسلاميُّ بثلاث مراحل:
1-مرحلة الخطاب السياسي المُـنَـزَّل
2-مرحلة الخطاب السياسي المُؤَوَّل
3-مرحلة الخطاب السياسي المُبَـدّل

مرحلة الخطاب السياسي الشرعي المنزل (1هـ -73 هـ)

وتبدأ من قيام الدولة الإسلاميّـة في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إليها، إلى وفاة آخر خليفة صحابي هو عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه (سنة 73هـ) أهمّ ملامح ومبادئ هذه المرحلة:
1-ضرورةُ الدولةِ للدّين، وأنَّـه لا دينَ بلا دولةٍ
2-ضرورةُ إقامةِ السلطة وأنَّـه لا دولةَ بلا إمامٍ
3-ضرورةُ عقد البيعة، فلا إمامةَ بلا عقدٍ
4-وأنَّـه لا عقد للبيعة إلا برضا الأمّـة واختيارها والإكراهُ يجعلُ منه عقد إذعان

5-لا رضا بلا شورى بين المسلمين في أمر الإمامة
6-أنَّـه لا شورى بلا حرية
7-أن الحاكمية والطاعة المطلقة لله ورسوله (هنا يجب أنْ نميّز أنّ الأمّـة هي مصدر السلطة ولكنها ليست مصدر التشريع)
8-تحقيق مبدأي العدل والمساواة
9-حماية الحقوق والحريات الإنسانية الفردية والجماعية وصيانتها
10-ممارسة الأمّـة حقها في المحاسبة والمراقبة والمشاركة في الحكم

مرحلة الخطاب السياسي الشرعي المؤول (73 هـ -1350 هـ تقريبا)

*أهمّ ملامح هذه المرحلة:
1-مصادرة حق الأمّـة في اختيار الإمام وتحول الحكم من شورى إلى وراثة
أسباب قتال الصحابة من أجل الشورى:
السبب الأول: الدفاع عن حقهم الذي جعله الله لهم (وهو اختيار الإمام ومحاسبته وعزله)
السبب الثاني: أنّ اغتصاب الحكم منكَر وظلم تجب إزالته
السبب الثالث: التمسك بالسنة وهدي الخلفاء الراشدين
السبب الرابع: إدراكهم أنّ دخولَ الخللِ في موضوعِ الإمامةِ سيُفضي إلى دخول الخلل في جميع شؤون الحياة.

مذاهب العلماء في اشتراط الإجماع على عقد البيعة

2-مصادرة حق الأمّـة في المشاركة والشورى
3-غياب دور الأمّـة في الرقابة على بيت المال
4-تراجع دور الأمّـة في مواجهة الظلم والانحراف

- مذاهب العلماء في الخروج على السلطان الجائر
فسخُ عقدِ الإمامة بالجورِ، وهنا دُوِّنت أول الكتب التي تعتني بفقه السياسة الشرعية.
- الأسباب التي أدّت إلى شيوع الخطاب المؤوّل:
1-نظرة أصحاب هذا الخطاب إلى حوادث التاريخ نظرةً جزئية (نظروا إلى المفاسد المترتِّبة على الخروج على الإمام الجائر دون النظر إلى المفاسد المترتبة على تولية الإمام الجائر)
2-خلْطُهُم بين مفهوم الخروج السياسي ومفهوم الخروج العقائدي: (ليس كل من خرج على الإمام فهو خارجيّ باغٍ، ولو كان مجردُ الخروج على الإمام الجائر

كافٍ لوصف الخارجين بأنهم خوارج لكان الحسينُ بنُ علي وعبدُ الله بنُ الزّبير أئمة الخوارج، أمّا الخوارجُ الحقيقيون فهم من خرجوا على عقيدة أهل السنة والجماعة باتباع ظواهر النصوص وبتكفير المسلمين أصلاً واستباحة دمائهم) تبعاً لذلك قد يلزم الشخص وصف الخوارج ولو لم يبرح جوف رَحله ولم يحمل السيف على أحدٍ طالما أنَّـه يدين بعقيدة الخوارج، ويوضح هذا المعنى حديث أبي هريرة مرفوعاً (وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ) رواه مسلم وغيره

3-شيُوعُ أحاديث الفتنِ دون فهمٍ لمعناها الصحيح

4-شُيُوعُ الروحِ الفرديةِ بسبب الفهمِ الخاطئ لأحاديثِ اعتزالِ الفتن (اعتزال الفتن بدون فهم أحاديثها تسبب في تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

5-شيُوعُ روحِ الجبرِ من جهةٍ، والإرجاء من جهة أخرى (الإرجاء دينٌ يُعجب الملوك)

6-الغلو في تعظيم طاعة السلطان (حتى إنّ البعض أدخلها في أبواب العقيدة لأهل السنة والجماعة)

الخطابُ السياسيُّ الشرعيُّ المبدل (1350 هـ - ؟)

إسقاط الخلافة وفصل الإسلام عن الدولة

وكان علي عبد الرازق وكتابه (نظامُ الحكمِ في الإسلام) أولَ محاولة لتأصيل هذا الخطاب تأصيلاً شرعيّاً.

أهمّ ملامح هذا الخطاب:

١-إثباتُ عدم شرعيّة الخلافةِ أو التقليل من شأنها

٢-إثبات مَشروعيّة التحاكم إلى القوانين الوضعيّة

٣-إثبات عدم مشروعيّة الجهاد في الإسلام أوتفسير الجهاد بتفسيرات تعطل معناها الشرعي

رد شيخ الإسلام مصطفى صبري على علي عبد الرازق

تصدي العلامة أحمد شاكر للخطاب المبدل وسيد قطب

الازدواجية في الخطاب الإسلاميّ:

الملاحظ من خلال الاستقراء أنّ الحركات الإسلاميّة لها أربعة أنواع من الخطابات:

1-خطابٌ تتوجه به إلى الأتباع مفعمٌ بالتحشيد والإعجابِ بما لديها والتحريض والتعصّب وتسفيه الآخرين.

2-خطابٌ موجّهٌ إلى الحركات الإسلاميّـة الأخرى، يدور بين الاستيعاب وغالباً يصل إلى التضليل والتبديع والتكفير.

3-خطابٌ موجّهٌ إلى الخصوم، خطابٌ يدور بين الاستعداء بالعنترياتِ والمصانعةِ إلى درجة الميوعة.
4-خطابٌ موجّهٌ إلى الجماهير يتّسِم بالتقيّة وإظهارِ المحاسنِ والإسرافِ في الوعود

أنواع الخطابات الحزبيّة التي تطفو على الساحة:

الخطاب المتشائم:

أصحابهُ ذو طابعٍ سوداويّ ونظرتهم إلى الحياة متشائمة، يتطيَّرون بكل دعوة للإصلاح شرّاً ويتَردد على ألسنتهم دائماً أنّنا في آخر الزمان وأنّ أمراض الأمّة وتخلّفها مستعصية على كل الحلول، وأنّ الفساد في كثرةٍ والخيرَ في نُدرةٍ والكفر في إقبالٍ والإسلام في إدبارٍ، وأنّ على المسلم الاعتزال اتقاءً لشرور الناس حرصاً على دينه، وأنّ الإسلام سيعود غريباً كما بدأ، وأنّ الفتن أقبلت كقِطعِ الليل المظلم، وأنّ القابض على دينه كالقابض على الجمر، وأنّ عُرى الإسلام سوف تنقُض عروةً عروةً، فنحن بين يدي الساعة وما بقي إلا الدجال، فالموت تحفةٌ لكل مؤمن، وهؤلاء ينقصهم فقه في إنزال أحاديث الفتن على الواقع.

الخطاب الحالم:

يتكلم أصحابه عن أحلامٍ ورديّة، فتَفهم من محتوى حديثه أن الإسلام سينتصر من الغد، ودولة الإسلام قاب قوسين وخلافة الله تلوح من قريب، ونحن على أبواب القدس، هذا الخطاب يريد حصاداً بلا بذار ونتائج بلا مقدمات، يريد حضارة بلا مراحل وفقهٍ للسنن الكونية الجارية، يريد زبيباً بلا عناقيد يستعجل الفتح وهو لا يدري عن ألف بائه شيئاً فهو يبني على الرغبة والتمني لا الواقع والإمكانيّات، وهؤلاء ينقصهم فقه الواقع والإمكانات، حتى نجني الأهداف لابدّ من سلك سبيلها دون تواكُلٍ وبطالة.

الخطاب الاشتجاري:

الأصل عندهم في الناس الكفرُ والعَداءُ والاتّـهام، وسوءُ الظن عندهم مقدم على حسن الظن، أخذوا فِقهَهُم من السجون فغالوا في أحكامهم وابْـتُـلوا بأربع أمراض: التفسيق والتبديع والتكفير والتفجير، شاهرين سيفَ الجدل والمِراء، ويكفرون حتى من خالفهم بالفروع، فيهم شيء من فقه الظواهر وغلو الخوارج وجفوة الأعراب، مشكلتهم أنّ تصوُّرَهم بُنيَ على ردّةِ فعلٍ لما عانَوه من ظلم الحكام، فهم يحتاجون إلى فقه المآلات وفقه المرحلة.

الخطاب المائع:

وهو الذي فقدَ هويّتهُ وخصائصَه وانتماءه وذابَ في غيره، مسحورٌ بكل جديدٍ ومعجب بكل وافدٍ ولو كان مخالفاً للقطعيّات في الدين، يتنازل ويُسايِر ويتميَّعُ

تحت عناوين حوار الأديان وتقارب المذاهب، فَتَحْتَ عنوان حوار الأديان تُحْرَفُ الأديان، وتحت عُنوان تقارب المذاهب يُسَيَّسُ الدين ويُجعَل منه تكاءة للسّاسة والبلاط، هؤلاء يعطون لكل وافدٍ وصف الإسلام ويُضْفون عليه مسحة الدين، فإذا انتشرت الاشتراكية قالوا: وهل الإسلام إلا دعوة للاشتراكية! وإن راجت الديمقراطية قالوا: وهل هي إلا الشورى! حتى أنَّ منهم من ادّعى أنّ الإسلام سبق داروين إلى نظريته!

هم يُحاولون أن يصطلحوا مع اللبرالية والحداثة والعلمانية فدخلوا في السياسة وأكلوا من حلوائها وسكتوا عن أهوائها، وجدت العلمانية فيهم مرتعاً خصباً لنفث سمومها وجعْلِ الدين مَطيَّة لغاياتها، هؤلاء مبتلون بالسّذاجة وحسن الظنّ الزائد والانـهزام النفسيّ والشكّ في الإمكانات، واستسلاماً للتيارات بحُـجَّـة التقارب والحوار أوّلَوا المحكمات ونسفوا الثوابت ولَـوَوا أعناق النصوص، فكان اجتهادهم مردوداً وفكرهم مَـمْجُوجاً.

الخطاب الاجتراري:

الذي يَـجْترُّ ما سَلَفَ من المناهج والأفكار، دُعاته يُفكّرون بعقول الموتى أغلقوا باب الاجتهاد غيرةً أن يَلِجَهُ من ليس أهلاً له، تعصّبوا لمذاهبهم ومشايخهم، يُعالِجون مشاكل العصر بفقهِ قرونِ الانحطاط الفقهيّ والتقليد المذهبيّ، يعيشون مع الماضي، ليس لهم روح عصرهم! مع أن الّسلف كانوا يجتهدون لعصرهم، الأمر الذي فتح الباب أمام الفُقهاء الوضعيين: أن يجتهدوا، ويقطعوا أشواطاً بالفقه الدستوري والإداري والاقتصاديّ، شعارُهُم الدائم: ما ترك الأوّلون للآخرين من شيء! ونحن نقول بل كم ترك الأوّلون للآخرين، لذلك جاءت مؤلّفاتهم تجْترُّ الحواشي والمتون، ولما أرادوا أنْ يجتهدوا عادوا إلى الاستنجاء وآداب الخلاء، فكان اجتهادهم لا يعدو أن يكون نُقولاً وتجميعاً، وفي أحسن الأحوال ترجيحات لا يلتزمونها.

هؤلاء يحتاجون إلى فقه التجديد والاجتهاد.

الخطاب الاختصاري:

الذي يختصر الإسلام في جزء من أجزائه ويضخمه على حساب غيره ويُصوِّره على أنَّـه الإسلام بكُلِّه، يريدون الإسلام عقيدةً بلا شريعة ودعوة بلا دولة وسلاماً بلا حقوقٍ وتزكيةً بلا جهادٍ وحقاً بلا قوةٍ، فمنهم من ضخّم مسألة تزكية النفس وعَـمِيَ نظرُه عن غيرها، وهذا يأخذ الجهاد ويقول: هذا هو الإسلام، والثالث يعتبر الدعوة أُسَّهُ وأساسه وما دونها هباءً! والرابع يجعل من قيام الدولة الإسلاميّـة دَيْدَنَهُ وجُلَّ شُغلِه، والخامس يعتبر قمع البدعة نهاية غاية الدين. هؤلاء يحتاجون إلى ترسيخ مبدأ الفقه الشمولي للإسلام.

الخطاب الأفيوني:

وهو الخطاب المُغرِقُ في القضايا الغيبيّة بدون تمحيص للأسانيد، مبنيٌّ على ثلاثة مرتكزات:

أولاً: العقيدة الجبرية، يُصوِّرُ الإنسان مسلوبَ الإرادة وأنَّـه مُساقٌ إلى مصيره بخيوط القدرة.

ثانياً: يتحدث عن المُخلّص في آخر الزمان وخروج المهدي ونزول عيسى عليه السلام وأنّ مشاكل الأمّـة لن تنْحلّ إلا بهذا المخلص، فكلّ جهد قبل ذلك عناءٌ وهباء.

ثالثاً: يرتكز هذا الخطاب على اعتقاد مَفادُه أنّ الكون مُسيّرٌ بدولة أولياء باطنية لهم حق التصرف في الكون، فهو كالذي يعالج بالمسكن بدلاً من استئصال العِلة، وهو خطاب تبرريّ لكل الأخطاء، يُبرر الاستبداد بحُـجَّـة طاعة وليّ الأمر، ويُبرر المعاصي بحُـجَّـة أنَّـها من قدر الله، ويُبرر البدع بحُـجَّـة البدعة الحسنة ويُبرّر ترك الجهاد بحُـجَّـة جهاد النفس، ويُبرر الخرافات على أنَّـها كرامـات لأصحابها، ويبرر رواية الأحاديث الضعيفة بحُـجَّـة العمل بها من فضائل الأعمال.

مصادرُ المعرفة لديه الإلهامـاتُ والمنامـاتُ والآثارُ الواهية، هذا النموذج يحتاج إلى فقهِ الواقع وضبط مصادر المعرفة.

لابُدّ من صياغة الخطاب الرشيد الجامع للأمّـة

لا بدّ من تبنّي خطاب إسلاميّ يرشد الصحوة الإسلاميّـة

ويكون لبِنة أساسية في المشروع الحضاريّ للأمّـة وليس عمله كعمل إطفاء الحرائق الذي يعالج العرض دون المرض يوصف الأمراض دون دواء وينشغل بالهدم دون البناء، إنَّـه الخطاب الوسطي الإيجابي الشموليّ، يدعو لإسلام التيسير لا التعسير والتبشير لا التنفير والرفق لا العنف والتعارف لا التناكر والتسامُح لا التعصب والجوهر لا الشكل والعمل لا الجدل والعطاء لا الادعاء والاجتهاد لا التقليد والتجديد لا الجمود والانضباط لا التّسيُّب والوسطيّـة بدون غلو ولا جفاء، ثابت في الأصول، مَرِنٌ في الفروع متدرج في التغيير مرتبط بالسلف متصل بالعصر يُراعي فقه الأولويّـات وفقه المآلات وطبيعة المرحلة، ويعي السنن الكونية في بناء المجتمعات دون مُغالبةٍ ولا تقصير ولا انحراف، يعالج الكليات ولا يفرق في الجزئيات، متوقف بالعبادة يبتدع في المصالح والعادات

أي من مقومات الدولة تمتلك الحركات الإسلاميّـة؟

تقوم الدولة على مقومات ثلاثة: الشعب والأرض والحكومة، ومن ناحية أخرى يعتمد النظام السياسي على ثلاثة أسس:

الأساس الأول: وجود السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية).
الأساس الثاني: الأهداف الثلاث، وهي العدالة والأمن والنظام الذي يعني الانضباط.
الأساس الثالث: وجود ركائز النظام السياسي وهي السيادة، واحتكار قوة القمع والقهر المتمثلة في الشرطة والقوات المسلحة، وقوة العدالة المتمثلة في الحقّ وسيادةِ القانونِ، بمعنى السلطة القضائية والشّرطة أي سلطة إنفاذِ القانون، والحقوق والواجبات، وركيزتها المواطنة ذلك أن الدولة الإسلاميّة ليست دولة دينية لا تقبل إلا بمواطنةٍ من دينٍ واحدٍ وإنما تقبلُ تعدّدَ الأديان في الدّولةِ الواحدةِ والتي عمادها الجنسية ، ومحورها الولاءُ للدّولة حتى صحيفة المدينة اعتبرت المسلمين مع اليهود امة من دون الناس بعقد العيش المشترك باعتباره أهمّ أنواع الولاءات وأسماها، فهو يعلو على الولاء للأسرة والقبيلة والطائفة أو العرق، أو نحو ذلك مما يسمى بالولاءات الفرعية في العقد الاجتماعي مع بقاء الولاء للدين هو المقدم . وكذلك ليست الدولة الاسلامية دولة علمانية تفصل الدين عن الدولة لقد كانت الصحيفة التي كتبها المسلمون مع اليهود هي الوثيقة الناظمة للعلاقات بين المواطنين في المدينة.
يغالط كثيرٌ من الإسلاميّين حينما يقولون الأمّـةُ مصدر السلطة وليست مصدر التشريع (لا يمكن أن يكون التشريع مصدره من الأمّـة وإنما مصدره الوحي وهذا الكلام ليس على إطلاقه). هذا الكلام يصدق على التشريع المنزل ولا يصدق على التشريع المؤول، لأنّ كثيراً من القوانينِ النّاظمةِ للمصالح مما لم ينزل به وحي هو محل نظرِ أهل الاختصاص ولا مانعَ من توسيع دائرة الشورى فيما هو من تقدير أهل الاختصاصات الدنيوية مثل قضايا الأنظمة الإدارية فقد كان المسلمون فيها عالة على الفرس.

بين الديمقراطية والشورى

النظام السياسي الإسلاميّ ليس نظاماً ثيوقراطياً وليس نظاماً ديمقراطياً وليس مقاربة بينهما وإنما هو نظام ربّاني متميز تماماً بخصائصه.
فرقٌ كبيرٌ بين الشّورى التي تنتخبُ الأفكارَ والآراءَ وبين الديمقراطية التي تنتخب الأعداد والأصوات.
الأولى تفتح لك المجال أمام الإبداع من التفكير والآراء ما يغني جوانب القضية.
أمّا الديمقراطيةُ فهي تضعك أمام خياراتٍ من الأفكارِ الجاهزةِ وعليك أن تختار منها
الديمقراطية والحرية عند الغرب صنمٌ من تمْرٍ يعبدونه من دون الله فإذا وصل الإسلاميّون من خلاله إلى الحكم أُكِل ذلك الصنم، ولكنها تبقى خياراً للانعتاق في مرحلة الاستضعاف.

أسوء ما في الديمقراطية أنّها تُنحّي الدين، وأفضل ما فيها أنّها تزودك بالأدوات الضابطة للشورى

والحرية عند الحركات الإسلاميّة قبل الوصولِ إلى السّلطةِ حُلم، وبعد الوصول إلى السلطةِ شبح.

كثيرٌ من الجماعاتِ الإسلاميّة وصلوا إلى النظام الثيوقراطي لكثرة المبالغة في طاعة ولي الأمر.

إشكالية الحرية وعقلية الاستبداد عند الحركات الإسلاميّة إشكاليّة ليس لديهم جوابٌ مقنعٌ عنها، محاربة الديمقراطية تكون بتقديم الحل الإسلاميّ البديل، أمّا الاكتفاء بتكفير الديمقراطيين وكفى! فهذا مأزق يجب أن تخرج منه.

إنّ الحرية عند الغرب تتكون من:

1_ حرية التعبير

2_ حرية المعتقد

3_ الحرية الشخصية

4_ والحرية الاقتصاديّة والحرية السياسية

وهذه الحُرّيّاتُ هي نفسها في الإسلام ولكنها مُقيّدةٌ بقيودٍ أخلاقية مرتبطة بالنصّ والوحي، أمّا عند الغرب فهي مُقيّدةٌ بالعقل والذوق العامّ، لذلك هي مَحَلُّ اجتهادٍ واستحسانٍ مُتغيّر بحسب رأي الأكثرية حتى وصلوا إلى حرية الشذوذ.

الذي أراه أنّ كل الشعوب مستعبدة في ممارسة قناعاتها بحريّة، الشرقُ مستعبد بالحديد والنار، والغرب مستعبد بالآلة الإعلامية الجبارة التي يمتلكها أصحاب مراكز الضغط السياسي والاقتصاديّ التي تَلبِس الحق بالباطل وتلبس الباطل بالحق وتجعلهم يختارون بناءً على ما يُضَخُّ لهم من معلومات تُقيّد الذهن وتُرهب التفكير.

"روبرت موردخ" اليهودي صاحب أكبر إمبراطوريةٍ إعلاميةٍ يستطيعُ من خلالها أن يصل إلى 300 مليون مشاهد وميزانيته تعادل ميزانية الولايات المتحدة قال مرّة: إذا أراد توني بلير أن يفوز بالانتخابات الحكومية في بريطانيا ما عليه إلا أن يستقل طائرته ويأتي إليّ في استراليا ويجتمع مع موظفي، وفعلاً عمل الرجل بذلك وفاز بالانتخابات.

إنّ ضعف الاجتهاد الإسلاميّ في مأسسة الشورى وجعلها ممارسة قابلة للقياس وتزويدها بالأدوات والآليات، والجمود على الفقه السياسي الذي كتب في قبضة الحُكم العَضوض أضعفنا أمام الاجتهادات الوضعية.

قواعدٌ في السياسةِ الشرعيةِ

1-إذا عاد المُكمّل على الأصل بالنقض سقط اعتباره.

2-لا عبرةَ بمتوقَّعٍ مع واقع.
3-يُقدّم ما لا يُتدارك فواته على ما يُتدارك أعلى منه أو أدنى.

شرح هذه القواعد التي جاءت في كتاب الموافقات للشاطبي بتطبيقات واقعية
1_ إنّ محاربة المفسدين شيء مُكمِّلٌ للجهاد، ولكن لو أدى ذلك إلى نقصان الأصل وهو محاربةُ العدوّ الكافر سقط تقديم محاربة المفسدين.
2_ الواقع أنّ الجيش الحر يُقاتلُ النظام الكافر، وتَوَقُّعُ أنَّـه سيحارب الإسلاميّين مُتوَقعٌ لا يُقدّم على الواقع.
3_ قيام الدولة الإسلاميّـة أعلى شأناً من ردّ الصائل، ولكنّ ردَّ الصائلِ لا يُتدارك فواته، فيُقدّم على المشروع الإسلاميّ الذي يمكن أن نتداركه بعد رد الصائل.

الكفار ليسوا سواء

أبو جهل يختلف عن المُطعم بن عَدِي، وكلاهما على دين واحد.
أبو لهب يختلف عن أبي طالب، وكلاهما على دين واحد ودرجة قرابة واحدة.
عقبة بن أبي معيط يختلف عن أُبَيّ البخترى بن هشام، ودينهما واحد.
من مزّق الكتاب (كسرى) يختلف عمن أرسل الهدايا (المقوقس). النجاشيّ كان يختلف عن غيره من النصارى وهو على النصرانية.
التسوية بين الجميع تُخرِجُ منك جاهلاً كبيراً في باب السياسة الشرعية.

من السياسة الشرعية في السيرة النبوية:

تتلخص السياسة النبوية بـ:
تَحْييدِ الخُصومِ وكسبِ الحلفاء وترتيبِ أولويّات المواجهة، بينما تقوم بعض الحركات الإسلاميّـة باستعداء المحايِدين وخسارة الحلفاء والعشوائيةِ في المواجهة.
وهنا نسرد بعض المواقف من السيرة:
1_ صلى رسول الله ﷺ وطاف في الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون صنماً.
2_ مَحا رسول الله ﷺ كلمة بسم الله وأمر بكتابتها كما أراد المشرك سهيل: باسمك اللهم، ومحا عن نفسه وصف الرسالة وكتب: محمد بن عبد الله.
3_ دخل رسول الله ﷺ بعد رحلة الطائف في جوار المُطعِم بن عَديٍّ المشرك وفي حمايته.
4_ تحالَفَ رسول اللهﷺ مع قبيلة خُزاعة ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، ولم يكونوا من المهاجرين بل كانوا يُساكنون الكفار.

5_ امتنع رسول الله ﷺ عن قتل من ارتدّ من أمثال عبد الله بن أبيّ بن سلول للمفسدة المترتبة على ذلك من التحريض والتشويه الإعلامي الكافر.
6_ استعان رسول الله ﷺ يوم حُنين بسلاح من كافرٍ هو صفوان بن أمية.
7_ عفا رسول الله ﷺ عن الطُّلقاء ولم يشترط عليهم دخول الإسلام.
8_ خاطب رسول الله ﷺ ملوك العالم بصيغة التعظيم والتبجيل وهو يدعوهم بدعاية الإسلام.
9_ وافق رسول الله ﷺ في الحديبية على تسليم كل مؤمن يأتي إليه من قريش مهاجراً ونفّذَ ذلك فعلاً.
10_ امتنع رسول اللهﷺ عن تصحيح بناء الكعبة وترَكها على بناءٍ مخالفٍ لقواعد إبراهيم حتى لا تتغير قلوب الناس.
11_ فكر رسول اللهﷺ جاداً أن يدفع ثلث ثمار المدينة للكفار من غطفان من أجل فرط تحالفهم مع الأحزاب.
12_ أسلم النجاشي وبقي يحكمُ دولةً كافرةً ويُخفي إسلامه وما أمره رسول الله بتطبيق الشريعة ولا بالتنحي حتى مات كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.
13_ قال رسول الله ﷺ بُعَيد بدرٍ "لو كان المُطعم بن عَدي حيَّاً وكلّمني في هؤلاء الأسرى لأطلقتهم من أجله" (وفاء له).

علينا أن لا نقع في القراءة البتراء والنظرة العوراء للسيرة النبوية، فلا يمكن أنْ نأخذ مشهد صلح الحديبية دون أنْ نتصور مشهد بيعة الرضوان قبلها، كما لا يسعنا أن نقرا مأساة أُحُدٍ دون أن ننظر في دلالات حمراء الأسد بعدها.

إنّ الأيادي التي كانت تمتد للصلح في الحديبية مع المشركين كانت قد امتدت لتعطي بيعة الموت قبلها من أجل نصرة هذا الدين

وإن الجراح النازفة في أُحد كانت تُضمدُ في موقعة حمراء الأسد في اليوم الثاني.

التقيّة السياسية عند الجماعات الإسلاميّة

التقية السياسية:

يَشيع عند المثقفين الإسلاميّين أنّ التقيّة من لوازم التشيُّع، وأنَّه شيء منكر بالعموم لا يجوز فعله بحال!

وهذا خطأ كبير، فقد أذِن تعالى للأمّة أنْ تتّقي من أعدائها وهي في حالة الاستضعاف والضرورة بضوابطها، قال تعالى:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ آل عمران: 28

قد تجتهد جماعة ما بإصدار بيانٍ أو خطابٍ فيه مجاملةٌ أو إجمال يَحتَمِلُ عدّة تفسيرات لتحقّقَ بذلك مكسباً سياسياً يرتقي إلى درجة الضرورة، فتقوم الجماعة

الأخرى المتربصةُ بها لتصفَ البيان بأنَّـه بيان الذلّ والعار والانبطاح والموالاة لأعداء الله، والمقصود من ذلك هو دغدغة عواطف الحاضنة الشعبية لتنصرف إليهم بدلاً من أنْ تبقى ملتفة حول الجماعة الأخرى المنافسة لها، مما يضطر الجماعة الأخيرة التي تمارس التقيّـة أنْ تُصدرَ عشرات البيانات لتبرِّرَ البيان الأول وكأنّ العدو قد نام وغفل، فإذا بها تخسر أضعاف ما كانت ترجو أنْ تكسبه، ولا تستطيع إرْضاء المنكرين حتى بعد التبرير، هذا الفعل كمن يُـنَـبِّهُ الدُّبّ لقذف الحجر!

قال عمر رضي الله عنه (حُقّ على كلّ مسلم أن يُقبّـل رأس عبد الله بن حذافة السّهمي، وأنا أوّلكم)

ماذا فعل عبد الله بن حذافة؟ قبّـل رأس ملكٍ ظالمٍ كافر قاتلٍ للمسلمين من أجل إطلاق الأسرى المسلمين فحمد عمر له هذا الفعل!

هنا لابُدّ من المفاصلة بين مصطلح الكَـيْد السياسي والنفاق السياسي والانتحار السياسي والمشاركة السياسية والتقية السياسية والعهر السياسي والتسقيط السياسي والتكفير السياسي.

أصبحنا بحاجة لتوضيح كثير من القضايا وهي من المُسلّمات بسبب الخلط بين مفاهيم الولاء والبراء ومسائل المعاملاتِ والسياسةِ الشرعيةِ والمداراة.

نصوص لعلماء الأمّـة في السياسة الشرعية:

*قال ابن تيمية رحمه الله : وسائر العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك، كل ذلك واجبٌ مع القدرة، فأمّـا مع العجز فإن الله لا يُكلّف نفساً إلا وسعها. ولهذا أمر الله المُصلّي أنْ يتطهّر بالماء، فإنْ عدمه أو خاف الضرر باستعماله لشدة البرد أو جراحة أو غير ذلك تيَمَّمَ صعيداً طيباً فمسح بوجهه ويديه منه. وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: "صلّ قائما، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب"

فقد أوجب الله أداء الصلاة في الوقت على أي حال أمكن، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:239 ا.هـ السياسة الشرعية 127/1

*قال السيوطي رحمه الله: ما أمر به لسببٍ ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال. وهذا في الحقيقة ليس نَسخا، بل هو من قسم المُنسأ، كما قال تعالى ﴿أو نَنسَأْهَا﴾ (وهي قراءة أبي عمرو البصري) فالمُنسأ: هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون،

وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل هي من المنسأ، بمعنى أنّ كلّ أمر ورَد يجب امتثاله في وقت ما، لِعِلّـة تقتضي ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنّـما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله. ا.هـ الإتقان في علوم القرآن النوع السابع والأربعين في ناسخه ومنسوخه.

*قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكُمَ بحكم القرآن، فإن قومه لا يُقِرُّونه على ذلك، وكثيرًا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً، بل وإماماً، وفي نفسه أمورٌ من العدل يُريد أن يعمل بها، فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (مجموع الفتاوى 218/19)

*وقال رحمه الله تعالى في الصارم المسلول 413/2: (فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح عمّن يُؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأمّـا أهل القوة فإنّـما يعملون بآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).

قلت: (وكأنّ شيخَ الإسلام رحمه الله تعالى جعل من أخذ الجزية مِعياراً لحال القوة ولحال الضعف، وللإنـكار على من أخذ بالعزيمة نظر والله اعلم .. انتهى)

*لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتَحْرِصُ على إبادتهم وجعلهم عَمَلَةً وخدماً له.

نعم، إنْ أمكن أنْ تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المُتَـعَيَّن، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفعٌ ووقاية للدين والدنيا مُقدّمة.

والله أعلم" انتهى تفسير السعدي (صـ 436، 437).

* قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

قال ابن عقيل: السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يُشرِّعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي، فإن أرَدْتَ بقولك " لا سياسة إلا ما وافق الشرع "أيْ لم يُخالف ما نطق به الشرع فصحيحٌ، وإن أردتَ ما نطق به الشرع فغلطٌ وتغليطٌ للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجحده عالم بالسِّيَر، ولو لم يكن إلا

تحريق المصاحف كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة، وكذلك تحريق علي كرم الله وجهه الزنادقة في الأخاديد، ونفي عمر نصر بن حجاج

قلت: هذا موضع مَزَلّةِ أقدام، ومَضَلّةِ أفهام، وهو مقامٌ ضَنْكٌ في مُعْتَرَكٍ صعب، فرَّطَ فيه طائفة فعَطّلوا الحدودَ، وضيَّعوا الحقوقَ ، وجَرّؤوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدّوا على أنفسهم طُرُقاً صحيحة من الطرق التي يُعرف بها المُحَقُّ مِن المُبْطِل، وعطلوها مع علمهم وعلم الناس بها أنَّها أدلّة حقّ، ظنّاً منهم مُنافاتُها لقواعد الشرع ، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها، فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة فأحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم، فتولَّدَ من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شرٌّ طويلٌ، وفسادٌ عريضٌ ، وتفاقمَ الأمر، وتعذّرَ استدراكه ، وأفرط فيه طائفة أخرى فسوّغت منه ما يناقض حكم الله ورسوله، وكلا الطائفتين أُتِيَتْ من قِبَلِ تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله، فإن الله أرسل رُسُلَه وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحقّ، وقامت أدلّة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يَحْصُر طُرُقَ العدل وأدلّته وأماراته في نوع واحدٍ وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدلّ وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصودَهُ إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأيّ طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها.

والطُّرُقُ أسبابٌ ووسائل لا تراد لذواتها، وإنّما المراد غاياتها التي هي المقاصد، ولكن نبّه بما شرّعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شِرْعَةٌ وسبيل للدلالة عليها، وهل يُظَنُّ بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟ ولا نقول: إنّ السياسة العادلة مخالِفَةٌ للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحي، وإلا فإذا كانت عدلاً فهي من الشرع، فقد حَبَسَ رسول الله ﷺ في تهمة، وعاقَبَ في تهمة لما ظهرت أمارات الرّيْبة على المتهم، فمن أطلق كلا منهم وخلى سبيله أو حلفه مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض ونقب الدور وتواتر السرقات _ولا سيما مع وجود المسروق معه_ وقال: لا آخذه إلا بشاهدَي عدل أو إقرارِ اختيارٍ وطوعٍ فقوله مخالف للسياسة الشرعية، وكذلك مَنَعَ النبي ﷺ الغالّ من الغنيمة سهمه، وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه، ومنع المُسيء على أمين سلب قتيله، وأخذ شطر مال مانع الزكاة، وإضعافه الغرم على سارق ما لا قطع فيه، وعقوبته بالجلد، وإضعافه الغُرْم على كاتم الضالة، وتحريق عمر بن الخطاب حانوت الخمار،

وتحريقه قرية يباع فيها الخمر، وتحريقه قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن رعيّته، وحلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه، وضربه صبيغاً بالدرة لما تتبع المتشابه فسأل عنه، إلى غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمّـة فسارت سنة إلى يوم القيامة، وإن خالفها من خالفها

ولقد حدّ أصحاب النبي ﷺ في الزنا بمجرد الحَبَل، وفي الخمر بالرائحة والقيء، وهذا هو الصواب، فإن دليل القيء والرائحة والحبَل على الشرب والزنا أولى من البينة قطعاً، فكيف يُظنُّ بالشريعة إلغاء أقوى الدّليلين، ومن ذلك

تحريق الصديق اللوطي، وإلقاء أمير المؤمنين علي _كرم الله وجهه_ له من شاهق على رأسه، ومن ذلك تحريق عثمان المصاحف المخالفة للمصحف الذي جمع الناس عليه، وهو الذي بلسان قريش، ومن ذلك تحريق الصديق الفجاءة السلمي، ومن ذلك اختيار عمر رضي الله عنه للناس إفراد الحج وأن يعتمروا في غير أشهر الحج، فلا يزال البيت الحرام معموراً بالحجاج والمعتمرين، ومن ذلك منع عمر رضي الله عنه الناس من بيع أمهات الأولاد، وقد باعوهن في حياة رسول الله ﷺوحياة أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه، ومن ذلك إلزامه بالطلاق الثلاث لمن أوقعه بفم واحد عقوبة له كما صرح هو بذلك، وإلا فقد كان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرا من أمـارته هو يجعل واحدة، إلى أضعاف ذلك من السياسات العادلـة التي ساسوا بها الأمّـة، وهي مُشتـقَّـة من أصول الشريعة وقواعدها.

وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد; فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها، وهذا الأصل من أهمّ الأصول وأنفعها، وهو مبنيّ على حرف واحد، وهو عمومُ رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنَّـه لم يُحْوِجْ أمّـته إلى أحدٍ بعده، وإنّـما حاجتهم إلى من يُـبَلِّغُهُم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عمومٌ بالنسبة إلى المُرْسَلِ إليهم، وعمومٌ بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه; فرسالته كافية شافية عامّـة، لا تُحْوِجُ إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحقّ الذي تحتاج إليه الأمّـة في علومها وأعمالها عمّـا جاء به. ا.هـ إعلام الموقعين

نتيجة:

نرى أنّ كثيراً من التدابير السياسية راجعٌ للمصالح المُرْسَلة وأنّ المنصوص عليه في السياسة الشرعية قليل، ممّا يجعل المجال مفتوحاً للاجتهادِ والاختيارِ على ما تقتضيه المصلحة

فالأصل في السياسة الشرعية الإباحةُ والابتداع من وسائل الضبط وما يتحرى به العدل وما يكون أقرب لتحقيق مصالح الرعية إلا ما دل الدّليل على حرمته...

الفصل الخامس

خارطة الطريق للمنهج الحركي الرشيد

رؤيةٌ وحلولٌ أوّلية لتصحيح مسار العمل الإسلاميّ

لا يمكن للحل أن يُنشَأ عن طريق كتابة بنودٍ وتنظيرٍ على الورق، هو يتمخض عن حركة أمّـة وصيرورة أحداث، ليندفع المولود الجديد بعد مخاض قد يكون مؤلماً وعسيراً.

الأمم التي ترتع في الفساد زمناً وتقطع فيه مسافة تحتاج أن تقطع نفس المسافة في الإصلاح، خصوصاً أنّ الرأي العام لا يتشكل إلا من قراءة الأحداث لا من قراءة الأفكار، هذا وليس بالضرورة أنْ يكون كَياناً حزبياً ولا منهجاً فكريّاً انفراديّاً، قد تكون دعوة تجديد على غِرار دعوات العلماء والمصلحين!

والمُـجدِّدون على رأس كل قرنٍ ليس بِدَعاً، بل من رحمات الله بأمم لم يعد فيها نذير.

نحتاج إلى لِيْنٍ وأخلاق وآداب "جماعة التبليغ" وهم يعتبرون [مدرسة سلوكية وتربوية]

نحتاج إلى فهم وعلم وعقيدة "أهل الحديث" وهم يعتبرون [السلفية وطلاب العلم الشرعي]

نحتاج إلى الفهم السياسي وفِقهِ الواقع عند "الإخوان وأمثالهم" فهم مدرسة [أحزاب

سياسية]
نحتاج إلى الخبرة العسكرية والقتالية عند "الجهاديين" وهم مدرسة [السلفية الجهادية]
نلاحظ أن كافة المدارس والأحزاب الإسلاميّة لا تستطيع النّجاح بمفردها ولا بإقصاء غيرها.
-معادلـة بسيطة:
[عالم + داعية + سياسي + مجاهد = بناء الدولة]
- التاريخ لا يسير باتجاه واحد
في الوقت الذي كان يَنْحَسِرُ مُلكُ المسلمين العرب عن الأندلس كان المسلمون الأتراك ينساحون في القسطنطينية وشرق أوربا.
ما يتعلق بهذا الطرح كثيرٌ جداً وشائك، والساحة مُغرقَةٌ بالتيارات وهذا من أسباب المآسي. إنشاء تيار جامع قد يكون مستحيلاً بالمعطيات وحتى منطقيّاً، وإنشاء تيّارٍ مستقلٍ عودةٌ ودخولٌ مُجدَّداً في دوامة الحزبيات المرهقة لكاهل المسلمين! ألاّ ترون معي إخواني أنّ هذا الاختيار يعني أنّنا سنمشي على نفس الخطوات التي سارت عليها التيارات السابقة، بل بنفس المُبَرّرات والدوافع = تيار جديد مخلّص!
قد نتفادى المطبات، ولكن لا يمكن تفادي أكبر مطبة ومُولدة المطبات وأمها، الحزبيّة و بناتها المعروفات كالعصبية – الإقصاء - الانحصار - التصارع - التمنهج الحزبي، الخ، و من ثم الابتعاد رويداً عن الأصل الذي لا بدّ من العودة إليه والذي "لا يقوم إلا على الشمولية والاستيعاب والتمسّك بأول العهد" فأنّى يتحقق ذلك، يَلزَمُه مراحل صحيحة، و لكن تقريباً كلّ الطرق اتُّخِذت و الأساليب جُرّبت.
جربت الأحزاب السياسية، التنظيمات الجهادية، إقامة دولة، فمنهم من يحاول سدّ ثغرة فيُحْدِثُ ثغرة أخرى، يحاول التركيز على جزء من الشريعة مفقودٍ فيفقد بسببه جزءاً آخر، يحاول الاستيعاب يقع في اللاواقعية والصدام مع باقي الأحزاب والحاضنة، الأمثلة كثيرة في كل التيارات، بين الدعوية والجهادية والسياسية والتعليمية ... ، والميلان مستمرّ رغم رغبة كلّ جديد في تعديل القوام!
هل يجب لفظ كل التيارات وما حملته، أم هل يجب الاستفادة من منجزاتها والاعتبار من أخطائها. هل يجب تجميع نتاجها والبناء عليه، هل وهل..؟
قد قدّموا ما عندهم ولهم ما كسبوا وجزى الله خيرا مُحسنهم، لكننا لم نصل بعد للمطلوب، والحكمة الربّـانيّة بالغة.
هذه مجرد ومضات، وسيكون الخلاص ربّـانيّا ومن تدبير الرب حكيم.

استلهام التجربة والتاريخ

قراءة في حديث القرون الأربعة الخيرية

المتأمّل في سيرورة الدعوة الإسلاميّة من فجرها الأول يلحظ أنَّها قامت على ثلاث محاور:

1-محور العلم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق:1-5 كانت أول ما نزل على رسول الله ﷺوقد أوْمَأ إلى العلم بالإشارة إلى وسائله وهي القراءة والكتابة

2-محور العبادة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ المزمل:1-6 لن يكون للإسلاميّين عز السلف ما لم يكن لَيْلُهُم كَلَيْلِ السّلف.

3-محور الدعوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ*﴾ المدثر:1-2

وكان من سمات هذه الدعوة: الربّانيّةُ، وكان الجهاد الربّانيّ خادماً للدعوة وفرعاً عنها، وكان الجهاد أيضاً جهاداً ربّانيّا واليوم عندنا دعوة وجهاد ولكنها دعوة حزبية وجهاد حزبي لا يَمُتُّ للربّانيّة بصلة إلا على مستوى بعض الأفراد

هذه السور الثلاث كانت أول ما نزل على رسول الله ﷺ وهي التي رسمت معالم الدعوة الأولى

جاء حديث القرون الثلاثة والذي ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: "خيرُ الناسِ قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: ثم يَتَخَلَّفُ من بَعْدِهِم خَلَفٌ تَسْبِقُ شهادةُ أحدهم يمينَه ويمينُه شهادتَه"

روى البخاري عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ"خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، قال عمرانُ: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعدُ قرنينِ أو ثلاثةً، قال ﷺ: إنَّ بعدَكُم قوماً يخونون ولا يُؤْتَمنونَ، ويشهدون ولا يُسْتَشهدون، ويَنْذِرونَ ولا يَفونَ، ويَظْهَرُ فيهمُ السِّمَنُ"

المتدبّرُ للحديث ورواياته يقف على ملاحظتين:

1-الأولى أنّ المراحل والقرون هي ثلاثة أو أربعة على حسب ما شك الراوي، هناك من بنى على الأقل، ولكن طالما أنّ الكلام عن الخيرية _والطمع في الخير

فطرة للإنسان_ سوف نبني على الأربعة وليس على الثلاثة.
2-والثانية أنّ الخيريّة غير مقرونة بصفة أو مزيّة، لأنّ الله عزّ وجل عندما تحدث عن خيرية الأمّـة ربط ذلك بالمزيّة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ﴾ آل عمران:110

فما هي المزايا التي تميّز بها كلّ قرن حتى حاز هذه الخيريّة؟ ولماذا لم تُجْمَل القرون الأربعة بحكم واحد في الخيرية؟
الآن نأتي لسَبْرِ هذه القرون الأربع:

- القرن الأول: وهو عصر النبي ﷺ وأصحابه، في هذا العصر كانت الخيرية في أنّ المحاور الثلاثة (العلم -العبادة -الدعوة) كانت تسير بشكل متوازي لا يطغى فيه جانب على آخر.

في العبادة كان أصحاب رسول الله ﷺ أشد الناس اجتهاداً في العبادة وقيام الليل، وفي العلم كان العدد محصوراً فيمن يُفتي، وبدأت تتشكل مدرسة النص ورائدها عمر رضي الله عنه ومدرسة الرأي ورائدها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أمّـا الدعوة فقد تضاعف عدد المسلمين أضعافا كثيرة وكان دخول الناس في الإسلام أحبّ إلى عمر رضي الله عنه من جلب الجزية.

-أمّـا القرن الثاني: الذي برزت فيه الدعوة والجهاد، ولا نقول أنّ العلم والعبادة غائبة، ولكن كانت الدعوة هي الجانب الأميز حيث بلغت دولة الإسلام من بواتيه إلى الصين ودخل الناس في دين الله أفوجاً وكسب الإسلام شعوباً كاملة ووصل عقبة إلى المحيط.

-في القرن الثالث: أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية تراجعت العبادة والدعوة ولم يذكر التاريخ أنّ العباسيين كسبوا أراضٍ أو شعوبا جديدة إلى الإسلام وكان جهادهم هو للحفاظ على حدودهم وهمتهم منصرفة إلى العلم والتصنيف، وقد ظهر الأئمّـة الأربعة وقوي التأليف والتدوين والترجمة، ولكن الترجمة كانت ترجمة استجلاب من الثقافات الأخرى ولم تكن تصديراً لعلومنا الإسلاميّـة وخدمة للدعوة وتسهيل الفهم على الأعاجم.

- في القرن الرابع: وهو بداية مرحلة الانحدار، مالت الأمّـة إلى الملذات والترف وظهر كردّة فعل العُبّاد من المتصوفة والزهاد وحلق الذكر، ولا نقول أنَّـها لم تكن موجودة ولكنها في هذا القرن كانت أوضح وأجلى، فكان الجنيد وأبو علي الدقاق وذو النون المصري ورجالات الرسالة القشيرية.

-ثم جاء القرن الخامس: فإذا بالأمّـة قد توقفت الدعوةُ عند حدودها التي بدأت تتناقص، وصار العلم متوقفاً على الفروع المذهبية وأغلق باب الاجتهاد ومال المتصوفة والعبّاد فيها إلى التخريف، وهي المرحلة التي انتهت بالسقوط العسكري للأمّـة أمام جحافل التتار.

واليوم إن أرادت الحركات الإسلاميّـة أن تُصحِّحَ مسارها وتسترشد طريقها لابُدّ أن تعود لما بدأت به قرون السلف وتفعيل المحاور الثلاثة، رحم الله الإمام مالكاً يوم قال: "لن يَصلُحَ آخر هذه الأمّـة إلا بما صلح به أولها".

صراع الكليات والمواجهة الشاملة لأجل ترشيد الحركات الإسلاميّـة:

من أسبابِ الهزائم المتلاحقة للحركات الإسلاميّـة أنهم يخوضون معركةً جزئيةً مع عدوّ يُمارس حرباً شاملة، حتى إنّ كثيراً من طاقات هذه الحركات تُصرف في النزاعات البينيّـة بدل أن تتوجه للخصوم الذين يضعونهم اليوم في كفة واحدة، الأمر الذي أفقد الحاضنة الشعبية والثقة بمشاريع هذه التيارات، حتى قال البعض: لو كانت الحركات الإسلاميّـة قادرة على حلّ مشاكل الأمّـة لحلت مشاكلها البينيّـة أولاً! فما يكسبونه بالجهاد يخسرونه بالسياسة، وما يكسبونه بالسياسة يخسرونه بالاقتصاد، وما يكسبونه بالاقتصاد يخسرونه بالفكر.

إلغاء ونسف الحركات الموجودة على الساحة مُحال، وإيجاد حركة بديلة زيادة في التـحزّب وإضافة جديدة للانقسام، والحق مبثوث في جملة الأحزاب.

التكامل بين هذه الحركات موجود ولكن التواصل غائب:

هناك من يطرح رؤيةً لا أعرف مدى نجاعتها:

المُتأمّل بالحركات الإسلاميّـة اليوم يجد كلّ فئة تُضخِّم عندها جزءاً من أجزاء الدين وغالت فيه على حساب المشهد الكلّي.

لو حولنا عمل هذه الحركات إلى حركة عضوية متناسقة من خلال نزع بذور الصراع بينها أولاً ثم اعتبار كل ما تقوم الحركة الأخرى مُكمّلاً لما يقوم به غيرها. المزج بين هذه المناهج والمشاريع يُحدث شيئاً من التوازن، وذلك بتوظيف جهد الآخرين بدلاً من تضليله، بهذا المزج ينخفض عند جماعة العمل السياسي المصلحي ما غالوا فيه ويرتفع عندهم معدل التزكية والجهاد، وكذلك ينخفض معدل الغلوّ في الجهاد عند البعض ليرتفع معدّل السياسة، وينخفض عند الثالث الإغراق في التنظير ليفتح عينه على الواقع.

وهكذا نصل إلى حركة إسلاميّة تمتاز بالشمول والتوازن وتنظر للمخالف على أنَّـه المُكمّل وليس الندّ.

لكن هذا الأمر يحتاج منا إلى دعامتين:

أ-أن يتولى حمله والترويج له علماء ربّـانيّون هم محل ارتضاءٍ من الجمهور الأوسع من الأمّـة، لم يُحسَبوا على حزب بعينه.

ب-أن نتلمس هذا الاعتدال من خلال الوقوف بين صريحِ وصحيحِ النصوص وليس بين مناهج الجماعات.

فإنَّـه مما يعلو به صوت النكير والنذير العريان على أحزاب تتصارع على الجزئيات في الزمن الذي يتصارع العالم فيه على الكليات، ويغيب اتفاقنا على الموجود ويشتد نزاعنا على المفقود.

تحديدُ الثابتِ والمتغيّر في الشريعة

الجمع بين المرونة والثبات من خصائص الشريعة الإسلامية

تعرف المرونة بأنها هي (الحدُّ الفاصلُ بين الثباتِ المطلقِ الذي يصل إلى درجة الجمود، والحركةِ المطلقةِ التي تخرج بالشيء عن حدوده وضوابطهِ، أي أنّ المرونة حركة لا تسلب التماسك، وثبات لا يمنع الحركة)

في كلّ منظومة فكريّة أو أيديولوجية هناك الدائرة الصلبة والدائرة المرنة

هناك من يظهر الإسلام بمرونة مفرطة تشابه الماء الذي يأخذ شكل الإناء الذي يوضع به

وهناك من يظهره بمظهر التصلب المفرط كالجليد الذي يكسر كل إناء يوضع به

في الإسلام هناك دائرة صلبة (العقائد، العبادات، المحرمات القطعية) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الكافرون:2

وهناك الدائرة المرنة (الوسائل والأساليب والسياسة الشرعية) التي يناوِر فيها السياسيون (امحُها يا علي، اكتب محمد بن عبد الله)

شواهد المرونة في القرآن

قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران:159. وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الشورى:38

والشورى: مبدأٌ إسلاميٌّ ثابتٌ، وتتمثل المرونة هنا في أنه لم يُحدد الشرعُ شكلاً معيناً للشورى، ولا ما هي الصور والمسائل التي تجري فيها الشورى، ومن هم أهل الشورى وما هي إجراءاتها، وهل نتيجتها ملزمة أو لا
وتتمثل المرونة أيضا (في عدم تحديد شكلٍ معينٍ للشورى، يلتزم به الناس في كل زمانٍ وكل مكان فيتضرر المجتمع بهذا التقييد الأبدي، إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو العصور أو الأحوال

شواهد المرونة في السنة النبوية

يتمثل الثبات والمرونة معا في موقفه ﷺ من وفد ثقيف وقد عرضوا عليه أن يدخلوا الإسلام ولكنهم سألوه أن يدع لهم اللات والعزى التي كانوا يعبدونها في الجاهلية فأبى رسول الله ﷺ ذلك، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِمْ فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا وَلَا يُجَبُّوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَكُمْ أَنْ لَا تُحْشَرُوا وَلَا تُعْشَرُوا وَلَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ " رواه أبو داوود وغيره ، ومعنى يحشروا أي ينفروا إلى الجهاد، ويعشروا أي يدفعوا الزكاة ، ويجبوا أي يركعوا، فترك لهم النبي ﷺ الجهاد والزكاة ولم يترك الصلاة

وَقَدْ سُئِلَ جَابِر بْن عَبْد اللَّه عَنْ اِشْتِرَاط ثَقِيف أَنْ لَا صَدَقَة عَلَيْهَا وَلَا جِهَاد، فَقَالَ عَلِمَ أَنَّهُمْ سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا.

كما سألوه أن يعفو من الصلاة فقال ﷺ: ((أما كسر أصنامكم بأيدكم فسنعفيكم منه وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه)). أما العقائد لا يتنازل ولا يترخص كما في أمر اللات وأمر الصلاة، وأما في الكيفيات ففيها فسحة للترخص والمسامحة كما في كسر الأوثان بأيديهم.

وكمثال آخر يؤكد حرص النبي ﷺ على الثبات تطبيقه للحدود بغض النظر على من يقام عليه الحد ومن ذلك ما ورد في قصة المخزومية التي سرقت وحاولت قريش تخليصها بشفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه لها.

ويمثل جانب المرونة عندما نهى ﷺ إقامة حد السرقة في الغزو

ومثال ذلك ما أورده البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ

يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ) . قال ابن حجر موضحاً هذا المعنى: (ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه). وعلق النووي على هذا الحديث بقوله: (وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام منها: إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم؛

حتى في المصادر التشريعية هناك المصادر الثابتة، يسميها الأصوليون بالمصادر الأصلية وهي (القرآن السنة الإجماع)

وهناك المصادر المرنة، ويسميها الأصوليون بالمصادر الفرعية وهي أدوات الاجتهاد (القياس، الاستحسان، الاستصحاب، المصالح المرسلة، سد الذرائع)

الخوارج ومن ينتهج فكرهم جعلوا من الإسلام دائرةً واحدةً صلبة فتكسَّروا لأنهم لا يستطيعون المناورة، فينزلقون في مزالق التكفير

والمرجئة جعلوا من الإسلام دائرة واحدة مرنة فتميّعوا ومناوراتهم تكون على كلّ الدائرة فينزلقون في مزالق الكفر.

الحركة الإسلامية بين (الرخصة والعزيمة) السياسية

تعاني الحركة الإسلامية أزمةً حقيقيةً في تحديد الموقف المناسب بين الرخصة والعزيمة السياسية منها والجهادية

الرخصة في الشرع "ما ثبت على خلافِ دليلٍ شرعيّ لمعارض راجح"

وقال الآمدي: الرخصة: ما شرع من الأحكام لعذر مع قيام السبب المحرم

يقول سفيان الثوري: الفقه الرخصة من ثقة والشدة يحسنها كل أحد.

معرفة قدرات الأفراد لدى الجماعة هي التي تحدد إيقاع السير وإمكانيات المواجهة قبل اتخاذِ القرارِ الجهادي هو الضامنُ لنجاح القيادة في تحريك الجماعة نحو غايتها

القيادة التي تتخذ قرارها دون معرفةٍ لقدراتِ أفراد الجماعة قد تسوقها بذلك إلى الانتحار والتهلكة

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يُطِيقُ " مسند أبي حنيفة

لم يفرض رسول ﷺ الحرب والمواجهة على الأنصار يوم بدر وما قرر الحرب إلا بعد موافقتهم، فما بال البعض يريد أن يزج الأمة في محاربة العالم ودون أن توكله الأمة بقرارها

السير على سير الأقوى يودي إلى تساقط الأفراد في طريق الدعوة والجهاد حال نفاد الطاقة لأنه من المُسَلَّم به بداهةً تفاوت البشر بالقوة والتحمل وهذا التفاوت وجد حتى بين الأنبياء فأولوا العزم من الرسل ليسوا كغيرهم من الأنبياء

والسير على سير الأضعف قد يودي إلى تأخر الحصاد ولكنه يحافظ على تماسك الجماعة والمحافظة على تماسك الجماعة مع تأخر الوصول والحصاد خير من تفتيت الجماعة مع سرعة الوصول والحصاد، كما أن تخفيف الصلاة مع تكثير الجماعة أولى من إطالة الصلاة مع افتتان بعض المصلين بترك الجماعة، لذلك كان التوجيه النبوي للأمة أن تسير على سير الأضعف

لا ينبغي للأمير أن يحمل الأمة على العزيمة كرها وإن أخذ بها في خاصة نفسه

هاجر عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاهراً متحديا

وهاجر رسول الله ﷺ مستخفيا متواريا

ليس لأن عمر أشجع من رسول الله ﷺ ولكن فعل عمر يبقى تصرفاً شخصياً وفِعل رسول الله محل اقتداء لو فعل ذلك لشق على أصحابه المتابعة.

حتى في قضية الجهاد ذروة سنام الإسلام كان يتخلف عن الغزوة شفقة بأمته فقال ﷺ (لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله) رواه البخاري ومسلم وغيرهما (وهذا لفظ البيهقي في السنن الصغير)

والمتتبع لكثير من أحاديث السنة يجد امتناع رسول الله ﷺ عن كثير من الأعمال التي يحبها لكنه يمتنع خشية أن تفرض على أمته كما أمتنع عن الخروج للتراويح

-مشكلة بعض الجماعات الإسلامية أنهم يُبطلون الاستدلال بالسيرة النبوية وبما فعله رسول الله ﷺ ولو تشابهت الحالة ضعفاً ومكنة، بناء على أن ما فعل في السيرة حال الاستضعاف كان لما كانت الشريعة لم تكتمل أما وقد اكتملت شريعة الله تعالى فلا يجوز ذلك بحال.

بل إن منهم من يبطل كل العمل السياسي بآية السيف، وهذا خطأ بيِنٌ لأننا لا نقول بأن التزام الجماعات الإسلامية بمراحل السيرة النبوية وإسقاط مراحلها على عمل الجماعة هي مسألة وقفية.

وإنما نقول إن ارتباط التكليف بالقدرة حكم ثابت لا يلغيه اكتمال الشريعة بل هو من كمال الشريعة وما فعله رسول الله ﷺ في السيرة من الترخص وترك العزيمة هو من هذا الباب

هناك عدة أحاديث صحيحة تبدأ بـ (لولا أن أشق على أمتي)

وجدنا من يحمل الأمة على العزيمة في زمن الاستضعاف بطريقة التلبيس في توصيف الحالة عن طريق ضخ ثقافة معينة لا تتحملها الساحة بل تتطلب غيرها تماما كمن يُدَرِسُونَ أحكام جهاد الطلب في ساحةٍ الجهادُ فيها جهادُ دفعٍ لسبب وحيد أنهم لا يعرفون الجهاد إلا فرعاً عن التكفير!

كثيرٌ من الجماعات الإسلامية تُعرض عن الرّخصة إلى العزيمة لا لقناعتها وليس ورعاً وإنما بسبب دخول ماراتون من المزايدات مع الجماعات الأخرى التي تنتظر منها هكذا خطوة لتقلب مزاج الاتباع على قادتها وكسب أتباع جدد من خلال المتاجرة وتصوير الرخصة بالخيانة وكذلك التزيي بأردية الزور والتشبع بالمفقود لدغدغة عواطف الأتباع الذين يطربون لهذا النوع من الخطابات والشعارات

فقد عرفنا كثيراً من القادات أعرضوا عن إصلاحات وأمورٍ رشيدةٍ خوفاً من خسارة الأتباع السفهاء الذين قد يفسرون الرخصة طعناً في الدين وخيانة لله ورسوله حتى غدت خشية القادة من الأتباع أكثر من خشية الأتباع للقادة، فتعيش حالةً من الحجر على التصرفات والقرارات الشرعية في مؤداها من خلال إحاطتها بمجالس شوريةٍ صوريةٍ ليس مهمتها تقديمَ الشورى بقدر ما تكون مهمتها ممارسَة الحَجر على القيادة، والسبب نوعَ التغذية التربوية التي نما عليها هؤلاء ضمن القوالب الجامدة والتي يبوء بإثمها موجّهون أساؤوا التربية بالتثقيف الأحادي الذي يراعي الحالة العسكرية الجهادية فلما وصلوا إلى مرحلة القطاف السياسي للجهد العسكري وجدوا القاعدة غير مهيأة للانتقالِ إلى الجهاد السياسي بسبب فقد التوازن في التوجيه والإعداد، وهذا بسبب ضعف التدبر للسيرة النبوية

نجد في الحديبية الأيادي التي امتدت لصلح الحديبية كاستحقاق سياسي، هي نفس الأيادي التي امتدت لبيعة الموت تحت الشجرة قبلها، فالتربية الجهادية والسياسية تسير سواء بسواء.

لقد كان تغيير القبلة أمراً عظيماً على قلوب أصحاب رسول الله ﷺ وكانت الحكمة ليعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ولكن لما كانت التربية الإيمانية لأصحاب رسول الله ﷺ راسخة وثقتهم بدينهم ورسولهم كان التسليم المطلق حتى أنهم غيروا اتجاههم بعد ركعتين من صلاةٍ رباعيةٍ وسمي المسجد مسجد القبلتين

هذا لما كانت الجماعة على حالٍ واحد من الإيمان والتسليم

ولكن بعد الفتح مجرد تصحيح القبلة لم تقدم عليه القيادة النبوية لعدم الثقة بمسلمة الفتح حديثي العهد بالجاهلية

مراعاة تراتُبِيّة بناء الجماعة وضبط مراحله

الاجتهادات متعدّدة في فكر الجماعات الإسلاميّة في هذا الشأن

الشيخ الألباني رحمه الله نادى بالتصفية والتربية وقال: سيأتي يوم ندخل فيه معترك السياسة، أمّا الآن فمِنَ السياسةِ ترْكُ السياسة

أمّا الإخوان المسلمون فقالوا إنّ مراحل الدعوة ثلاثٌ حددها الإمام حسن البنا - رحمه الله- وهي التعريف والتكوين والتنفيذ.

أمّـا السلفية الجهادية أيضاً قامت على ثُلاثـيّة الهجرة ثم التربية ثم الجهاد.
أمّـا حزب التحرير فهو مغرق في التنظير وحمل بضاعته لأهل الشوكة والتمكين من أجل تحويل مشروعه من النظرية إلى التطبيق، ولكن ليس له رؤية للوصول إلى التمكين إلا من خلال طلب النصرة.
إذاً من خلال الاستقراء نجِدُ الإجماعَ منعقداً عند كلّ الجماعات الإسلاميّـة على أن يكون البدء ببلورة المشروع قبل عرضه وتنظيم المؤيدين له والسير بهم نحو تحقيق أهدافه.
هذه هي المراحل التي نجدها عند مجموع الجماعات الإسلاميّـة

1. التأصيل
2. التصفية
3. التربية
4. التكوين
5. التنفيذ

1-**التأصيل** يجب أنْ يكون لمنهج الاصطفاف السُّنِّـيّ وليس للتحزّب والمناهج الحزبيّـة القاصرة.
2-**التصفية** لكلّ أسباب النزاع بين الجماعات السُّنِّيّة الإسلاميّـة وترسيخ مفهوم الأمّـة بدلاً من مفهوم الطائفة والجماعة.
3-**التربية** على منهجٍ وخطابٍ يستوعب الأمّـة ويَخرج من الدائرة الحزبيّـة ويتصف بالشمول.
4-في هذه المرحلة يجب أن يبتعد أهل السنة عن تكوين التنظيمات الممنهجة ويَحِلّوا التنظيمات الموجودة ويتجهوا إلى التنظيمات الورشية على أساس الاختصاصات الكفائية أشبه ما تكون بالمنظمات المِهَنية، والاتجاه للإنتاج المادي ووسائل الانعتاق والتحرر قبل حسم الخلافات المنهجية.
5-التنفيذ: تقوم هذه الورَشُ بإنجاز ما تحتاجه الأمّـة من خدمات وتقديم هذه الخدمات للجميع، وتركز على جانب الإعداد والإنتاج المادي، مما يُقوِّي قابلية الأمّـة للمقاومة والمواجهة بدون أن تَمُدّ يَدَها ويُصادر قرارها السياسيّ، وحتى تمتلك قرارَها السياسيّ عليها أن تستقل بالكفاية الاقتصاديّة، وتكون هذه الخدمات بعيدة عن الدعاية الحزبيّـة والمآرب السياسية النفعية وتقدم للأمّـة بدون قيد أو شروط مسبقة أو تمييز.
هناك تنظيمات ما زالت في دائرة التأصيل لمشروع الخلافة لم تخرج منه، واقتصار خروجها للبحث عن نصير لمشروعهم!

السلفية العلمية لم تخرج من التصفية للبدع والتربية على الهدي الظاهر، ولا زالت تراوح بينهما!

الصوفية وجماعة التبليغ اتجهت إلى التربية والتزكية متجاوزةً التأصيل وتصفية المنهج من الدخن فرَبّت أتباعها على مناهج تشرّبت بالدَّخن!

الحركات الإسلاميّة التي خاضت غمار السياسة توجهت نحو التجميع بدون تربية، فكوّنت حاضنة شعبية نفعيّة سرعان ما تنقلب ضدها!

الحركات الجهادية انطلقت إلى التنفيذ وممارسة صلاحية ولي الأمر على مجتمع لم يَنَل حظَّهُ من التربية والدعوة، فدخلت بصراع دامٍ مع المجتمع الحاضن.

قامت فكرة السلفية الجهادية على معطيات صحيحة في تشخيص الأعداء ومفاصل قوتها وعلى خطأ فادح في أسلوب المواجهة كانت الفكرة تتلخص أن الغرب المركز يتحكم بمفاصل القوة والسيطرة على العالم التي تتشكل من ثالوث

1-القدرة العسكرية

2-القدرة الاقتصادية

3-الشرعية الدولية

وكانت الفكرة في ضرب هذه المفاصل من خلال تدمير القوة العسكرية بالجهاد

واستنزاف القدرة الاقتصادية في حروب طويلة الأمد نظراً لرخص وسائلها في الصراع وارتفاع أثمان التكلفة العسكرية للغرب

وكانت مواجهةُ الشرعية الدولية كأداةِ سيطرةٍ للولايات المتحدة في إدارة العالم برفع ما يسمى توحيد الحاكمية المستمد في أدبياته من سيد قطب وأبي الأعلى المودودي رحمهما الله

أول أخطاءِ هذه الاستراتيجية أن القاعدة انصرفت إلى ضرب مفاصل قوة الغرب دون أن تسعى لامتلاك القوة الرّادعة مما يوازيها بالإعداد فانشغلت بهدم الغرب أكثر من انشغالها ببناء نفسها فتضخم الجهاد لديها على جانب الإعداد الذي اقتصر على التغذية الفكرية والعقدية المتمحورة حول العقيدة والجهاد (منبر التوحيد والجهاد مثالاً)

ثانياً -كان الاستنزاف الاقتصادي للغرب عبارةً عن أثرٍ ضعيفٍ جداً لأن تكلفة الحرب لدى الغرب كانت تتوزع على دول عديدة من المنتجين للنفط (من أموال المسلمين) خاصة من كانوا يسددون فاتورة الحروب الأمريكية على الإرهاب ثم إن الاقتصاد الأمريكي قوته من الدولار ذي القوة الذاتية ليس له أي رصيد من

الذهب فلا يكلفهم أكثر من الطابعة والحبر والورق عملة مدعومة برصيد القوة وليس برصيد القيمة

ثالثا-قضية الغلو في الحاكمية جعلت من السلفية الجهادية حاضنة للفكر الخارجي الذي انتهى بانقسامها واقتتالها البيني وقبل ذلك وضعها في مواجهة الأنظمة العربية وقطاع واسع من أبناء الأمة بدلا من الغرب لمسألة تتعلق بفقه الجهاد وإشكال عقدي بعد الحكم على الأنظمة بالردة مما جعل مواجهة هذه الأنظمة أولوية تتقدم على مواجهة الغرب الكافر الأصلي وبذلك تكون قد اتجهت إلى ذنب الأفعى بدلا من رأسها.

حركة التجديد والانبعاث في الأمة

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ " إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا ". الناظر إلى موضع هذا الحديث في أبواب السنن _وخصوصاً في سنن أبي داوود _ يجد أن الإمام أبي داوود ـ صدّره في أول باب من كتاب الملاحم، فقال: "كتاب الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة. حدثنا سليمان بن داوود المهري" فذكر الحديث.

والملاحم جمع مَلحَمَة، ويراد بها المعارك والأحداث الجسام التي تقع في المستقبل بين المسلمين وأعدائهم، مأخوذة من الْتِحام الجيشين المتحاربين، لذا يذكر أئمة الحديث في هذا الباب الأحاديث النبوية الواردة في قتال المسلمين للتُّرْك والرومان واليهود وغيرهم، ونسأل هنا: لماذا كتب أبو داود هذا الحديث في هذا الباب؟ نقول: إنّ هذا من فقه أئمة الحديث وبراعتهم في التصانيف.

وذِكْرُ أبي داوود لهذا الحديث في هذا الموضع فيها لطائف نراها، ومنها:

1-أنّ المُـجدِّد ليس بعيداً عن الأحداث الجسام التي تتعرض لها الأمّـة، وعن الحروب المعلنة على الإسلام، فليس مكان المُـجدِّد في الأبراج العالية بعيداً عن الأحداث التي تعصف بالمسلمين، كما أنَّـه ليس بعيداً عن ذروة السنام: الجهاد، وليس المُـجدِّد بالذي لا يضع يده في يد المسلمين في جهادهم ضد أعداء الإسلام.

2-أنّ من معاني تجديد الدين انتصار الدين في تلك الملاحم والحروب التي قامت وستقوم لمحاولة هدم الدين. وكأن الإمام أبي داوود بتقديمه هذا الحديث على كل أحاديث الملاحم، يريد أنْ يؤكّد السُّـنن الربّـانيّة القائلة بانتصار الدين الإسلاميّ في نهاية تلك الحروب. فأورد حديثَ التجديد الذي يُبشّر بالمكانة والريادة لأمّـة المسلمين.

3-أنّ الملاحم والحروب التي أخبر عنها الرسول ﷺ تهدف بالأساس إلى القضاء على هذا الدين، أو تشويهه. فمن ثم يأتي دور المُـجدِّدين للدفاع عن هذا

الدين، وعن ثوابته، ويُحْيون ما اندرس منه من المعالم بفعل أعداء الإسلام وحروبهم.

4-أنّ عملية تجديد الدين عملية جهاديّة من الدرجة الأولى، وهي تغيظ أعداء الإسلام، لما يقوم به المُجدِّدون من إحياء الفرائض الغائبة والسُّننِ المُغيّبة ومَحْقِ البدع والخرافات الدَّخيلة، لاسيما تلك الأفكار الخبيثة التي دسها أعداء الإسلام في عقول العرب وسلوكياتهم وأخلاقهم. لذا كان الإمامُ أبو داوود فقهياً حقاً عندما كتب هذا الحديث في باب يتحدث عن الجهاد ضد رايات الكفر اليهودية والصليبية.

5-حاجة الأمّة الإسلاميّة إلى المُجدِّدين تكون أشدّ وأعظم في زمان الفتن والملاحم، لاسيما تلك الحروب المعلنة على الإسلام، إذ وظيفة المُجدِّد هو النهضة بهذه الأمّة، والخروج بالأمّة من عثراتها. سالمة غانمة منتصرة.

في هدف الحديث:

"يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمّة. فهو يريد أن يرسل رسالة إلى أتباع هذه الدنيا مفادها أن هذا الدين لن يموت، وأنّ الله يُقيّضُ لهذه الأمّة في كلّ فترة زمنية من يُجدّد فهمها وأفكارها نحو هذا الدين، وأنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لن يدع هذه الأمّة تتيه بعد وفاة رسولها ﷺ فقد قرّر ـ عز وجل ـ أن يُرسل لهذه الأمّة من يوقظها من سبات، ويجمعها من شتات، وينصرها من هزيمة، ويحرّرها من طغيان. وبالتالي فإن هذا الحديث الجليل يقف ضد موجة اليأس والانهزام والقُنوط، التي يبثها المثبّطون والمعوّقون، الذين يوحون إلى الناس بأن الإسلام في إدبار والكفر في إقبال وأنّه لا فائدة ولا أمل في التمكين للمسلمين في الأرض، كما مكّن الله الرعيل الأول من أتباع محمد ﷺ ومن ثم تأتي وظيفة هذا الحديث وأمثاله _من المُبشِّرَات_ بقذف قمم اليأس التي خيمت على النفوس، وحرق أشجار القنوط الخبيثة.﴿يَا بَنِيّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف: 87.

والحق أنّ في السنة النبوية الكثير والكثير من الأحاديث المبشرة بنصر الإسلام والتمكين له، وكلها أحاديث تتكاتف مع حديث المُجدِّد من حيث وحدة الهدف، في كون هذه الأمّة منصورةً، مُمَكّناً لها، ومن أمثلة تلك الأحاديث الكريمة: قول الرسول ﷺ:

1-"بَشِّر هذه الأمّة: بالتيسير، والسناء، والرفعة بالدين، والتمكين في البلاد، والنصر. فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب" رواه الإمام أحمد

2-"مَثَلُ أمّتي، مثلُ المطر، لا يدري أوله أخَيْر أم آخره." أحمد والترمذي

3-"لَيَبْلُغَنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعزِّ عزيزٍ أو ذلِّ ذليل، عِزّاً يُعِزُّ اللهُ به الإسلام وذُلاً يُذِلُّ اللهُ به الكفر" أحمد والنسائي

4-"تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممن سمع منكم" رواه أبو داوود

5-"تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يَرْفعُها الله تعالى، ثمّ تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون مُلكاً عارضّاً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون ملكاً جبرية فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة" ثم سكت. رواه أحمد

6-"إنّ الله زوى لي الأرض! فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمّتي سيَبلُغُ مُلكها ما زُوِيَ لي منها". رواه مسلم

وبالجملة فإن هذه الأحاديث لاسيما هذا الحديث العظيم (أي حديث المُـجدِّد) من البشائر التي وعد بها النبي ﷺ وإنّ هذا الحديث العظيم ليمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد بنصر الله لعباده المؤمنين، ويمنحه فوق هذا دفعةً قويةً محركةً للعمل والبذل والجهاد والتضحيةِ رجاء أن يَكتُب له المولى تباركَ وتعالى ثواب المُـجدِّدين.

في لطائف الحديث:

1-أول ما يَستوقف المتأمل في هذا الحديث الكريم؛ هو قول النبي ﷺ "يبعث اللهُ"! وهو بذلك يقذف في قلب المستمع من أول وهلة سيلاً من الثقة والإيمان يَشي بعناية ورعاية المولى تبارك وتعالى للمُـجدِّد، وكلمة البعث هنا توحي بأنّ الله تعالى يرسل لهذه الأمّـة من يصطفيه ويجتبيه من عباده ليحمل أمـانة التجديد وتبِعَة النهضة ومسؤولية الإحياء، وكأنّ المُـجدِّدين هم رسل الله بعد الأنبياء غير أنَّـه لا نبي بعد محمد ﷺ

2- وانظر إلى قوله: "لهذه الأمّـة"، نعم، قوله: "لهذه الأمّـة"، فالتجديد الإسلاميّ يهدف بالأساس مصلحة هذه الأمّـة جمعاء ، وكل مصالحها السياسية والاقتصاديّة والفكرية والتربوية، الخ، كما أنّ المُـجدِّد ليس بالذي يعيش لنفسه، أو يعيش معزولاً عن الأمّـة، حبيسَ الكتب والمكتبات، إنَّـه بذلك يعيش من أجل نفسه بل من أجل شهواته، يعيش من أجل أن يُشبع بطنه بحبر قلمه! ولكنّ المُـجدِّد الحقيقيّ هو الذي يعيش بكل كيانـه لهذه الأمّـة، ولأبناء هذه الأمّـة مهما كان مكانهم ومهما كان حالهم ومهما كانت أرضهم، "إنّـنا نعيش لأنفسنا حياة مضاعفة، حينما نعيش للآخرين".

3-ثم قال: "على رأس كل مائة سنة"، ومعروف أن رأس الشيء أعلاه، ورأس الشهر أوله، ورأس المال أصله، هنا يتساءل الشراح عن بداية المائة، فقال المناوي: "يحتمل من المولد النبوي، أو من البعثة، أو من الهجرة، أو الوفاة، ولو قيل بأقربية الثاني (أي البعثة) لم يبعد، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث" (أي الهجرة).

وذلك لأنهم في حديثهم عن المُجدِّدين اعتبروا التاريخ الهجري هو الأساس، وهو معقول، لأنَّـه التاريخ الذي ألهم الله المسلمين منذ عهد عمر أن يؤرّخوا به دون غيره، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة. هذا وقد قال بعضهم في قول النبي ﷺ"على رأس كل مائة سنة"، يعني في أوّلها، وقال آخرون بل في آخرها، كما يلاحظ أن أكثرهم جعلوا العبرة بوفاة المُجدِّد في رأس القرن، كما يظهر ذلك في وفيات الذين عينوهم: فعمر بن عبد العزيز توفي رحمه الله في سنة 101هـ، والشافعي توفي - رحمه الله - في سنة 204هـ، وابن سريج (ت306هـ)، والباقلاني (ت403هـ)، والغزالي (ت 505هـ)، والرازي (ت606هـ)، وابن دقيق العيد (ت 703)، والعراقي (ت 808هـ) (12). لكنهم لم يذكروا إماماً مثل ابن تيمية برغم حركته التجديدية الضخمة في الفكر الإسلاميّ بمختلف جوانبه، لأنَّـه تأخرت وفاته عن رأس المائة (ت 728هـ).

فالحق أنّ النبيّ ﷺ لم يقُل: إنّ الله يتوفى المُجدِّد على رأس القرن، بل يبعثه على رأس القرن. ومعناه: أنّ مهمة المُجدِّد تبدأ في رأس القرن، كما أن مُهمّة كلّ نبيّ تبدأ من أوّل يوم بعث فيه. ولقد فطن إلى هذه الحقيقة المناوي _رحمه الله_ فقال: وهنا تنبيه ينبغي التفطُّن له، وهو أنّ كل من تكلم على حديث "إن الله يبعث" إلخ، إنّما يقرّره بناءً على أنّ المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسه. وأنت خبير بأن المتبادر من الحديث إنّما هو: أن البعث _وهو الإرسال_ يكون على رأس القرن، أيْ أوّله. ومعنى إرسال العالم: تأهُّله للتصدي لنفع الأنام، وانتصابه لنشر الأحكام. وموته على رأس القرن أخذٌ لا بعث! فَتَدَبَّرْ بإنصاف. ثم رأيت الطيبي قال: المراد بالبعث من انقضت المائة وهو حي عالم مشهور مشار إليه. والكرماني قال: قد كان قبيل كل مئة أيضاً من يصحح ويقوم بأمر الدين، وإنّما المراد من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه). ثم ذكر المناوي: "أنَّـه قد يكون في أثناء المائة من هو كذلك، بل قد يكون أفضل من المبعوث على الرأس وأنّ تخصيص الرأس إنّما هو لكونه مَظنّة انخرام علمائه غالباً وظهور البدع ونجوم الدجالين". وهو بذلك يؤكد حقيقة أن المُجدِّد لا يُشترط فيه أن يُبعث أو يظهر أو يموت على رأس المائة، وهذا يصدقه التاريخ والواقع. وهو الراجح والله أعلم. كما أنّ الظاهر والله أعلم أنّ عدم تحديد المقصود بالرّأس، وعدم تحديد المبتدأ، يشي بأنّ الله تعالى يبعث

المُـجدِّدين كلما دعت الحاجة إليهم، لاسيما في أزمنة النّكبات والفتن والملاحم. ومن ثم يظهر المُـجدِّدون في أي يوم من أيام السنة، وفي أيّ سنة من سنوات القرن! وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء.

4-أمّـا قوله ﷺ : "من يُجَدِّدُ لها دينها". فهذا يدلّ أن الدين المُـجَدَّد هو ذلك الذي يعتقده الناس، لا الدين الخالص الذي أنزله الله، ولذلك قال: "يُجدِّد لها دينها" فنسب الدين إلى الأمّـة، ولم يقل مثلاً: يجدد لها الدين أو يجدد لها دين الله فهدف المُـجدِّد هو تجديد الدين الذي يتصوره ويعتقده الناس بحيث يتفق والدين الخالص الذي أنزله الله غضاً طرياً على نبيه ﷺ

أمـا بشأن كلمة "من " في الحديث، والسؤال التقليدي: هل مَن هنا للفرد أم للجماعة؟ فأعتقد أن "من" تنطبق على الفرد كما تنطبق على الجماعة، فقد يكون القائم بالتجديد فرد، وقد يكون جماعة أو حركة أو مدرسة. فقد يبعث الله تعالى رجلاً يجدد في الفقه السياسي أو الاقتصاد الإسلاميّ، كما قد يبعث حركة إسلاميّـة تجدد في المجال التربوي، أو مدرسة تجديدية تنقي السنة، أو تجدد في فهم كتاب الله تعالى، أو تحمل راية الجهاد.

وفي هذا القرن الذي نعيشه نحتاج إلى حركة تجديديّة شاملة مُتكاملة مستنيرة، تنهض بهذه الأمّـة من عثرتها، وترفعها من كَـبْـوَتِها. (نظرات في حديث التجديد – محمد مسعد ياقوت)

الموقفُ الشَّرْطيّ المناسب للظرف التاريخي الحاضر في صياغة عقد الاجتماعي الجامع

خير الجماعات من اجتمعت على الفكرة، وشرها من اجتمعت على الشهوة والدنيا والمصالح، وبينهما من اجتمع على العصبية لعشيرة أو شخص

في عصر النبوة والخلافة الراشدة كان اجتماع الأمة على الفكرة والعقيدة، وفي عصر الملك العضوض قام العقد السياسيّ على العصبية فكانت تسمّى الدولة باسم العشيرة، وفي عصرِ الحكمِ الجبري قام العقد السياسيّ للأمّةِ على الشّهوةِ والغريزةِ والمصالح

أطوار العقد الاجتماعيّ

لا يمكن لأيّ عمليةِ تعصيبٍ اجتماعيّ أن تكتمل على عقدٍ جامعٍ إلا بعد دراسة فسيفساءِ أفكارِ ورغباتِ وعصبيّاتِ هذا المجتمع ومساحة هذه الأطوار على رقعته. يقسم الأستاذ مالك بن نبي الأطوار الحضارية إلى ثلاثة أطوار:

1- طَوْر الروح

(والإيمان حيث تتميز الأفكار وتجتمع الأمّـة حول فكرة جامعة تقوى بقوة الارتباط بها وتضعفُ بضعف الارتباط بها، وهذا ما كان عليه الحال منذ بعثة النبي ﷺ إلى موقعة صِفّين التي شكّلت أول حالة من الاصطدام بين أبناء الأمّـة، و كانت الخلافة من قبلُ ترتبطُ بتقديم من يحمل الدين، وكان الاختيار يتم لمن هو الأكثر ارتباطاً بالفكرة الإسلاميّـة ولم تسمَّ الدولةُ باسم حاكمها فلم نسمع من قال الدولة البكرية أو الدولة العمرية وإن كانت تظهر بعض العصبيات العابرة لكنها لم تكُنْ تعبّر عن السّمة العامّـة للأمّـة ثم لتدخل الأمّـة في الطور الثاني).

2-طور العقل

(في طور العقل تتراجعُ الأفكارُ قليلاً ويتقدّم الإنسان، وهنا دخلت الأمّـة في حقبةِ الملك العَضُوض الذي لا يمكنُ أن يقومَ إلا على العصبية، وظاهرة اليمانيّة والقيسيّة إبّان الحكم الأموي هي أحد مُفرزاتها حيث صار اسم الدولة مرتبطاً باسم العائلة التي تحكم، هنا لابُدّ للعصبية من استعمالٍ مفرطٍ للقوة لتصفية المعارضين واستعمالِ العصبية القبليّة في ضرب المعارضة وهذا الأمر لا يمكن إلا بسفك الدماءِ وتصفية الخصوم لأن الفكرة الجامعة للأمّـة ضامرة).

في مرحلة العصبيات لا يمكن أن تجتمع الأمّـة إلا بتشكيل هذه العصبية والهيمنة على العصبيات الأخرى، وقد راعى الإسلام هذه الناحية فجعل الإمامة في قريش الأمرُ الذي فسره ابن خلدون أنَّـه لِـعِلّة العصبية لأنّ العرب لا يمكن أن تجتمع إلا على قريش.

3-طور الغرائز

، في هذا الطور تزداد الفكرة ضموراً وينفرط عقد العصبيات لتتفوق الأشياء (عالم المحسوسات) من المتاع كما هو الحال في مرحلة الملك الجبري.

المُلك الجَبْريُّ يقوم بتوطيدِ المُلك على أساسِ تجميعِ المنتفعين وأصحاب المصالح، حتى النظام النصيري لم يكن طائفياً 100% بل إنَّـه استطاع تجميع أصحاب المصالح ومن كل الطوائف، ولم تكن العصبيّة للطائفةِ وإيجاد فكرة البعث إلا لتنظيمِ المصالح والتدرّء بها، حتى إنّ من تسمّوا بالرفاق (البعثيون)عندما تعارضت مقتضيات الحكم مع وجود البعض قاموا بقتل رفاق النضال.

بالعودة على بدء لا ننفي أنّ العصبية والغرائز لم تكن موجودة في الطور الأول، من ميلاد الأمّـة كانت موجودةً وأحياناً تطفو إلى السطح بشدة، فكان رسول الله ﷺ يروضها بما يتناسب مع تدعيم الفكرة وتقويتها فمن مراعاته

للعصبية كان كل رجل يقاتل تحت راية قومه ولكن الراية الجامعة هي لإعلاء كلمة الله وليس لإعلاء كلمة العشيرة، وكان يكرم كل كريم قوم ويُؤمّره عليهم.
حتى قضية الغرائز والشهوات كان هناك مصرف من مصارف الزكاة للمؤلفة قلوبهم، وقد آثر النبي ﷺ مسلمة الفتح وحَرَمَ الأنصار من غنائم حُنين، ولكن لم تكن هذه العناصر لتصل إلى الدائرة الصلبة من الأمّـة، ولكنه ضَمِن بذلك ولاءها وحَيَّدَ عداءها، ذلك أنّ من الناس من لا ينقاد إلا ببطنه وشهوته ومنهم من ينقاد بعقله وقلبه.

النتيجة:

من العبث بمكان أن ندعو أمّـة مُغرقةً في الشهوات أنْ تتوحّد بالاجتماع على الفكرة أو العصبية.
والساحة السورية الآن تنتشر فيها المظاهر الثلاثة خصوصاً في مرحلة صراعات الأفكار والعصبيات والغرائز التي تَمُوج بها الساحة، ولكي تتم الولادة السليمة لعقدٍ اجتماعيّ يعبر فيه البلد للمرحلة القادمة لا بُدّ من دراسة هذه الأطوار الثلاثة وتحديد سُبُلِ توظيفها بتحديد نسبتها وتأثيرها وإمكانيّة احتوائها وصَهرها في المشهد القادم لأنّ المُلاحظ أنّ هناك تنظيمات عصبيّة في الساحة وهناك تنظيمات مُأدْلَجة، وهناك تنظيمات مصلحية.
وعليه يجب أنْ نختار أحد الطريقتين في توحيد هذه المتباينات.
الطريقة الكيميائية في مزجها والخروج بمكافئٍ جديدٍ، أو التوظيف الفيزيائي في الجسم الآلي.
السقوط الحضاري لا يكون فُجائيّاً وشاقوليّاً، وإنّما يأخذ شكل منحنى قد تطول مسافته، فبعد حوالي مئة سنة من فتح المسلمين للأندلس بدأ خط الانحدار بعد معركة بلاط الشهداء حيث لم يتقدم الفتح الإسلاميّ خطوة واحدة وبدأ الانحسار تدريجياً، وما يقال عن السقوط نقوله عن النهوض الذي يأخذ أيضاً شكلاً متدرجاً ثم يتسارع إلى الأعلى ليصل إلى الذروة لتكتمل الدورة الحضارية للأمّـة.

- من ملامح الحلول:

تشكيل العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية:
عدم الاكتراث ببناء العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية، تسبب في تفتيتِ الوحدة الثقافية للعاملين في الحركة الإسلاميّـة فهم عرضة للاختصام أمام أتفه اختلافٍ فرعي.

وهنا لابُدّ من وضع أصولٍ يتميّز بها أهل السنة عن غيرهم دون الفرز على أساس الخلاف في الفروع. فالسنة هم الأمة، من الإجحاف النظر إليهم على أنهم طائفة!

الاجتماع على الأصول الكلية لأهل السنة والجماعة لأجل امتلاك الهوية:

اشتراط الموافقة في كل الفروع والمسائل الاجتهادية والظنّيّة لكي نحسب مدرسة أو شخصية علمية على أهل السنة ستؤدي إلى جعل أهل السنة حالة افتراضية غير موجودة إلا في أذهان المُتَنَطّعين قِياساً على تصوراتهم الخاصة.

الالتزام بالخطوط العريضة للإسلام وأركانه وشعائره يُسهّل تحديدَ الهوية للأمّة دون الدخول في زواريب المناهج الحزبيّة التي تُضيّق معنى الهوية فلا تكاد تشملُ أكثر من المنتسبين للحزب والجماعة لأنَّها تشترط شروطاً قياسيةً محدّدة بأصول الجماعة ومناهجها ولا تكتفي بالأصول العامّة للدين الحنيف.

من مشاكل المثقفين في بحثهم عن الوسطية أنهم يبحثون عنها بين مواقف الجماعات، لذلك لا يجدونها أبداً.

يعني هم يبحثون عن وسطيةٍ سياسيّة وليس عن وسطيّةٍ شرعيّةٍ التي يُبحث عنها بين النصوص في الفهم الوسطي الذي ينأى عن الغلوّ والتفريط.

وسطيّة أهل السنة والجماعة:

وأهل السنة والجماعة وسط في نصوص الوعد والوعيد، فالمرجئة يأخذون بنصوص الوعد ويتركون نصوص الوعيد، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، أمّا الخوارج والمعتزلة فهم على النقيض من المُرجئة، أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد.

أمّا أهل السنة فيرون أنّ نصوص الوعد لا يُخلفها الله تعالى، أمّا نصوص الوعيد فقد يخلفها للعفو والرحمة، وكذلك في الإيمان والعمل بين الخوارج الذين قالوا لا ينفع مع المعصية إيمان وبين المرجئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب

وأهل السنة وسط، بين الظاهرية الذين يقفون على ظواهر النصوص ويُبطلون مسلك التعليل، وبين الباطنية الذين يلوون أعناق النصوص ويغرقون بالمجازات الباطلة والتفاسير الإشارية وصولاً إلى الزندقة.

وأهل السنة وسط، بين المعطلة (الجهمية) الذين ينفون الصفات لله تعالى فيعبدون عدمًا، وبين المُجسمة (الحشوية) الذين يشبهون صفات الخالق بالمخلوق فيعبدون صنماً.

وأهل السنة وسط، بين القدرية الذين يقولون إن الإنسان خالق أفعال نفسه وأنه لا قدر والأمر أُنُف، وبين الجبرية الذين ينفون إرادة الإنسان مطلقاً.
وأهل السنة وسط بين الروافض الذين جعلوا من بُغض الصحابة ديناً وبين النواصب الذين جعلوا من بُغض آل البيت ديناً

دعوة إلى الاصطفاف السني

لقد ثبتَ بما لا يدعُ مجالاً للشكّ أمام بصرِ العُقلاء وأولي الألباب أن الأحزابَ أعجزُ وأضعفُ من أنْ تستطيع حمل مشاريع الأمّـة وأعجزُ من أنْ تستوعب الأمّـةَ في كياناتها.
الأحزاب المتدنية في سقوفها المتحجرة في مناهجها النخبوية في تنظيمها الإقصائية مع الجماعات الأخرى من إخوانـها من أهل السنة.
الجماعات كلها روافد صغيرة يتشكل منها نهر الإسلام العظيم، وإنّ استثناء أية جماعة يؤدّي إلى إضعافِ قوّة التيار في ذلك النهر.
- يضيق مفهوم أهل السنة عند البعض فلا يكاد يتسع إلا لجماعته وأهل مشربه، طبعاً مفهوم الأمّـة الذي نعنيه ليس هو المفهوم الشائع عند المُمنهجين والمتحزبين الذين يخضعون الأمر لشروط قياسية لا تنطبق إلا على جماعتهم.
البعض اليوم يرفع راية الجهاد النخبويّ الذي لا يستوعب إلا من يُسمّون أنفسهم إخوة المنهج ضمن شروط قياسية وانتقائية مُتمحّصة.
-هناك دعوة اليوم لصبغ جهاد الأمّـة ليكون سلفي الراية، وأن تكون قيادته سلفية التركيب، وأحكامه سلفية المنهج، وأن يكون كل شيء بالدّليل، ولو قبلنا أن يجاهد معنا من ليس سلفياً فمن باب الحاجة!
ولكن ليس لهم أن يكون لهم من القيادة أو أن تنعقد لهم البيعة شيء وإنّـما نقودهم لأداء فريضة الجهاد، طبعاً وليس كلّ السلفيّات تصلح لذلك، ولا يزالون يُضيّقون حتى يَقتصر الأمر على فئة بعينها ومرجعية بعينها وراية بعينها
ضرب من الانتحار التي تُقاد له الأمّـة في زمن الاصطفافات ليفرقوا بين المرء وأمته خصوصا في جهاد الصائل، فنحن اليوم نواجه كفراً بواحاً، فهل من المنطق أن نفتح معركة من أجل بدعة!
- لم يكن الجهاد في يوم من الأيام محصوراً في التيار السلفيّ، وقَصْرُهُ سيحوِّلُ قسماً كبير من الأمّـة إلى الجهة المتفرجة لأنَّـها ترفض الاصطباغ كشرط للجهاد، وربما تتحول إلى الطرف المعادي والرافض.

-الأمّـة جاهدت تحت قيادة ومنهج الصوفية (محمد الفاتح، عمر المختار)
وجاهدت تحت راية الأشاعرة (صلاح الدين) (ابن قدامة المقدسي)
وجاهدت تحت راية فاجر (الحجاج) (المهلب بن أبي صفرة)
وجاهدت تحت راية فاسق (يزيد بن معاوية)
-والنبي ﷺ جاهد مع المنافقين وجاهد مع من قالوا اجعل لنا ذات أنواط ولم تدخل المدارس الفقهية والكلامية إلى ساحات الجهاد في عصر السلف لتنحاز كل فئة إلى راية تُدلّـلُ على انتمائها ومشربها.
-وقد جاهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع الصوفية والأشاعرة لردّ عادية التتار في شقحب، وسماهم الطائفة المنصورة.
-وقد حسم الأئمّـة هذه المسألة لكيلا تكون ذريعة لتعدد الرايات والأحزاب، فبَوَّبُوا باب الجهاد مع كل إمامٍ بَرّاً كان أم فاجِراً، وهو أصل من أصول أهل السنة والجماعة.
الحزبيّـة اليوم صارت أُمّ المنكرات المتولدة عنها ببناتها المعروفات من الإقصاء والتمنهج وتزكية الفصيل والتغاضي عن الأخطاء وحماية المحدّثين والتشبع بما لم تعطَ الجماعة كلابس ثوبي زور.
بعد أن صارت الحزبيّـة من أعظم المنكرات فلن ينفع المتحزبين تأصيلُ حزْبيّـتهم بالتواري والتخفي وراء قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ آل عمران:104

كيف وقبل الآية الدعوة إلى الاعتصام بحبل الله تعالى لا بحبل الجماعات وذمّ الفرقة والحزبيّـة شأن الأمم الهالكة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾آل عمران:103 وقد جاء الوعيد الشديد على الحزبية بقوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾آل عمران:105
هي دعوة لمن يريدون أن يُحْيُوا فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنْ يبدأوا بأعظم منكر عرفته الأمّـة في هذا العصر ألا وهو الحزبيّـة.

الآن المرحلةُ مرحلةُ ما بعد الجماعات وهي مرحلة الاصطفاف السّنّي، ومن خلال التجارب السّالفة كان الأولى أنْ نتعلم منها، ولكن كُرِّرَ الخطأ في الشام، ولعل البعض يكابر وينتقد.

وهذا الوعي يفتقده الكثيرون لقلة تجاربهم وانحسار الأفكار بزاوية ضيّقة، وأصبحنا كبني إسرائيل ضيقنا واسعاً وألزمنا أنفسنا بإلزاماتٍ لم تفرض علينا، وهو من التكلّف المُجانب لليُسْرِ الذي جاء به محمد ﷺ ، وقد عاب الله على بني إسرائيل ذلك ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾الحديد:27

من خلال تجربةِ الجزائر ثم تجربةِ العراق وتجربة الشام وجب علينا أن نعيَ أنّ دِماءَ ومصيرَ الشعوبِ المسلمة لا يَحِلّ أن يكون حقلَ تجارب فاشلةٍ يعبثُ به الغلاة الجهلة من السفهاء الذين يقومون بخرق سفينة الأمّـة ليصنعوا من حطامها قوارب صغيرة تتسع لأحزابهم عندما يقررون النجاة بها بعد أن تغرق سفينة الأمّـة المخرقة.

-أرى بوادر تشكّل تيار فكريّ سُنّي مجتمعي ينبُذُ الحزبيّـة ويدعو إلى الاصطفاف السّني ويبدو أنّ ليل الأحزاب سَيُبَدِّدُه نهارُ الأمّـة، وعشاق العمل بالأجواء المظلمة سيُعَرّيهم فجر الأمّـة الباسم، فقد تنقل المُمَنْهجون في زواريب الفكر يمنة ويسرة وبقيت الحالة الشعبية ثابتة البوصلة والاتجاه في وسطيّةٍ مهتديةٍ بصفاءِ الفطرةِ لم تُكَدّرها الشبهات وفوضى الأفكار.

لن يكون التيار الجديد دعوةً تنظيميةً ولا دعوةً حزبيّةً جديدةً وإنّما هو دعوة لاصطفاف الأمّـة كلّ الأمّـة في ساحةٍ واحدةٍ لتحمل عِبْءَ الجهاد وردّ الصّائل.

الجهاد مع المنافقين

هل كان هناك مشاركةٌ سياسيةٌ وجهاديةٌ بين المسلمين والمنافقين في دولة المدينة المنورة؟ هل كان من سياسة رسول الله ﷺعزل المنافقين عن الجهاد والمجتمع أم دمجهم؟

-لقد كانت المشاركة السياسية موجودةً، وقد استشار رسول الله ﷺ رأس النفاق ابن سلول في معركة أحُد، وكان حضورهم لغزوة الأحزاب ولم ينزع منهم السلاح بل أعطاهم سلاح بني قينقاع!

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ لي موالي من اليهود كثيرٌ عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولّى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أُبَيّ: إني رجلٌ أخاف الدّوائر، لا أبرأ من ولاية مواليّ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: "يا أبا الحُباب! أرأيت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة، فهو لك دونه" قال: إذن أقبل، فأنزل الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ﴾ إلى أن بلغ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة:51-67

والعجيب أنّ الآية نزلت في المنافقين ويستدل بها البعض على التكفير والردة!

-وقد كان المنافقون يعقدون الاجتماعات السرية باليهود ويتآمرون على المسلمين، واتخذوا مسجد الضرار ليكون لهم مقرّاً ومرصداً للكفار وتفريقاً للصف فلم يسمح لهم رسول الله ﷺ أن ينفردوا بمسجدهم فهدمه وكل ذلك سعيٌ من النبي ﷺ لدمجهم لا لعزلهم ولاستعمالهم في الجهاد، بل كان يدعوهم لذلك ولا يدعو لمحاربتهم واستئصالهم وهكذا مضت السُّنّـة في التعامل مع ظاهرة النفاق.

تجنب الصراع النخبوي

النخبة الإسلاميّـة مبتلية بهوس الدفاع عن الأيديولوجيا التي تتبناها أكثر من دفاعها عن قضايا الأمّـة، وهمها دائماً هو الاستثمار السياسي في كل حدثٍ أو مصيبةٍ تقع على الأمّـة، لذلك تعتبر نُخباً معتاشةً على الأزمات.

-الأزمات تشكّلُ حقل استثمارٍ ثريّ للنّخبة لكي تُروّج إلى مناهجها وأفكارها وممارسة دور الوصاية على الأمّـة القاصرة.

-تحاول النخب ترويج أنّ منهاجَها هي الحلولُ الناجعة لأزمات الأمّـة، وأيّ حل لا ينطلق من أيديولوجيتها هو حلّ ساقط ومرفوض ومحارب منهم، ويعتبرون أيّ حلّ لأزمة الأمّـة بعيداً عن مبادئهم هو سقوط لنظريّاتهم التي يعطونها حكم القطع والبعد العقدي.

-النخبة لا تهتم لطول أزمة الأمّـة وسرعة حلّها بقدر ما تهتمّ بنشر أفكارها وتحشيد الأتباع لها ولو على حساب صراع واحتراب داخليّ مع النخب الأخرى من التيارات الإسلاميّـة المخالفة.

-في الوقت الذي تخوض فيه الأمّـة صراع الوجود والفناء والدفاع عن الضروريات وردّ الصّائل تخوض النخبة الإسلاميّة الصراع من خلال أيديولوجيتها الحزبية ولأجلها ليس من خلال واقع الأمّـة واحتياجاتها، ومما يُدخلها بصراع تنافسي مع النخب الأخرى فيتحول الصراع بينهم لصراع سلطويٍّ يحاول كلّ منهم استدعاء الأمّـة لأيدولوجيته ومنهجه.

أمام تعدد التيارات النُّخْبَوِيّة وعدم اجتماعها وصراعها ستقوم كل نخبةٍ بخطف قطاعٍ من الشعب المقهور بأزمته ليكون الوقود المستهلك لتمرير مشاريعها الحزبيّـة، ولن تجد غضاضة حتى في زجّه بصراعٍ داخليّ جانبي بعيداً عن الصراع الاستراتيجيّ الوجودي للأمّـة.

-هذا الحال في الغالب يدفع قطاعاً كبيراً من الأمّـة لتعود وترتمي بأحضان الطغاة وإجهاض ثورته بعد أدلجتها.

-وهذا ملاحظ بشكل مُضطرد في الثورات، إذ يرتفع خطها البياني عندما تكون شعبيةً موجهة من النخبة، وينحدر خطها البياني عندما تتحول إلى ثورة تتقاذَفُها الأدلجة والمناهج، النخبوية المُفرطة تؤدي إلى التنظير المُمِلّ في البروج العاجية، والشعبوية المفرطة تؤدي إلى الفوضى العارمة والغثائية.

والحل أنْ تكون النخبة موجّهةً ومُرشدةً، وعدم إدخال الساحة في الاستقطاب والحزبيّـة وما يجُرّ لِحَرْفِ البوصلة وهدْرِ الطاقات في الصراعات الانتهازية.

ترسيخ مفهوم إقامة الشريعة بدلاً من مفهوم تطبيق الشريعة:

يتعرض المسلمون لحرب مفاهيم على دينهم باختزال مفاهيمَ شاملة لتدلل على جزئياتٍ صغيرة مثل:

أولا: من المفاهيم الخاطئة مفهوم تطبيق الشريعة فلا يقال تطبيق الشريعة، وإنّـما يقال إقامة الشريعة لقوله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾ الشورى:13

التطبيق يأتي من نفسيةٍ تسلّطيةٍ استبداديةٍ وهي عبارةٌ تختزل الشريعةَ بالحدود، أمّـا الإقامة هي عمليةٌ بنائيّة تشبه إقامة البنيان بالأساسات إلى المراحل التي تمر لإنجاز البنيان من البناء الإيماني إلى البناء التربوي إلى البناء العلمي، ثم تحقيق الضروريات للمجتمع ثم حماية المجتمع بِسُوْرِ العقوبات من حدود وقَصاص وتعزيرات.

النظام الإسلاميّ كلٌّ متكامل:

يُطعم الجائع قبل أن يحدّ السارق، ويَعُفّ العازب قبل أن يحدّ الزاني.

إنّ اليد التي لا تجد لنفسها عملاً في الحلال لابُدّ أن تمتدّ إلى الحرام.

النظام الإسلاميّ يعالج الجريمة من أسبابها وليس من مفرزاتها، السّرقة قد تكون من مفرزات الضياع الاجتماعيّ والفقر المدقع.

الشريعة رحمةٌ كلها، عدلٌ كلها، مصلحةٌ كلها، فأيّ مسألة خرجت من العدل إلى الجور ومن المصلحة إلى المفسدة ومن الرحمة إلى الشدة، فليست من الشريعة وإنْ أُقْحِمَت فيها بألف دليلٍ ودليل.

قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء:32 ولم يقل لا تزنوا.

إفقار امرأة لا قيّمَ لها في بيئةٍ مفتونةٍ دفعها إلى الفاحشة.

مَن انْحَرَفَ إلى الشهوة ليس كمَنْ انحرف إلى الشّبْهة.

قال رسول الله ﷺ عمن جادت بنفسها بالحدّ (لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟) رواه مسلم

وقال عن القتلى من المارقين (الخوارج): (كِلَابُ النَّارِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ) رواه الترمذي

الحدود لا توجِدُ المجتمعَ الفاضل وإنّما تحمِيْه، لذلك كانت التّربيةُ الإيمانيةُ للمجتمع خطوةً غير منفصلةٍ عن إقامة الشريعة.

يقول أحدهم بعد عمل سنة كاملة في المحاكم الشرعية: ما وجدت أحداً تحت الشرع من الفصائل!

الخضوعُ للشرع عند الفصائل يتناسب عكساً مع تعاظم الشعور بالقوة ونُقْصانه.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ العلق:6-7

العقلية المتحزِّبة ليست متمرّدةً على الشرع، ولكنها تُثْقِنُ الالتفاف عليه، فأغلبها يحكم على الشرع وليس الشرع من يحكم عليه.

ملاحظ بشكل مضطرد كلما تقدمت الجماعات الإسلاميّة بتطبيق الشريعة في الفروع كلما ضُيعت مقاصد الشريعة الكلية، الأمر الذي يدل أنّ ما يطبق هو الذريعة وليس الشريعة، وأنّ المطبقين غارقون في الفروع غافلون عن المقاصد.

شُبْهَةٌ وَرَدٌّ

-في معرض الردّ على الغلاة عندما يَرمون بشبهةِ أنّ الدين اكتمل، فلا يجوز أن نستدل بفعلٍ لرسول الله ﷺ قبل اكتمال الدين كطوافه حول البيت مع وجود الأصنام.

نقول:

يجب أنْ نميّز دائماً بين نوعين من الاكتمال

1-اكتمالِ الدينِ كشرائعٍ وأحكام وفرائض وواجبات

2-واكتمالِ الظروفِ والمَكَنَة والاستطاعة لتطبيق هذه الشرائع والأحكام.

فلا يلزم من اكتمالِ الشرائع اكتمال الاستطاعة على تطبيق هذه الأحكام والشرائع، لذلك أناط الله تعالى هذه المسالة تحت شرطِ الاستطاعة والقدرة، وتحديدُ هذا الأمر هو اجتهادٌ محضٌ، قال تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم).

وهناك من الأدلّة الكثيرة التي تربط التكليف بالقدرة والاستطاعة. ومن هنا نرد على قضية التدرج في إقامة الشريعة:

التدرّج ليس مقصوداً لذاته، والرّأي الحق بين مَن ينفي التدرج مطلقاً، وبين من يثبته مطلقاً.

إنّ التدرج مَنوط بالقدرة والاستطاعة، فكلما استطعنا من تطبيق حكم وجب الوصول إليه.

الإسلام ليس نظاماً سياسياً فحسب، وليس نظاماً اقتصادياً فحسب، وليس حركةً جهاديةً فحسب، وليس تربيةً روحيةً فحسب، وليس امتداداً جغرافياً وليس نظامَ

عقوباتٍ فحسب، إنَّـه النظام الربّـانيّ الذي يستوعب حاجات الإنسان والمجتمع، وهذا ما لم تستوعبه الأحزاب المجتمعة على جزئياته ثم تضخيمها إلى درجة التوَرُّمِ المُشوّه للصورة الكاملة.

الخاتمة والنتائج

نحنُ نتكلم عن أمّـة إنْ اقتصرنا العمل على موقع وزاوية فإن الالتفاف علينا من السهل بمكان لإجهاض ما قمنا به، وهكذا سندور في حلقةٍ مفرغةٍ، وسنجد الغرب انـكبّوا علينا تحت أيّ ذريعة لتقويض المشروع في طور إخراج الشطء قبل أن يصل إلى الاستغلاظ والاستواء على السوق.

نحن نخوضُ معاركَ نازفة لأجل إسقاطِ الدّولة الظّاهرة، والدولةُ العميقة متماسكة ومتغلغلة حتى في أحزابنا هذا يتطلب منا إدارة صراعٍ خفيٍّ في مفاصل هذه الدول المستغربة التي تعمل كالغدد السرطانية.

نحن لا نتملق الغربَ ونشهدُ ارتباكه ومحاولته لتنصير أوربا الغارقة اليوم بالالحاد حتى يتخلص من معضلة الحاضنة غير القابلةِ لمشروعه، هذه نقطه ضعف لم نستغلها مع أن الأبواب كانت مُشْرَعة، والخواء الروحي كان فراغاً هائلاً للتحرك فيه وإشباعه بالدعوة في مساحة حرية الرأي والاعتقاد.

الأنظمة العربية ما هي إلا نواطيرُ ورعاةٌ لمصالح الاستعمار، بل إنَّـها زادت عليه بالبطش والعسف، المعركة معهم غير منفصلة عن الاستعمار ولكن استعداء الغرب وجره إلى المواجهة ليكون حليفاً مقاتلاً مع هذه الأنظمة يجب أنْ لا يكون من أولويّاتنا الآن، لأن الغرب في النهاية جاهز للتخلي عن حلفائه إذا ما تحولوا إلى عبء ثقيل عليه.

الأحزاب رايات، فمن دخل فيها بحكم الاضطرار ليس كمن صنع الراية ورفض الاصطفاف مع الأمّـة، الأمر يختلف بين الاثنين:
نحن لا نتكلم عن إقامة كيان جزئي، فهذا سيتهشم بسهولة، نحن نتكلم عن تصدير مشروع إسلاميّ. القضية أكبر من أنْ نحتويها كما كنّا بالسابق عبر قيام دولة تحتضن الأمّـة لأنّ الالتفاف كاملٌ على المسلمين، نحن نحتاج مشروعاً قابلاً للتصدير بسرعة يستدعي المحيط الإسلاميّ ليتحصل على إحاطة الأمّـة له وتقليده.
هذا ما يتخوفون منه، تجربة أردوغان غير قابلة للتصدير، قيام تركيا كدولة عظمى أمر مشكوك فيه.
التطور العسكري لدى الغرب قد يتدخل ليحسم قضية تركيا، ولا أظن أنَّـها ستخوض صراعاً من أجلنا، صربيا تتجهز واليونان وإيران، ونحن نلقي الحمل بالكامل على الأتراك، سيكونون أمام خيار مواجهة العالم لأجلنا ونحنُ كسالى، أو الانجرار تحت سلسلة من التنازلات التي لن تنتهي حتى تهدم تركيا.
علينا الخروج بمشروع وليس كيان، هنا التخطيط الاستراتيجيّ لصالح الأمّـة وهناك التخطيط النفعي الحزبي.
الفرق بين الفكريين واضح.
أيتها الأحزاب الإسلاميّـة، لمَ تتقاتلون إذن؟ ولم راياتكم مختلفة؟
لا أعتقد أن الشريعة الخاتمة نزلت على أكثر من رسول وديننا ليس له أكثر من كتاب، فلا تخبرني أن فهمي يختلف عن فهم فلان ولذلك آثرت أن تكون لي راية وله راية.
الصحابة اختلفوا ولم تختلف رايتهم لأنّ فهمهم أرقى من اختلافهم.
تحزُّب الأحزاب في وقت اصطفاف الأمّـة لا يخرج من بين ثلاثة:
1_ خيانـة، وقد وُجدت كتائب خائنة
2_ هوىً متّبع وشُبهة، وقد وُجد من يَقيْسُ الأمّـة على حزبه
3_ سُلطة، وقد وُجد من دعا لنفسه
حكم تفرق الرايات يدخل فيه المجاهدون بحالة الاضطرار، لكن ما حكم القادة؟ هل ينطبق عليهم نفس الحكم؟

أليست الفُرقة من أكبر الكبائر التي تتسبّب باستباحة بَيْضة المسلمين؟

ما حكم من يشق صف الأمّـة؟

حكم المجاهد في تعدد الرايات أنَّـه مضطر، لأنّ هذه وسيلته بالجهاد، لكن ما حكم من ينزع الأمّـة إلى رايات القادة؟ هل يقعون بحكم الاضطرار إن توفر لهم التوحد ورفضوه تحت أعذار اختلاف الأفهام ووجهات النظر؟

الأمّـة قاتلت تحت راية سلفيّ وصوفيّ وأشعريّ وفاجر،

هل اختلافُ الفهم هو قياسٌ صحيحٌ بين المذاهب؟

ألم نشهد توحُّد الأشاعرة والصوفية خلف ابن تيمية؟

ألم نشهد توحّد الأمّـة خلف العز بن عبد السلام؟

ألم نشهد توحدها خلف الوزير نظام الملك؟

ألم نشهد توحدها خلف المماليك ومنهم المقتصد ومنهم الفاجر؟

ما الذي اختلف الآن؟

قضية تعدد الفهم هي شمّاعة تتخفى خلفها الأحزاب، والحقيقة أنّ السلطة وفتنتها توغّلت عن نخبة النظام الحزبي فجعلت من اختلاف الفهم ساتراً يتخفى خلفه الكثير ليتوصلوا إلى أهداف سلطوية.

طبعاً كلامنا لا يشمل جميع الكتائب التي لا تحمل أيديولوجية حزبية وتقاتل مخلصة ولا تعنيها هذه الصراعات ولم تدخل في دوامة النزاع الفكري.

المُنقّب في خلافات الأحزاب يجدها خلافات على مفقود، وهي إمّـا خلافات تاريخية وقعت ومضت عفا عليها الزمن، وإمّـا خلافات مستقبلية لا زالت بعيدة المنال عن متناول الكل، كالاختلاف على شكل الدولة الإسلاميّـة في المستقبل اختلاف على مفقود يؤدي لعدم التعاون على الموجود من أزمات واستحقاقات تحتاج للمواجهة.

لا يجوز بحال أن ننشغل بصراع الجزئيات في عالمٍ يتصارع على الكليات، إنَّـه تقزيم للأمّـة والرسالة والمعركة واتجاه نحو الهزيمة التي رسّخت حالة من الإحباط لكثرة تكرارها ومرّ حصادها وعظم غرمها ونكران متسببيها.

الذين نقصدهم هم الذين وجدوا من سوريا أرضاً خصبةً لمشروعهم السلطوي فانساقوا خلفه، فانشغلوا بخصومهم المنافسين لهم أكثر من عدوّهم المتربّص بهم حتى يتصارعوا بعد أن غاب عنهم المقصد الأساسي.

الذي يريد أنْ يُقيم الإسلام لا يفكّر بالدولة، بل يفكر بالأمّـة لتقيمَ هي الدولةَ بروح التشاركية، ولكن التصلب المنهجيّ يأبى عليهم هذا فتغلبُ عليهم روح الاجتثاث للمخالف، ولم يعد الأمر يتوقفُ عند الإقصاء والإبعاد وانقطاع التعاون والحوار.

الإسلام ليس جغرافيا فقط، فإن تحول لجغرافيا فإنَّـه سيكون مُعرّضاً للتمدد والانـكماش وفق الصراع الحضاري. الذي حوَّل الإسلام جغرافيا هم ملوكُ المسلمين الذي كانت مُهمّتهم تقتصر على حماية الثغور، ومتى غلبوا حضارياً زالت دولهم كزوال دولة بني أمية وبني العباس ومن تبعهم.

هذا الموروث السلطوي الخاطئ وُرِّث من تلك الحقبة الملكية العضوض، الإسلام ليس دولةً فقط، ولن يكون دولة فقط، ومَن قزّمه بدولة فليتحمّل الصراع الحضاريّ ولْـيَـكُـنْ أهلاً له، فمن لا يملك أدوات الحضارة الذي أنا متأكد أنّ كلّ المسلمين لا يملكون مِعشارها فليُقِم له دولة لنتحسّر على زوالها بعد أيامٍ معدودة للأسباب التي قلناها.

لا تقزّموا الإسلام بالمشاريع الحزبية الضعيفة، فتعرضوا على المسلمين مصطلحات لا يفقهونها حتى تحدثوا فراغاً تدخلوا من خلاله، ليس هذا سبيل المصلحين، بل حدِّثوا الناس بما يفقهون وادْعُوهُم لما يستطيعون، وقدّموا حفظ نفوسهم وأعراضهم كما قدمها الإسلام على أهوائكم ومشاريعكم.

ساحة الشام هي ثورةُ شعبٍ مسلم، وفي النهاية لا بُدّ أنْ تفهم الجماعات جميعاً أنَّـه لا مجال لمشاريعها الخاصّة في هذا الوقت وإلا سوفَ تبوءُ بالفشل جميعها.

هذه بعض الخواطر مما نقلته عن بعض الأفاضل في أرض الشام ومما جاد بها الخاطر من خضم التجربة الشامية المباركة

أسأل الله تعالى أن يكتب فيها الخير والنفع هذا وما كان خطأً فمن نفسي ومن الشيطان وما كان صواباً فبتوفيق الله

والحمد لله رب العالمين

لا يَحملنّكَ خبثُ العلمانيين أن ترتميَ بدمِ الغُلاةِ
ولا يَحملنّكَ إجرامُ الغلاةِ أن ترتميَ بروثِ العلمانيين
فكلاهُما خبثٌ
وطّنِ النّفسَ على الحقّ
عسى الله أن يُخرِجَ مِنْ بينِ فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشّاربينَ
ومَا ذلكَ على اللّهِ بعزيزٍ